

مكتبة الإسكندرية
روح الشرق الجديد

تأليف
الأستاذ الدكتور
ماهر عبد القادر محمد
جامعة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية

روح الشرق الجديد

الجزء الأول

الدكتور

ماهر عبد القادر محمد

2004


بسم الله الرحمن الرحيم

إننا نعتبر احياء مكتبة الإسكندرية حدثا ثقافيا عالميـــا لا تستأثر به مصر وحدها ، بل ستكون له أصداؤه وأثـــاره فى كل الأوساط العلمية المهتمة بالتراث الثقافى بأبعـــاده الدولية وخصائصه الإنسانية . ثـــم إن المعرفـــة والفـــن والفكر والثقافة هى مادة هذا الصــــرح الحضـــارى .... وهذه الروافد جميعا هى دعائم السلام الذى هـــو هـــدفنا الأسمى وحلمنا جميعا .

من خطاب فخامة الرئيس محمد حسنى مبارك

باعث النهضة الثقافية فى مصر الحديثة

(لقاء أسوان 12 فبراير 1990)

إهداء

إلى

السيدة الفاضلة

سوزان مبارك

تقديراً وعرفاناً على كريم رعايتها

لمكتبة الإسكندرية

روح الشرق الجديد

ستكون مكتبة الإسكندرية مركز إشعاع للفكـــر ومنتـــدى للنقاش والحوار فى كل ما يتعلق بالفكر والعلوم والفنون والثقافة وملتقى بين الشمال والجنوب والشرق والغـــرب وبـــذلك فدور المكتبة هو تشجيع الحوار بين الحضارات وليس التصادم بين الثقافات .

السيدة الفاضلة/ سوزان مبارك

3 مايو 2001

تقديـــم

هناك أحداث وظواهر كبرى تحدث فى حياة البشرية، بعضها قـد يتكررفى صورة أو أخرى، وبعضها الآخر لاسبيل إلى تكراره. ومكتبة الإسكندرية الحديثة من حيث التـذكر التاريخى ، تمثل صـورة مـن صور استرجاع لتلك المكتبة القديمة الأسطورة... الظاهرة الحضـارية الخلاقة تجعل منها المثال والأنموذج، وكما يقول أفلاطون كـل شـىء وله مثال ؛ إلا أن المثال هذه المرة يأتى من خلال عطاء وصنع بشـر يملكون التكنولوجيا والتقنيات الفائقة ، ويأتى من خلال تضافر جهـود العديد من المنظمات الإقليمية والدولية ، ويأتى بفضل سـواعد رجـال نذروا أنفسهم لإعادة إنتاج الظاهرة الأسطورية.

والكتاب الراهن يقع فى ثلاثة أقسام ، ويتناول بالدراسة والتحليل المعرفى مكتبة الإسكندرية عبر الزمان ومدرستها الفكرية ويحاول أن يبين أبعادها وتواصلها جيلاً بعد جيل:

القسم الأول: ويتناول المكتبة ومنظومة التأسيس ، حيث يتحدث عن الصلات المصرية اليونانية القديمة . ويتناول المشروع الثقافى عند البطالمة ، ثم ينتقل إلى الحديث عن تأسيس المكتبة والرؤية الفلسفية ، ويتناول كاليماخوس مصنف المكتبة والفهرست ، ثم يتناول بالحديث علماء الإسكندرية .

وأما القسم الثانى فيتابع الحديث عن مكتبة الإسكندرية حيث يتناول الدراسات العربية الكلاسيكية وتتبع فتح الإسكندرية . ثم يتناول الدراسات العربية فى القرنين السادس والسابع الهجريين ونقد هــذه الكتابات . وأخيرا يتجه إلى الحديث عن يحيى النحوى وقصته المزعومة مع عمروبن العاص .

وأما القسم الثالث فقد جاء فى الجزء الثانى ويدور حول السؤال : كيف نظر علماء الإسكندرية والأدباء والكتاب - الــذين عاشوا فى هــذه المدينة التاريخية - إلى الإسكندرية عشقا وحبا وتراثا وكيانا وفكرا ؟ وكيف تصوروا مستقبل مكتبتهم الجديدة فى عصر جديد ؟

هذا التناول يأتى من خلال التعامل مع، القصة المشهورة عن مكتبة الإسكندرية وتحليل هذه القصة ونقدها، لبيان كافة جوانبها ، والأدلة والوثائق- إن وجدت - التى قدمت عبر التاريخ الطويل لتغطية هذه القصة ، وشرح أبعادها ، وتحليل جوانبها الخفية وبيان نصيب الخرافة والأسطورة فيها.

وربما كان من المناسب فى هذا المقام أن نذكر للقارئ ، ونـــذكره فى الوقت نفسه ، أن ما سوف يقال على هذه الصفحات ليس خاتمـــة المطاف فى قصة مكتبة الإسكندرية القديمة ، ممـــا يعنـــى أن هنـــاك إسهامات أخرى سوف تتوإلى فى المستقبل عن الموضوع نفسه ، وهذا يشير بالضرورة إلى أن مكتبة الإسكندرية القديمة تمثل مشكلة ولغــزاً

حقيقياً بالنسبة للمفكرين، ويعنى أيضا أن دلالتها تتضح من أنها تجسد لنا مشكلة معرفية قبل أن تكون لغزاً حضارياً. ومعنى هـذا القول أن المشكلة المعرفية تبقى مفتوحة أمام الباحثين لتناولها من خلال زوايـا ورؤى مختلفة تتسق أو لا تتسق مع طبيعة الظاهرة الحضارية ذاتهـا ودلالتها .

وانطلاقا من الفكرة السابقة فإن الإبقاء على لغز مكتبة الإسـكندرية القديمة مشكلة معرفية مفتوحة ، يعنى أن فكرتنا الأساسية تتخذ شـكل الحجة ذات المقدمات والنتائج ، كما تتسم بالطابع المنطقي الذي يخضع بالضرورة لاعمال قانون عدم التنـاقض لبيـان مواضـع الاتسـاق واللااتساق أيضا . كما يعنى من الجانب الآخـر أن تخضـع الأدلـة التاريخية والحجج التي سيقت من جانـب المـؤرخين أو المفكـرين لاعمال منهج النقد والتفنيد الذي نتعامل بـه مـع جوانـب المشـكلة المعرفية ومفرداتها.

وتأسيساً على الفكرة السابقة فإن هذه الدراسة معرفية منطقية تاريخية عن مكتبة الإسكندرية القديمة وسريان روحها فى المكتبة الحديثة لتكشف عن روح جديد فى الشرق . ومن ثم يبدو من الملائم هنا أن نشير إلى أن الدراسات السابقة على اختلاف درجاتها ، ودرجات القبول أو الرفض لها ، تعاملت مع ظاهرة مكتبة الإسكندرية القديمة بصفتها حدثا تاريخياً فحسب ، كما تناولتها كظاهرة فى نتائجها

من حيث تصديق أو عدم تصديق نهايتها ، ولم تتعامل مع ما تمثله هذه الظاهرة من مشكلات معرفية، وكأن التاريخ توقف عند هذا الحدث الأسطورة وأغلقت تلك الظاهرة أبواب مشكلاتها .

وعلى خلاف التصورات السابقة ، سوف نعمل على إعمال المنهج العلمي فى القصة والظاهرة برمتها (وسيعرف القارئ أثناء تتبعه لهذه الدراسة أننى أعنى بالقصة شيئا ، وبالظاهرة شيئا آخر ، برغم ما بينهما من اتصال) لتأسيس نتيجة تفيدنا فى الحكم على الدراسات السابقة بطريقة موضوعية ، وفى الإبقاء على جوانب القصة والظاهرة معا ملكا لأجيال المفكرين الجدد.

وما أعنيه بالقصة فى هذا السياق يتمثل فى الروايات التى سبق أن صدرت فى الدراسات العربية الكلاسيكية بصفة خاصة أو الغربية ، من روايات تروى لتصوير الطابع المأسوى لمصير مكتبة الإسكندرية القديمة، ولبيان الأحكام التعسفية التى رسمتها حدود تلك الروايات باعتبارها لم تكن واعية بأحداث التاريخ . وهـذا البيان لا يخلو بطبيعة الحال من الطابع الأسطورى الـذى يقف على نقيض العقلانية التى يجب أن يتسم بها التحليل المنهجى للحدث . وأما ما أعنيه بالظاهرة فيمكن أن نلتمسه من خلال أن مكتبة الإسكندرية مثلت عبر تاريخها ، وحتى قبل أن تبعث من جديد ، أضخم حدث علمى فى تاريخ الإنسانية عبر قرون طويلة ، وتلك مسألة تستحق تحليلا

سسيولوجيا وسيكولوجيا من الباحثين على اختلاف توجهاتهم . وهـذا الجانب الـذى قد يستوقفنا لابد وأن تتسم تحليلاته بالعقلانية والفهم الدقيق لطبيعة السياق التاريخ الـذى اختلط فى كثير من الأحيان لدى المؤرخين بعناصر ليست من طبيعة مكونات الظاهرة .

نشير أيضا إلى أن تعاملنا مع القصة والظاهرة سوف يتخذ طابع التحليل التكاملي ، وهذا هو خيط الاتصال بينهما ، بمعنى أننا سوف نتعامل مع جوانبهما المختلفة بصورة معرفية منطقية تاريخية فى الوقت نفسه ، من غير فصل بين الجوانب المختلفة لتطبيق هذا المنهج.

إن الحقيقة التى تجمع عليها الآراء المختلفة تتمثل فـى أن مكتبـة الإسكندرية القديمة قامت وتأسست كمنارة ثقافية وحضـارية ينـدر أن نجد مثيلا لها فى العالم القديم ، رغم وجود مكتبـات قديمـة متعـددة انتشرت فى بقاع كثيرة من العالم القديم ، التى ربما كان مـن أبرزهـا المكتبات الفرعونية القديمة بتنظيمها داخل المعابد وهيكلها الثقافى العام، وربما يرجع السبب فى هـذا إلى أن مكتبة الإسكندرية القديمة كانـت ذات توجهات جديدة لم تكن مألوفة من قبل فى المكتبات الآخرى التـى انكفأت على نفسها ولم تتواصل مع غيرهـا مـن المكتبـات العالميـة الآخرى .

والواقع أن هـذه الحقيقة على الرغم من أنها بادية للعيـان ، إلا أن امتداد هـذه المكتبة من القديم إلى الحديث شكل بعدا حضاريا متناميـا

مما جعل هــذه القيمة تتواصل ثقافيا وحضاريا عبر الزمان ، خاصــة وأن المكتبة القديمة حين تأسست بعثت روحا جديدا فى الشرق .

ومن ثم فإنه إذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة حدثا ثقافيا عالميا فإن ذلك يرجع إلى العوامل المتعددة التى جعلتها تحتل مكانتهــا المرموقــة عبرالزمان. خاصة وأن العقول التى قامت على أمــر المكتبــة منــذ البداية كانت تتمتع بتصورات ورؤى متفتحة اكتسبتها من طبيعة المناخ الثقافى القائم على المناقشات الثقافية والحوار والجدل الذى كان ســائدا فى دوائر الفكر الفلسفى والسياسى مما توافر فى بيئة صحية تعلى مــن قيمة العقل والفكر. وقد شكلت هــذه الخاصية البعد الأساســى للــروح الجديد والعقل المفتوح على كافة الثقافات والروافــد الآخــرى إن فــى الشرق أو الغرب . وقد مثل هــذا الروح والإنفتاح الشريان الرئيســى الــذى تنفست منه المكتبة، وهو ذاته الــذى زودها بطاقــات خلاقــة لتتواصل به قدرتها على الابداع والعطاء فى مجالات العلم المختلفة أو الأدب أوالفن أو الشعر أو غيرها من المجالات التى اتصلت بعالم الفكر والثقافة . هــذا إلى جانب أن خاصية الإنفتاح الفكرى التــى نتحــدث عنها سمحت للمفكرين والمبدعين أن يتواصلوا من خلال العطاء المبدع بصورة سمحت لهم بتشكيل البنية المعرفية لرؤيتهم للعالم وقتئــذ مــن خلال منظومة حوارية تواصل فيها القديم والحديث معا ، وتفاعلت فيها الخبرة مع العلم مما جعل المكتبة بأروقتها العلمية المختلفة ترث الروح

الفلسفى والعلمى المتكامل الــذى ساد فى مدارس الفكر الأثينية والتقاليد العلمية والأخلاقية التى سادت فى مصر القديمة وغيرها من المــدارس الفكرية التى ربما كانت سائدة فى ذلك الوقــت . ولاشــك أن هـــذه الخاصية وضحت تماما فى ظهور عدد كبير من المفكــرين والعلمــاء الأفــذاذ الــذين وفدوا إلى مصر من شتى أنحاء المعمورة واعتبــروا الإسكندرية وطنهم الثانى.

أضف إلى هذا طبيعة التكوين الثقافى الذى شكل مهــارة المفكــرين والعلماء وجعلهم يقبلون على العالم شرقه وغربه بعقل متفتح جديــد ، فهم وقد تربوا وتعلموا فى مدارس أثينا الفلسفية ، اكتسبوا من الأدوات الفكرية ما يؤهلهم لريادة أى عمل ثقافى أو فكرى يوكل إليهم. وهذا ما لاحظناه فعلا فى كثير من الحالات وبصفة خاصة المفكر والفيلســوف والسياسى الأثينى ديمتريوس الفاليرى الذى تحمل العبء الثقافى الأكبر وقت تأسيس المكتبة وجمع الكتب والمخطوطات الأصــلية مــن كافــة أنحاء العالم على قدر الطاقة ، وبقى الكثير ، ثم فى حالة كاليمــاخوس الشاعر المرهف الحس الــذى سجل تراث المكتبة الفكــرى والثقــافى لكى يحفظ للانسانية عبر الزمان منظومة عمل فكرى وثقافى ، تبــاهى مصر به العالم بأسره ، فكان أن أنجز فهرســت مكتبــة الإســكندرية القديمة الذى يعد عملا ابداعيا وورياديا من الدرجة الأولــى افتــتح بــه عصر البيبليوجرافيا ، وأثر فى كثير من الأعمال التالية التى حاولت أن

تقدم رؤى مماثلة ، وبصفة خاصة ابن النديم الذى جاء بعد كاليماخوس بأكثر من ثلاثة عشر قرنا، والذى ربما يكون قد استفاد منه فى تدوين كتاب الفهرست ، الذى شكل حلقة جديدة من حلقات الازدهار الثقافى فى الشرق الجديد .

وربما جازلنا فى هذا التقديم أن نشير إلى وجود ثمة روابط وعلاقات فكرية ربطت بين ديمتريوس الفاليرى وكاليماخوس وامتدت إلى ابن النديم فيما بعد لتؤسس منظومة عمل متكاملة يكمل الواحد منهما الآخر نظرا وعملا. ومن ثم فقد اتجهت أنظارنا إليهم لمعرفة انجازاتهم وبيان أثرها فى الأجيال . وأولى هذه الروابط الفكرية أن هؤلاء الثلاثة يشتركون سوياً فى الاهتمام بالتراث العقلى والفلسفى والأدبى للأجيال التى سبقتهم ، وقد جاءت هذه النظرة برهانا على الانفتاح العقلى على ثقافات الآخر ، وهذه ميزة تحقق لنا رؤية معرفية تشير إلى أهمية التواصل مع القديم بكل مايحمله من معان ومضامين فكرية . والقديم والحديث هنا له أكثر من معنى ودلالة لأنه يعبر عن مرحلتين متواصلتين تتداخل احداهما فى الأخرى لتبين الفوارق الجوهرية فى التحديث ، خاصة إذا علمنا أن فهرست كاليماخوس عبر عن مرحلة الحداثة الأولى التى تجاوزت مرحلة مكتبات المعابد الفرعونية القديمة التى اقتصر العلم فيها على الخاصة ، ومرحلة المعرفة بالمكتبات الأثينية ، ومرحلة التأسيس التى عبر عنها

ديمتريوس الفاليرى فى مبدأ الأمر عند تأسيس المكتبة . وأن فهرست ابن النديم جاء ليعبر عن مرحلة مابعد الحداثة، أى مابعد كاليماخوس ، إذا جاز لنا استخدام هـذا المصطلح من مفكرى عصرنا الراهن .

ومن جانب آخر فإن العلاقة بين هؤلاء المفكرين الثلاثة تكمن فى اهتمامهم بالتصنيف كعلم من الناحية الأكاديمية البحتة ، ورغم أن هـذه المسألة قد لا تكون واضحة للعيان فى حالة ديمتريوس الفـاليرى ، إلا أنه فى عصره كان لابد من وجود فهرست أو على الأقل سجل أو مـا أشبه بـذلك لسهولة التعامل مع الكتابات والمخطوطات التى وفدت إلى المكتبة من كافة أنحاء المعمورة . إذ كيف يمكـن عقـلا أن نتصـور استقبال المكتبة لكتابات جديدة دون أن تسجل فى سـجل خـاص بهـا لمعرفة الكتب التى وردت ، وأماكن وجودها ، وتاريخ الاضـافة إلـى المكتبة ، وهو ما يقوم به أمناء المكتبات فى عصرنا الراهن .

ومن جانب ثالث تبدو النزعة العقلانية واضحة بصورة كبيرة فـى انجازات هؤلاء العلماء الثلاثة رغم مابينهم مـن تبـاين ، ورغـم أن كاليماخوس يعد أحد شعراء عصره المهمين .

إن وجود قواسم مشتركة من الناحية المعرفية والمنهجية بين هؤلاء المفكرين الثلاثة مسألة مهمة تجعلهم يستحقون دراسة مستقلة تبين أهدافهم الثقافية والفكرية ، خاصة وأن الأعمال التى قاموا بها ظلت خالدة على مر الأجيال واسترعت النظر والتوقف لدراستها . وهذه

الأعمال وما تنطوى عليه من توجهات تساعدنا عند دراستها على رؤية المستقبل الذى نحاول استشرافه لمكتبة الإسكندرية العملاقة التى تأخذ بأسباب التكنولوجيا الحديثة فى ثوبها الجديد ، وهى من العوامل المهمة التى سوف تتضافر مع غيرها من العوامل لتبعث الروح الجديد فى الشرق .

وكما بدأنا مفتتح حديثنا فإن واجب المفكر أن يبدى إعجابه وإعزازه بالعمل الذي تم على أرض الإسكندرية لإعداد هذه المدينة التاريخيــة كعاصمة ثقافية لدول حوض البحر المتوسط والعالم بأسره فى الألفيــة الثالثة . ومن ثم فإن الواجب علينا أن ننحني إعزازا وإكبارا لأولئــك الرجال الذين تحملوا عبء التفكير والتخطيط والتنفيذ لإهــرام ثقــافي جديد يضاف إلى الحضارة الإنسانية من خلال إنجاز هــذا الصـــرح الحضاري الضخم فى مصر المعاصرة. إن بعث مكتبة الإســكندرية من جديد ينطوى على دلالات متعددة مــن بــين أهمهــا أن مصــر الحضارة والثقافة أصبحت تحتل مكانتها الرائدة بين الشعوب ، ومــن هــذا المنطلق يمثل هــذا المشروع الجديد شريان الأمل لأجيال سوف تأتى فى المستقبل وتقرأ على صفحات التاريخ مدى ما قدمــه هـــذا الجيل من بــذل وعطاء من أجل مصر الحبيبة . وبهــذا المعنى أيضا سوف تبعث فيهم شرارة متوقدة تدفعهم دائما للنهوض بأمتهم . وسوف

تدرك الأجيال القادمة قيمة الثقافة والفكر فى عالم يسوده الحب والسلام بين البشر جميعا .

والذى لاشك فيه أيضا أن هذا المشروع سيزيد الاهتمام بمصر بين دول العالم ، وبأهمية دورها الثقافى على الساحة العالمية من خلال تواصل المثقفين والمفكريين مع منظومة الفكر العالمى من خلال التفاعل الايجابى مع المتغيرات الثقافية العالمية .

إن مكتبة الإسكندرية الجديدة التى قامت فى عصر الثقافات المفتوحة إنما قامت بفضل جهود مضنية من شخصيات وهيئات من جميع أنحاء العالم لابراز دورها المنشود ، استطاعت أن تجذب أنظار العالم أجمع وأن تجعل القاصى والدانى يرتقب الدور الذى سوف تؤديه المكتبة على الساحة الثقافية عالميا ومحليا خاصة مع مطلع الألفية الثالثة ، وهى مهمة نرجو لها التوفيق بإذن الله .

إن هذا المشروع والانجاز الحضارى والثقافى الضخم الذى يعد حدثاً بارزاً ومعلماً مهماً من معالم هذا القرن ، هو بكل المقاييس علامة بارزة ، مشرقة ومضيئة ، فى عهد الرئيس محمد حسنى مبارك باعث النهضة الحديثة فى مصر المعاصرة الذى جعل من مشروع المكتبة هدية الإسكندرية ومصر للإنسانية جمعاء، ليرمز به إلى روح الإنسانية ذاتها ، وإلى تطلع شعب مصر إلى سلام دائم تبنى أسسه على العدل والحب بين كافة البشر. ويكفينا فخراً أن عادت الريادة الثقافية

إلى ربو ع الإسكندرية تمارس دورها التاريخى الرائد كما كانت دائما ، وتقدم عطاء ثقافياً بلا حدود لأمة تتطلع إلى غد مشرق بعقـــل منفــتح ومتفتح وروح جديد .

الإسكندرية

فى

أول مايو 2004

دكتور

ماهر عبد القادر محمد

القســم الأول

مكتبة الإسكندرية

ومنظومة التأسيس

الفصل الأول: الصلات المصرية اليونانية القديمة:مدخل تاريخى

الفصل الثانى: حلم البطالمة : المشروع الثقافى

الفصل الثالث: تأسيس المكتبة ورؤية فيلسوف

الفصل الرابع: كاليماخوس والفهرست

الفصل الخامس : علماء الإسكندرية

الفصل الأول

الصلات المصرية اليونانية القديمة

مدخل تاريخي

كانت مصر دائما محور تفكير أهل اليونان الذين وفدوا إليها بأعـــداد كبيرة قبل أن يأتى إليها الإسكندر الأكبر الذى أسس الإسكندرية عاصمة لمجده . ونحن نجد إشارات قوية لهذا الاتصال التاريخى بين الطـــرفين فى كتابات المؤرخين العرب ، وربما كان من أبرزهم جميعا ابن أبـــى أصيبعة مؤرخ الطب العربى فى القرن السابع الهجرى .

يصور لنا ابن أبى أصيبعة أهمية عامل الاتصال بين الشـــعوب فـــى اطار دراسة تاريخ العلم العام ، إذ الاتصال يسمح بانتقال الأفكار مـــن حضارة إلى أخرى ، وإلى هذا العامل أيضا تعزى التغيرات والتطورات التى يمكن أن تبرز كخاصية حضارية عبر التاريخ ، على مـــا يـــرى ماسون[1].

والذى لا شك فيه أن الاتصال يأخذ طرقا مختلفة من أهمها الاتصال الشخصى ، حين يلتقى الأفراد بعضـــهم بـــبعض ويتبـــادلون الحـــوار والنقاش. هذا فضلا عن أن عامل الاتصال يأخذ بعدا آخر على درجـــة كبيرة من الأهمية حين يأخذ شكل الملاحظة بالمشاركة التـــى تفـــرض على المرء أن يعيش فى مجتمع ما لفترة من الوقت يشارك فيها الناس كل حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم وتصـــرفاتهم . وربمـــا اســـتطعنا أن

[1] Mason, S. F., A History of the Sciences, Collier Books, New York, 1962 , p . 599

نخرج بفكرة مهمة عن الاتصال بين الإغريق والمصريين القدماء من خلال وصف ابن أبى أصيبعة لهذا العامل الذى لعب دورا محوريا فى انتقال العلوم المصرية القديمة إلى أهل اليونان . نصف فى هذا الصدد بعض جوانب هذا الاتصال لنرى إلى أى حد لعب هذا العامل المعرفى دورا مهما فى تشكل الأبعاد الحضارية.

سجل مؤرخ العلم العربى ابن أبى أصيبعة فى كتابه الموسوعى"عيون الأنباء" أن فيثاغورس بعد أن تعلم على انكسمندريس الهندسة والمساحة والنجوم " اشتد حبه للعلوم والحكمة فسافر إلى بلدان شتى طالبا لذلك ، فورد على الكلدانيين والمصريين وغيرهم، ورابط الكهنة وتعلم منهم الحكمة ، وحذق لغة المصريين بثلاثة أصناف من الخط : خط العامة ، وخط الخاصة وهو خط الكهنة المختصر ، وخط الملوك"[1] ، وكان ذلك بعد عدة امتحانات اجتازها على يد الكهنة الذين قبلوه على مضض، خاصة وأنهم لم يعتادوا أن يطلعوا أحدا على علومهم . وبعد أن أجاد العلوم والفنون مضى " من مصر راجعا إلى بلاده ، وبنى له بمدينة أيونيه منزلا للتعليم ، فكان أهل ساموس يأتون إليه ويأخذون من حكمته "[2]. ولاشك أن سقراط الحكيم، الذى ذاع

---

[1] ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ، 1970، ص 64
[2] المرجع السابق ، ص 65

اسمه فى بلاد اليونان وفى عالم الفكر قاطبة ، نهل من حكمة فيثاغورس لأنه تتلمذ عليه [1].

إن تعرف فيثاغورس على علوم المصريين القدماء ، خاصة الهندسة والرياضيات ، جاء عن طريق الاتصال المباشر ، وعن طريق الملاحظة المباشرة للقياسات التى يقومون بها فى الواقع العملى. ولا شك أنه كان يتمتع بقدرة تنظيرية رائعة أدت به إلى ابتكار نظرياته المبدعة التى لازالت تدرس حتى الآن للطلاب فى مراحل حياتهم الدراسية الأولى ، وهذا يعنى أن فيثاغوراس أفاد البشرية من الناحية المعرفية . وفى ذلك العصر أيضا جاء إلى مصر الفيلسوف والعالم اليونانى ديموقريطس صاحب النظرية الذرية حيث تلقى علومه على يد الكهنة المصريين والعلماء داخل المعابد[2]. كل هذا يعنى أن بلاد مصر القديمة كانت مقصدا لعلماء ومفكرى اليونان الذين نهلوا من العلوم المزدهرة التى سادت فى ذلك الوقت وادهشت كل من جاء إلى مصر زائرا . كما يعنى أيضا أن التكوين المعرفى لعلماء اليونان فى ذلك العصر استمد فى أساسه من منظومة التعليم المصرى التى كانت متألقة ومزدهرة وتستند إلى أسس منهجية قويمة فى تحصيل المعرفة بالصورة التى أدت إلى نمو المعرفة ذاتها ، وربما كانت الشواهد

---

1 المرجع السابق ، ص 70

2 سليم حسن، موسوعة مصر القديمة ، ج 14 ، ص ص 281-282

الأثرية التى نراها الآن فى ربوع مصر أبلغ دليل على مدى ما أحرزته مصر القديمة من تقدم .

ولا يقل عن هذا الأثر ما خلفه لنا أفلاطون فى كتاباته ومحاوراته .. لقد بلغ أفلاطون " أن بمصر قوما من أصحاب فيثاغورس ، فسار إليهم حتى أخذ عنهم ، وكان يميل فى الحكمة ، قبل أن يصحب سقراط ، إلى رأى ايراقليطس ، ولما صحب سقراط زهد فى مذهب ايراقليطس وكان يتبعه فى الاشياء المحسوسة ، وكان يتبع فيثاغورس فى الأشياء المعقولة ، وكان يتبع سقراطيس فى أمور التدبير . ثم رجع أفلاطون من مصر إلى أثينيه ، ونصب فيها بيتى الحكمة ، وعلم الناس فيها " [1]. ولنا أن نلاحظ فى هذا الصدد أن هيراقليطس هو صاحب مذهب التغير الذى يرتبط بالمحسوس ، وقد ساد هذا المذهب فى الفكر اليونان فترة طويلة ، ولكن طبيعة العقلية اليونانية كانت أميل دائما للناحية العقلية .

كان من الطبيعى إذن أن يحاول أفلاطون معرفة أسرار العلوم المصرية القديمة ، وأن يقف على بنيتها وسر تقدمها ، وهى نفس المسألة التى شجعت فيثاغورس من قبل على محاولة فهم علوم المصريين الذين حرموا معرفة هذه الأسرار على الأجانب . ومع أنه فى عصر متأخر ، وإبان حكم البطالمة ، سمح لأعداد كبيرة من اليونانيين بالنزوح إلى مصر والإقامة فيها لتلقى التعليم؛ إلا أن الذى

[1] ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء، ص 80

لاشك فيه أيضا أن المرحلة السابقة شكلت كتابا مغلقا أمام اليونانيين ، لأنه من المشكوك فيه أن يكون الكهنة فى مصر القديمة قد ائتمنوا اليونانيين على علومهم السرية . وقد أكد استرابون هذا بقوله أثناء رحلته مع ايليوس جاللوس وهو بصدد الحديث عن الكهنة المصريين بقوله: " وعلى أي حال فقد أطلعونا هناك على بيوت الكهنة ومدارس أفلاطون ويودوكسوس ، ذلك أن يودوكسوس صحب أفلاطون إلى هناك ، وأمضيا كلاهما هناك مع الكهنة ثلاثة عشر عاما فيما ذكر البعض ، إذ إن لما كان هؤلاء خبيرين بعلوم الأجرام السماوية ، وبالرغم أنهم كانوا صموتين ويصعب عليهم بذل العلم ، فقد استطاعا بمرور الزمن وباسترضائهم أن يتعطفاهم حتى سمحوا لهما بتلقن بعض نظرياتهم ، ولكن البرابرة قد أخفوا أكثر العلم ."[1] وهذا يعنى أن استرابون يسجل لنا موقفا غريبا فى ثنايارؤيته للأجناس وهو ما جعله يصف المصريين بالبرابرة ، ولذا فإنه يبدى حسرته على بخل الكهنة بالعلم على الغرباء ، وفى الوقت نفسه يصف المصريين بالبرابرة مما يكشف عن عنصريته وتعصبه لبني جلدته. ولكن يجب علينا أيضا أن نفهم هذا التقرير والحكم على المصريين بصورة أخرى ، إذ أن أهل

---

1 استرابون فى مصر ، نقله من اليونانية د . وهيب كامل ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1954 ، ص 91

اليونان القدماء كانوا ينظرون إلى أنفسهم وبلادهم على أنهم مركز العالم ، وعلى أنهم السادة وكل شعوب الأرض عبيد لهم .

لقد كانت الأسرار المصرية فى ذلك الوقت متصلة بعدد من العلوم المهمة والمتقدمة ، ومن بينها الفلك والطب . ومن بين أهم كتب الأسرار كتب تحوت الستة التى تتضمن معلومات عن الجسد والأمراض والأجهزة الطبية ، وهذه الكتب كانت تحفظ فى مكتبات المعابد.

هنا نلمح بعدا آخر لاتصال اليونانيين بالعلوم المصرية والطب المصرى القديم . فمن المعروف أن ابقراط الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد تعلم " فى سراديب المعابد المصرية والأهرام على بعض تلك الأسرار التى لم تكن تفشى لغير الكهنة "[1]. ونستنتج من هذا أن المعابد كانت ذات وظيفة تعليمية ، وفيها كانت بيوت الحياة Houses of Life . وبطبيعة الحال كان لهذا التعليم الكهنى شروط محددة خضع لها ابقراط ، حتى يطلع على هذه العلوم والأسرار .

وتكشف الدراسات التاريخية أن نشأة أولى مدارس الطب على سبيل المثال ، فى مصر الفرعونية يرجع إلى عهد الأسرة الأولى[2]. وقد عرفت هذه المدارس بأنها بيوت الحياة " حيث يلتقى فيها العلماء

---

1 بول غليونجى ، الطب عند قدماء المصريين ، الإسكندرية ، 1974 ، ص 98

2 المرجع السابق، ص 97

والفلاسفة والأطباء وطلبة العلم ليتبادلوا الآراء"[1] ، وهـذا يعنى أن فن المناقشة والجدل كان سائدا فى هـذه المدارس مما أدى إلـى تواصـل حلقات العلم داخل أروقة المعابد ذاتها وإلى تقدم العلوم بصورة أساسية. وقد بلغت هذه المدارس مكانة رفيعة داخل المجتمع وانتشرت تعاليمها ، واكتسبت شهرة واسعة ، مما جعل الطلاب يقبلون عليها ، ومن بينهـا مدرسة فتحت فى سابيس للمولدات اللائى كن يقمن بتدريس أمـراض النساء للأطباء أنفسهم ، ومدرسة هليوبوليس ، ومدرسة امحوتب بمنف التى زاد شهرتها مكتبتها الزاخرة بالمؤلفات التى كـان يتـردد عليهـا الأطباء حتى عهد جالينوس[2]، مما يدل على أن تقاليد هـذه المـدارس استمرت عدة قرون بفاعلية ، واستطاعت خلال القرون أن تجتذب عددا كبيرا من الطلاب الذين نبغوا كأطباء شهد لهم العالم القـديم بالكفـاءة والفاعلية. وأن هـذه التقاليد كانت من الناحية العلمية متقدمة ومتماسكة وتستند إلى أسس منهجية .

ولما كانت بيوت الحياة هى المدارس التى أقيمت فى المعابد ، فمـن الطبيعى أن يقوم الكهنة بالإشراف عليها والتدريس فيها ، وهؤلاء كانوا متخصصين فى العلوم والفنون والطب . ومن الطبيعى أن يؤدى الكهنة وهم المؤتمنون على الأسرار دورا مهما فـى عمليـة التعلـيم ، إذ أن

---

1 المرجع السابق ، ص 62

2 المرجع السابق ، ص 97

تكوين طبيب المستقبل مسألة تحتاج دائما لوقفة وانتباه ، لأنـــه ســوف يؤتمن على حياة الناس ، لذا جاء التمهيد لاعـــداد طبيـــب المســتقبل ، ابتداء من اختيار المدرس ذاته . ومن ثم تحقق أول شرط منهجى فـــى تأسيس مدارس الطب ابتداء من اختيار الأشخاص " الموثــوق بعلمهــم وبفضيلتهم ، ومن ذوى الحنان والرأفة بالضـــعفاء"[1]. وكـــان للكهنـــة الأطباء ملامح مميزة عن غيرهم مـــن الكهنـــة . وأغلـــب رواد هـــذه المدارس كان من أبناء الملوك والكهنة والأطباء .

وأما الشرط المنهجى الثانى الذى اختير على أساسه الأطباء فى هذه المدارس فيتمثل فى أنهم " أمناء من قبل الخالق على حياة النـــاس، ولا ينبغى أن تكون أرواح الناس ألعوبة فى أيدى أشخاص غير أمنـــاء لـــم يزينوا علومهم بالاستقامة النفسية "[2]. وفكرة الأمانة على أرواح النـــاس تذكرنا بامتداد هذه التقاليد المصرية القديمة من جيل إلى جيـــل حتـــى القرن التاسع الميلادى وظهور المدارس الطبية الإسلامية .

ومن الملاحظ أن تعليم الطلاب كان يخضع بالضرورة إلى شروط أساسية لابد من أن تستوفى ، وبصفة خاصة لكل المطلعين على أسرار العلوم المصرية القديمة من المصريين أو الأجانـــب . إذ قـــد حتمـــت التقاليد الدينية فى مصر القديمة ضرورة اجراء عملية إعذار الـــذكور،

---

1 د. نجيب رياض ، الطب المصرى القديم ، الكرنك للنشر، القاهرة 1970 ، ص 41

2 المرجع السابق ، ص 41

ونشأت هذه الفكرة فى أروقة المعابد المصرية القديمة ، وانتقلت من المصريين إلى اليهود ، كما يذكر هيرودوت. وقد استدل المؤرخون على ضرورة إجراء هذه العملية من تمثال للكاهن Anisakha من الأسرة الخامسة (2563-2423 ق .م) عارى الجسم مختونا (وهو محفوظ فى المتحف المصرى). وهناك رسوم متعددة لعمليات الإعذار تجرى على الكبار الذين لم تجر لهم فى الصغر .

ومن ثم ارتبط الشرطان السابقان بشرط دينى مهم ، إذ حتمت تقاليد هذه المدارس على كل من يلتحق بها من الأجانب أن تكون عملية الإعذار قد أجريت له ، ولذا منعوا قبول " الأجانب غير المختتنين إذا رفضوا أن تجرى لهم هذه العملية "[1]. ولما كان فيثاغورس ومن بعده الطبيب اليونانى أبقراط فى القرن الخامس قبل الميلاد ،ومن بعده أفلاطون، قد زاروا مصر وتعلموا ودرسوا فى سراديب المعابد المصرية ، ووقفوا على أسرار العلوم المصرية القديمة ، فإنه يمكننا أن نستنتج أن تكون قد أجريت لهم عملية الإعذار(طهارة الذكور) التزاما بالتعاليم والأوامر الدينية .

وربما كان من الواجب أن نقف قليلا عند مثال واضح فى الفكر الفلسفى اليونانى القديم وهو أفلاطون الذى تأثر بالعلوم المصرية القديمة ، والذى لابد أن يكون قد أتقن اللغة المصرية القديمة ، وبخاصة

[1] د. نجيب رياض ، الطب المصرى القديم، ص 98

أن الفترة التى قضاها مقيما فى مصر ليست قصيرة . وهذا ما انعكس بدوره على العناصر الأساسية التى شكلت نظرية المعرفة عنده ، التى يمكن أن نتبين أنها استمدت من ثلاثة مصادر أساسية هى :

الأول : فكرته عن خلود النفس التى استمدها من أستاذه سقراط الذى تعلم على فيثاغورس وعرف تعاليمه ، وفهم موقف المصريين القدماء من فكرة خلود النفس التى ارتبطت عندهم بمسألة التحنيط وتكريم الميت وتزويده بالطعام والمعدات اللازمة فى حياته الآخرى. وهو ما يعنى الاعتقاد فى فكرة عودة الروح من عالم إلى عالم آخر[1].

الثانى : أن أفلاطون استمد مذهبه الرياضى وفكرته عن المعقول من فيثاغورس . ونعلم أيضا أن أفلاطون جعل للرياضيات منزلة عالية ، وهو مايبدو من مقولته المشهورة التى كتبها على باب الأكاديمية " لا يدخل هنا إلا من كان رياضيا " .

الثالث : العناصرالحسية التى استمدها أفلاطون من أفكار هيراقليطس ، صاحب فلسفة التغير ، وهى عناصر سابقة على صحبته لسقراط . ومن ثم شكل المحسوس عنده قوام العالم الحسى، الذى اكتشف فيما

---

[1] **A. Rosalie David**, *The Ancient Egyptians: Religious Beliefs and Practices*, Routledge & Kegan Paul, London and New York, 1986, p . 153.

بعد، أنه أدنى مرتبة ومكانة من العالم المعقول ، الــذى احتــل منزلــة مقدسة عند قدماء المصريين .

هناك جانب آخر من التأثر بالمصريين القدماء يبدو بوضــوح فــى فلسفة أفلاطون ، وهو فكرته فى الجمهورية عن الطبقات . ويمكــن أن نتبين هذا الجانب مما يذكره استرابون الــذى يؤكــد أن المصــريين " قسموا الشعب إلى ثلاث طبقات وسموا إحداها طبقة الجند والثانية طبقة الفلاحين والثالثة طبقة الكهنة . ووكلت لهذه الطبقة الأخيــرة رعايــة الأشياء المقدسة وللطبقتين الآخريين العناية بأمور الناس ، فكان علــى طائفة أن تعنى بشؤون الحرب ، وعلى أخرى أن تعنى بشؤون الســلم من فلاحة الأرض وممارسة الحرف ، ومن هذه المصادر كان يجبــى دخل الملك . أما الكهنة فكانوا يتعاطون الفلسفة والفلك وكــانوا رفقــاء الملوك "[1]. وبطبيعة الحال لما كان أفلاطون قد أقام فى مصر ســنوات طويلة فقد عرف عن المصريين هذا التقسيم الذى لا شك أنــه ترجمــه نظريا فى الجمهورية .

إنه إذا كان علماء اليونان قد أطلوا على الدنيا بعلمهــم ومــنهجهم العقلانى ، مما أثر بصورة مباشرة وفاعلة فى حياة البشــرية ، فــإنهم أنفسهم يعدون حلقة اتصال مهمة عن طريقهم تسربت علوم المصريين القدماء إلى العالم .

---

[1] استرابون فى مصر ، ص 45

والواقع أن الصلات المستمرة بين اليونانيين والمصريين القدماء تفسر لنا عدة ظواهر ، بل تفسر أهم ظاهرة حدثت في تاريخ هذه الصلات على الإطلاق والمتمثلة في قدوم الإسكندر الأكبر إلى مصر . فالكتابات المختلفة تفسر المسألة على أنها كانت عبارة عن غزو وفتح لبلاد جديدة ، وربما كان هذا التصور من بين معطيات فكرة الصلات بين الطرفين ، لكننا إذا نظرنا للأسباب والنتائج أمكن لنا أن نكتشف بعدا حضاريا وثقافيا على درجة كبيرة من الأهمية .

لقد كان للازدهار الحضاري والثقافي والعلمي الذي ساد في مصر القديمة أثره المهم في جذب اليونانيين ، كشعب متطلع للرقي، للقيام بزيارات مستمرة للاستفادة من علوم المصريين ، فضلا عن الاستفادة من الناحية الاقتصادية ، لأن مصر كانت مزدهرة اقتصاديا في تلك الآونة . ومن الطبيعي أن المراكز الاقتصادية المزدهرة تعمل على جذب من هم خارج المركز . هذا فضلا عن الاستقرار والأمن الذي توفر في مصر القديمة ، في الوقت الذي شهدت فيه بلاد اليونان اندلاع الحروب العديدة التي أدت إلى زعزعة الاستقرار الاجتماعي ، وتقويض الاستقرار الأسري الأمر الذي ترتب عليه أن قام أهل اليونان القدماء برحلات وهجرات متعددة إلى مصر القديمة التي اعتبرها أهل اليونان واحة الأمن والأمان بالنسبة لهم .

ويترتب على هذا أن فتح الإسكندر الأكبر لمصر جاء مختلفا عن فتحه لبلاد فارس أو غيرها من البلدان الآخرى . ذلك أن الإسكندر الذى تعلم على يد أرسطو ، فهم أول درس من دروس هذا الأستاذ العظيم فى النظر إلى الأشياء وهو المتمثل فى : كيف أنظر للأشياء نظرة مختلفة عن الآخرين . ولهذا السبب فإن الإسكندر الأكبر حين جاء إلى مصر فاتحا كانت لديه صورة مشرقة لمصر ، سبق أن سمع عنها من أقرانه وزملائه من اليونانيين . ومن ثم فإن هذه الصورة التى تكونت فى الوجدان اليونانى عبر قرون وقبل مجيء الإسكندر إلى مصر ، جعلته ينظر إلى فتحه لمصر على أنه رحلة إلى الأراضى المقدسة[1] وهذا ما تكشف عنه رحلته إلى واحة سيوه لزيارة معبد آمون، وكأنه جاء حاجا إلى هذه البقعة من العالم .

نستنتج من كل ما تقدم أن هناك إتصالا بين الحضارة اليونانية القديمة والحضارة المصرية القديمة ، وأن هناك مظاهر للالتقاء والتأثر فى شتى النواحى الفلسفية والعلمية ، وسوف ينصهر كل هذا عبر أجيال طويلة فى مدرسة الإسكندرية التى سوف تطل بعلومها على العالم لتشع الثقافة والعلوم قديما ، ثم لتبعث من جديد عملاقة شامخة ، ومنارة لكل شعوب الدنيا .

---

[1] د. نبيل راغب ، عصر الإسكندرية الذهبى :رؤية مصرية علمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993 ، ص 32

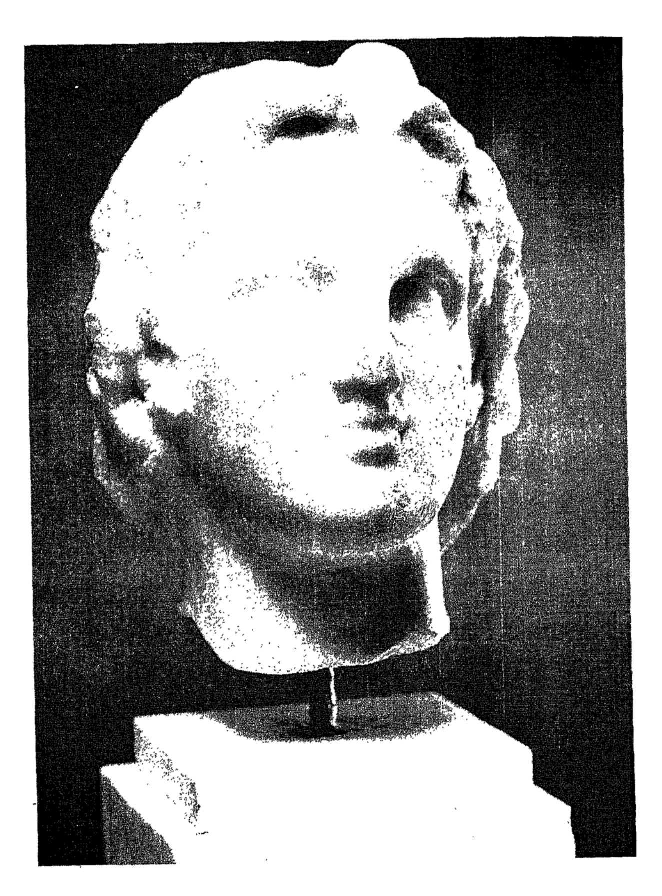
جاء الإسكندر الأكبر إلى مصر فاتحا ليبدأ مسيرته مع تأسيس الإمبراطورية التى أراد لها أن تتسع لتشمل بلدان الشرق المعروفة فى ذلك الوقت . وقد احتلت مصر فى عقل الإسكندر مكانة خاصة جعلته يهتم بتنظيمها بصورة دقيقة قبل أن يبرحها لاستكمال فتوحاته.

وفى هذا الصدد يرى الدكتور ابراهيم نصحى أن مسألة تنظيم بلاد مصر كانت محور اهتمام الإسكندر الأكبر قبل أن يبرح هذه البلاد ، وجاء تنظيمه دقيقا . ولما كان المصريون قد رحبوا به بصفته محرر بلادهم ، وكان الكهنة المصريون قد أولوه تأييدهم فمنحوه لقب ابن آمون، "فإن الإسكندر لم ير داعيا لاتخاذ تدابير خاصة لتأمين سلطانه ضد المصريين فى نظام الإدارة الذى وضعه لهم ، بل كان كل همه منحصرا فى منع كل أولئك الذين عهد إليهم بمقاليد الحكم من الشطط فى حكمهم ، أو من الفتنة ضده . ولذلك منح الإسكندر مصر استقلالا داخليا"[1] .وعلى هذا الأساس فإن النظم التى طبقت فى مصر وأقرت من قبل الإسكندر امتازت بمظهرين : أحدهما أن الإسكندر وضع قاعدة بموجبها تقسم السلطة بين عدد من الأفراد لتفادى خطر الانفراد بالسلطة مما يؤثر على مصلحة الإمبراطورية استراتيجيا . وأما المظهر الآخر فيتمثل فى روح العطف التى أبداها الإسكندر تجاه

---

[1] د. ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 2 ، ط 4 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1976 ، ج 1 ، ص 17

المصريين . ومن هـذا التصور يمكن لنا أن نستنتج أن الاسكندر الأكبر أراد للامبراطورية الجديدة أن تستمر فى الوجود ، وأن تمثل الرافد المهم لامتزاج الثقافات والتقاء الحضارات ، وهى الفكرة التى سعى إليها والتى حاول من خلالها أن يجعل الثقافة والحضارة اليونانية هى البوتقة التى تنصهر فيها الحضارات الآخرى . وهذا يعنى أنه كانت لديه فكرة عن عالمية الثقافة من خلال سيطرة الثقافة والفكر اليونانى ، على اعتبار أنه يمتلك أسباب القوة .



رأس الإسكندر الأكبر

إذن جاء الإسكندر إلى مصر وهو على يقين تام بأن الحضارة الإغريقية لها الصدارة والتفوق على غيرها من الحضارات المعاصرة لها، وهذا ما جعله ينشد نشر هذه الحضارة في البلاد التي فتحها وأصبحت جزءا من الإمبراطورية اليونانية ، ومن ثم كان لابد للإسكندر أن يؤسس مركزا حضاريا للعالم المتأغرق ينشر من خلاله الحضارة اليونانية فى الشرق[1]. وما أن فتح الإسكندر مصر عام 332 ق.م حتى عهد إلى مهندسه اليونانى دينوقراطيس بتخطيط الإسكندرية[2].وكان من الطبيعى أن يختار دينوقراطيس النمط الهيبودامى الشبيه بلوحة الشطرنج لتخطيط المدينة ، فقد شاع استخدام هذا النمط فى ذلك العصر ، ثم قام بمد جسر يرتبط بجزيرة فاروس ، ونتج عن هذا الميناء الشرقى الكبير والميناء الغربى الذى عرف بميناء العود الحميد ، وكان الميناء الشرقى أكثر أهمية فى العصرين الرومانى والبطلمى .

ويصف لنا استرابون الإسكندرية فى القرن الأول بعد الميلاد قائلا " إنها كانت تبلغ أكثر من ثلاثة أميال فى الطول وميلا فى العرض "[3] كما

---

[1] المرجع السابق ، ج 1 ، ص 13

[2] د. مصطفى العبادى ، تاريخ الإسكندرية ، مطابع الاهرام التجارية ، 1999 ، ص 21

[3] راجع فى ذلك: ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، المجلد الرابع،8 ،ص 73

يذكر بليني أن طول أسوارها يقدر بخمسة عشر ميلا. وجـــاء تخطـــيط المدينة بتأسيس شارع رئيسى يبلغ عرضه مائة قدم يخترق المدينة مـــن الشرق إلى الغرب ، ويقطعه شارع آخر فى مثل عرضه من الجنـــوب إلى الشمال " وكان هذان الشارعان الرئيسيان ، وأكبر الظن أن شوارع غيرهما ، يضاءان ليلا وتظللهما أثناء النهار أميال من العمـــد . وكـــان الشريانان الرئيسيان السابق ذكرهما يقسمان المدينـــة أربعـــة أحيـــاء ، أبعدها نحو الغرب حى راكوتيس وكانت كثرة سكانه من المصــــريين ، وكان الحى الشمالى الشرقى حى اليهود، والجنوبى الشرقى أو البركيوم يحتوى على القصر الملكى والمتحف والمكتبـــة ، ومقـــابر البطالمـــة ، وضريح الإسكندر ، ودار الصنعة البحرية ، وأهم الهياكل اليونانيـــة ، وكثير من الحدائق الفسيحة "[1]. ويـــذكر العـــالم والمـــؤرخ المصـــرى الدكتورجمال الدين الشيال أحد أعلام مدرسة الإسكندرية المعاصـــرة أن عصر الإسكندر لم يشهد سوى تخطيط المدينة وإقامة بعض المبـــانى ، أما عصر الإسكندرية المزدهر فهو عصر البطالمـــة ، وقـــد اتخـــذها بطلميوس الأول بعد استقلاله بمصر عاصمة له ، ونقل إليهـــا جثمـــان الإسكندر ، وفى عهد بطلميوس الثانى أنشئت المدينة وأقيمـــت معظـــم المؤسسات العامة . وقد ازدهرت الإسكندرية فى عهد البطالمة واتسعت

[1] المرجع السابق ، ص 73

مرافقها ، ونمت عمائرها وأصبحت تفوق غيرها من المـــدن اليونانيـــة والرومانية .[1] ولكن ما هى قصة جثمان الإسكندر ؟

هنا يجب أن نتوقف عند ما يذكره الأستاذ آلان ويـــس حيث يـــذكر أن الإسكندر كان يرغب في أن يدفن في معبد الإله أمون بواحة سيوة ، لكن بطلميوس الأول قرر دفنه بالإسكندرية ليكسب لعاصـــمته دعايـــة سياسية وقداسة كان في حاجة إليها لتدعيم ملكه وتدعيم مركز البطالمة في مصر . ويذكر أن العديد من الرحالة الذين زاروا الإسكندرية فـــي العصر البطلمي والروماني قد شاهدوا قبر الإســـكندر وكتبـــوا عنـــه ، ومنهم استرابون . كذلك فقد زار الإمبراطور أغسطس قبر الإســـكندر عند دخول الرومان إلي مصر بعد موقعة اكتيـــوم البحريـــة 31 ق. م كذلك فمن الثابت زيارة كليوباترا السابعة لهذا القبر فـــي الإســـكندرية. كذلك يذكر المؤرخ اليهودي جوزيفوس أن الإمبراطور كـــاليجولا قـــد زار القبر في الإسكندرية وأعجب بأكفانه الذهبية . لقد كانـــت المقبـــرة قائمة في عصر الإمبراطور الروماني سبتميوس ســـيفيروس . وفـــي عصر الإمبراطور كاراكلا. وتذكر المصادر أن الإمبراطور قدم عـــدة تقديمات في قبر الإسكندر منها عباءة أرجوانية اللون . ولكـــن تظـــل معضلة مكان قبر الإسكندر قائمة ، وتشكل لغزاً يستعصي علي الحل ،

---

[1] د. جما ل الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المـعارف، مصر ، 1967

ويرجح آلان ويـس بعض الأماكن التي يمكن أن يوجد فيها ، ومنهـا مسجد النبي دانيال ومسجد العطارين وكوم الدكة .

التركيب السكانى للإسكندرية

كذلك يمكن لنا من خلال الكتابات العلمية المختلفة أن نعرف طبيعة التركيب السكانى لمدينة الإسكندرية . وفى هذا الصدد يـذكر المـؤرخ سليم حسن[1] أن سكان الإسكندرية فى العهد الأخير من عصر البطالمـة وصل إلى حوإلى أقل من مليون نسمة ، ويذكر أن ديـودور يقـرر أن عدد المواطنين فى الإسكندرية بلغ فى أواخر عهد البطالمة ثلثمائة ألف نسمة، ولكن سليم حسن يؤكد وفقا لهذه التقديرات أنه يحتمل أن اليهـود الذين كانوا يسكنون فى الإسكندرية لا يعدون من سـكان الإسـكندرية الأصليين . وفى هذا الصدد نجده يشير إلـى أن المـؤرخ بوليبيـوس Polybius ذكر أن الإسكندرية فى الأيام الأخيرة مـن عهـد أسـرة البطالمة كانت تحتوى على ثلاثة عناصر من الناس هى :

1- العنصر المصرى الوطنى ، وكان حاد الـذكاء طيعـا للحيـاة المدنية.

2- الجنود المرتزقة الذين كانوا عصاة وعلـى اسـتعداد لفـرض إرادتهم على الحكومة .

[1] سليم حسن ، ج 14 ، ص 229-230

3- الإسكندريين وكانوا يميلون بعض الشيء للخروج على حدود النظام المدنى .

ويلاحظ سليم حسن أن تقسيم بوليبيوس هذا لم يذكر اليهود من بين هذه الطبقات ، ويرى أن ذلك يمكن تفسيره بأن اليهود قد صبغوا بالصبغة الإغريقية ولم يعد من السهل تمييزهم[1] .

لكن الدكتور هنرى رياض يرى أن التكوين السكانى لمدينة الإسكندرية كان يتألف من ثلاثة عناصر أساسية هى:

1- المصريين
2- اليونانيين
3- اليهود

أما المصريون وهم أصحاب البلد الأصليون فكانوا " مغلوبين على أمرهم يعملون بالحرف الصغيرة أو بالزراعة ، وقد ظلوا محافظين على صبغتهم الوطنية رغم كونهم محرومين من كافة الحقوق السياسية والاجتماعية"[2] التى كان يتمتع بها غيرهم من العناصر الآخرى . والصفة الوحيدة التى اكتسبوها تتمثل فى أنهم رعايا الملك وحكومته المركزية بشكل أساسى .

---

[1] المرجع السابق ، ص 230

[2] هنرى رياض وآخرين ، دليل آثار الإسكندرية ، مراجعة د. داود عبده داود ، ص 10 - 11 وأيضا د. إبراهيم نصحى ، ص 312 وما بعدها

وتذكر الكتابات المختلفة أن أهل الإسكندرية كانوا أهل جد ، وأنهم لم يشغلوا أنفسهم كثيرا بالأحداث السياسية ، يعيشون ليومهم فى مرح وحبور. وفى هذا الصدد يذكر بريتشيا أن الإسكندرية " موطن رخاء وثراء وانتاج غزير ، لا يوجد وقت لدى أحدهم ، فالبعض يصنع الزجاج والبعض الآخر يصنع أوراق البردى ، وفريق ثالث يصنع النسيج ، وكلهم ذوى مهارة فنية عالية يشعرون بها ،ولديهم نقرص فى أقدامهم من رقصهم فى العمل ، فهم يعملون ولا يتركون العمل اليدوى إلا عند الفجر"[1] أضف إلى هذا أن الروح التجارية كانت من أبرز صفاتهم ، وأن الإسكندرية فى ذلك العهد كانت أكبر مركز غلال فى العالم القديم لوفرة ما كانت تنتجه مصر من هذا المحصول، وكانت تتجمع عندها التجارة الآتية من الهند كما كانت تربطها بالبحر قناة تنقل فيها المتاجر الآتية من الشرق ثم تنقل إلى أوروبا[2]. وسوف نتحدث عن هذه النقطة فيما بعد .

أما اليونانيون فقد عدوا من ناحية التنظيم السياسى والاجتماعى الرسمى فى أعلى درجات التنظيم ، مما أكسبهم كثيرا من الحقوق

---

[1] Breccia , Alexandrea ad Aegyptum , p.41

والنص نقلا عن :

محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ، الطبعة الأولى ، 1943 . هامش ص 4 ، وهومذكور باللغة اللاتينية نقلا عن كليبل. والأستاذ محمد أحمد حسين كان يعمل مديرا لمكتبة بلدية الإسكندرية وقت صدور كتابه وقد نادى باحياء مكتبة الإسكندرية،

[2] محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية ، ص ص 4-5

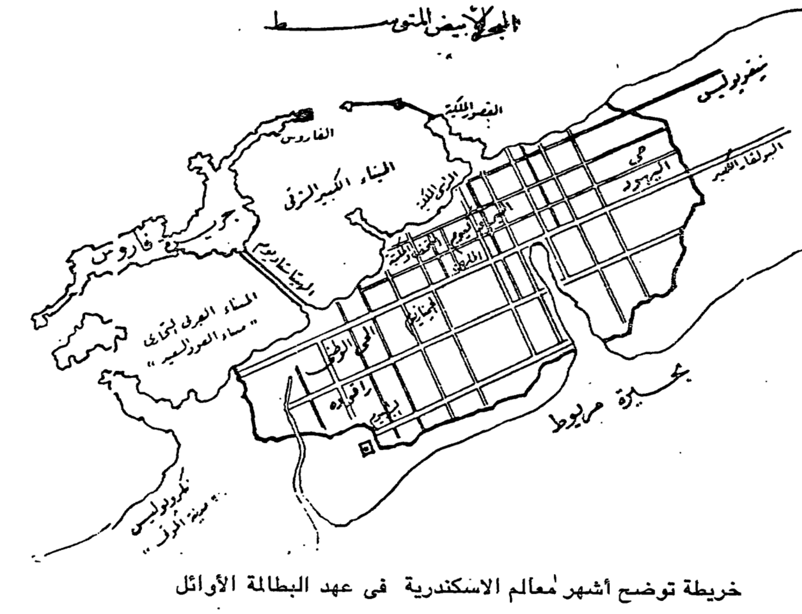
والميزات التى لم تكن لغيرهم من عناصر السكان . واندرج العنصر اليونانى فى طبقتين هما:

الأولى ، وهى طبقة المواطنين الكاملين أو الإسكندريين الذين يتمتعون بحقوق المواطن الكامل السياسية والإدارية والاجتماعية، هذا إلى جانب الامتيازات الآخرى التى من بينها الإعفاء من أعمال السخرة والضرائب. وهذه الطبقة هى الطبقة الممتازة من المواطنين.

الثانية ، وتمثل أنصاف المواطنين وهؤلاء لا يتمتعون بجميع حقوق المواطن الكامل ، وأمثال هؤلاء هم من وفدوا إلى البلاد سعيا وراء الرزق.

وأخيرا نجد العنصر اليهودى ، و أن هؤلاء جلبهم بطلميوس الأول بكثرة من الخارج ، لكنهم لم يتمتعوا بحقوق المواطنة الكاملة داخل البلاد ، وكان لهم دستورهم ، كما كان لهم تنظيمهم الملى الخاص بهم.

لكن هناك كتابات أخرى تقدم لنا تقسيما أوفى لأحياء الإسكندرية، إذ يذهب الدكتور ابراهيم جمعة فى كتابه " جامعة الإسكندرية فى العصر الإغريقى الرومانى والنقل عنها وتأثر العقل العربى بعلومها" الذى صدر فى طبعته الأولى عام 1944 ، إلى تقسيم أحياء الإسكندرية فى أواخر حكم البطالمة إلى خمسة أحياء ، وهذه الأحياء تبينها الخريطة الآتية:



خريطة توضح أشهر معالم الاسكندرية في عهد البطالمة الأوائل

وهذه الأحياء هى[1] :

1- حى البروكيوم ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية الناعمة ، الرافلة فى الدمقس ، وفى هذا الحى كانت تقبع قصور البطالمة مشرفة على الميناء الشرقى على طوال المنطقة الممتدة من السلسلة حتى الأنفوشى .

2- الحى الوطنى ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية المكدودة، الدائبة الحركة ، وهذا الحى كان يقع خلف ميناء العود السعيد ويمتد من رأس التين إلى الورديان ، وكانت قرية راقودة تحتل مكانه قبل انشاء المدينة .

3- حى اليهود ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية الممولة ، وكان يقع خلف الميناء الكبير إلى الداخل فى أول طريق البوليفار المؤدى إلى كانوب (أبى قير) .

4- ضاحية نيقوبوليس ، وكانت تمتد على ساحل البحر فى موضع الرمل الحالى ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية العابثة اللاهية .

5- الإسكندرية الجادة ، الغارقة فى بطون الكتب ، المتهالكة على البحث فى المتحف الإسكندرى والمكتبة الملحقة به ،

---

[1] د . ابراهيم جمعة ، جامعة الإسكندرية فى العصر الإغريقى الرومانى ، الطبعة الثانية، 1981 ، ص ص 30-31 . وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام 1944

وكانت تقع بعيداً عن جلبة الحياة فى حى راقودة الوطنى ،
ونعيمها ودعتها فى الحى الملكى ، ومجونها واستهتارها
فى نيقوبوليس ، بعيدا عن شرور المال فى حى اليهود .

والواقع أن بعض الكتابات حاولت الترويج لبعض القصص عن اليهود ودورهم فى الإسكندرية وكيف أن اليهود لما تشبهوا بالإغريق فى ذلك العصر وخشى عليهم من ضياع تمسكهم بالدين تم ترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية فيما يعرف بالترجمة السبعينية . فما هى قصة اليهود فى مصر ؟ وماهى قصة الترجمة السبعينية ؟ وكيف صورتها لنا الكتابات المختلفة ؟ هذه الأسئلة لابد من الاجابة عليها لأنها تشكل ركنا مهما فى تمام القصة التى روجت للدعاية بأن العرب والمسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة . لاسبيل لنا لاستجلاء الحقيقة إلا من خلال الصبر على متابعة تحليل النصوص والوقوف على مافيها من حقائق من خلال التحليل النقدى المقارن ، إذ النقد وحده هو الذى يكشف لنا حقيقة ما غاص فى أعماق التاريخ وغمض .

الترجمة السبعينية

يشير الدكتور نجيب بلدى[1] إلى أن اليهود فى الإسكندرية نتيجة لانشغالهم بالامتيازات التى حصلوا عليها أصبحوا يجهلون لغتهم العبرية

---

[1] د. نجيب بلدى ، التمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية ، ص 50

ويتحدثون اليونانية فحسب ، فخشى رؤساؤهم عليهم ، وعمل حكام البطالمة على احضار أكبر أحبار اليهود إلى الإسكندرية من فلسطين وعددهم اثنين وسبعين حبرا لترجمة التوراة، فعرفت بالترجمة السبعينية. ويرى الدكتور نجيب بلدى أن هذه الترجمة تعد " من أهم الأعمال التى تمت فى العصر السكندرى وفى مدينة الإسكندرية " . ولكن إذا كان هذا هو الرأى الفلسفى الذى ذهب إليه الدكتور بلدى مشايعا رأى جورج سارتون[1] ، فما هى صحته تاريخيا ؟

يقدم الأستاذ محمد أحمد حسين[2] فى كتابه "مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم" الذى صدر فى عام 1943 تفنيدا لهذه الرواية مؤكدا أن يوسفوس هو الذى نشر هذه الرواية ، وهى محض اختلاق إذ أنه من الثابت أن يهود الإسكندرية كانوا أكثر ثقافة من يهود فلسطين ، كما كانوا أكثر دراية منهم باللغة اليونانية . وأن ناشر هذه الرواية من المرجح أنه كان يريد أن يكسب الترجمة التى قام بها اليهود فى مصر صفة أصلية محترمة ، ووفق رأى متر[3] فإن ترجمة العهد القديم إلى اللغة الإغريقية تمت فى عصور مختلفة.

---

[1] سارتون ، العالم القديم والمدنية الحديثة ، ص 48 -50

[2] محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ، ص 15

[3] Matter, Essai Historique Sur l'Ecole d'Alexandrie, Tome 1 , pp.74-79

نقلا عن محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية

والواقع أن مؤرخ العلم والحضارات ويل ديورانت[1] بـرغم ميولـه الواضحة لليهود وذكره لهذه القصة أيضا فإنه قبل أن يذكر هذه القصـة كتب عبارة تقول " وتقص إحدى القصص الخرافية.." ، مما يدل علـى عدم ثقته فى القصص التى تروى فى هـذا الصدد.

أما مايرويه جورج سارتون من أن ديمتريوس الفاليرى هو الـذى عرض على بطلميوس الثانى (فلادلفيوس) ضرورة نقل التـوراة إلـى الإغريقية ، لأن الجماعة اليهودية القوية النفوذ فى الإسكندرية كانت قد ضعف امتلاكها للغة العبرية ، ومن جهـة أخـرى كـان يحتمـل أن تجتـذب التوراة فى النسخة الاغريقية اهتمام الناس من غيـر اليهـود، مما أدى بالملك بطلميوس الثانى أن يرسل مبعوثين إلى رئيس الكهنـة فى أورشليم للحصول على لفائف عبرية للعهد القديم ، ومن ثم " حظى المطلب الملكى بالقبول وسرعان ما استقر فى جزيرة فاروس 72 حبرا يهوديا عكفوا على ترجمة الكتاب المقدس . وربما أطلق على الترجمـة أولا Septuaginta duo (نسبة إلى الاثنين والسـبعين عالمـا) ثـم اسقطت الكلمة الأخيرة duo "[2]. وعلى هـذا الأساس فـإن سـارتون ينظر إلى الترجمة السبعينية على أنها أهم الأعمال فـى ميـدان الأدب

---

[1] ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، الترجمة العربية ، مجلد 8 ، ص 77

[2] جورج سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة الدكتور عبد الحميد صبره، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،1959 ، ص 49

والدين العالمى [1]. لكن من جانبنا نرى أن رأى العلامة جورج سارتون يجانبه الصواب لأن ديمتريوس الفاليرى فقد مكانته فى القصر الملكى بعد رحيل زميله وصديقه بطلميوس الأول سوتير [2] ، ونفى خارج الإسكندرية ولم يتعاون مع فلادلفيوس على ما يرى جمهرة من المؤرخين الحديثين.

وفى هذا الاطار ذهب الدكتور حسن عون فى مقالته عن الإسكندرية فى عصر البطالمة التى صدرت عام 1948 إلى إنه لمن "حديث الخرافة أن يقال أن هذه الترجمة للعهد القديم كانت بأمر بطلميوس الثانى ، والحق أنها صدرت تدريجيا كيما ينتفع بها يهود الإسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيلينى وكانوا أعرف باللغة الإغريقية منهم بلغتهم الأصلية . وفى هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة عدة قرون ومنها ترجمت إلى القبطية والسريانية والأرمينية واللغات الأخرى- وكانت الإسكندرية أحد المراكز الرئيسية فى امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفة وادماج عبادات مختلفة فى بعضها حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية

---

[1] جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج4 ، ترجمة د. إبراهيم بيومى مدكور وأخرين ، دار المعارف ، مصر ، 1970 ، ص 194

[2] **Fraser,P.M.**, *Ptolemaic Alexandria* , vol. I ,Oxford University Press ,Oxford, 1972 , p .320

واحدة هيأت عصب النزاع بين الوثنية والمسيحية"[1] .وهـذا يعنـى أن الترجمة تمت على مراحل.

على حين ترى كتابات أخرى[2] أن السبب فى هذه الترجمة يرجـع إلى عدة أمور أهمها أن كثيرا من اليهود كانوا قد تـأغرقوا وأصـبحت اللغة اليونانية هى لغتهم الوحيدة هذا من جانب . وأن اليهود فـى ذلـك العصر اتخذوا الزى اليونانى وتسموا بأسماء إغريقية مثـل بطلميـوس وسوتير وغيرها من الاسماء ، ولم تكن هناك صفة مميزة لهم ، هذا من جانب آخر.

اليهود ودور مأسوى

لكن يبدو من المناسب أيضا فى إطار هذه المنظومـة التاريخيـة أن نشير إلى طبقة اليهود الذين كانوا يعيشون فى الإسكندرية فـى عصـر البطالمة . كيف رسمت صورتهم فى الكتابات التاريخية المختلفة ؟ وهل يفيدنا هذا فى التعرف على الدور الذى لعبه اليهود تاريخيا فـى أصـل القصة والرواية المزعومة عن نسبة حريق مكتبـة الإسـكندرية إلـى العرب ؟

---

[1] د. زكى على ، الإسكندرية فى عصر البطالمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فاروق الأول ، الإسكندرية،المجلد الرابع 1948 ، ص ص 121-140

[2] د. مصطفى العبادى ، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ، مكتبة الأنجلو ، 1980 ، ص 112

الذي لاشك فيه أن بعض المؤرخين المعاصرين فطنوا إلى الــدور الخسيس الذى لعبه اليهود فى حرب الإسكندرية أيام يوليــوس قيصــر، خاصة وأن حيهم كان قريبا من الحى الملكى . يصــور لنــا المــؤرخ المصرى المعاصر الدكتور إبراهيم نصحى هذا الجانب أبلــغ تصــوير بقوله : وإذا كان من الجائز أن يكون اليهود فى الإسكندرية قد ســاعدوا قيصر فى أثناء (حرب الإسكندرية)، إذ أن حيهم كان يجــاور الحــى الملكى الذى حوصر فيه قيصر ، وأن يكون قيصر قد كافأهم لقاء ذلــك بتوكيد تمتعهم بالامتيازات التى منحها البطالمة إياهم، فإننا نشك فــى أن يكون قيصر قد ذهب إلى حد منحهم حقوق المواطنة، لأنه كان من شأن ذلك أولا إثارة عواطف الإسكندريين فى وقت كان قيصــر ينشــد فيــه تهدئتهم ، وثانيا أن تحترم كليوباترة ومن بعدها أغسطس إرادة قيصر . ويقيم الدكتور إبراهيم نصحى كل هذه الجوانب، ولكننا نعرف أنه عندما كانت الإسكندرية تعانى قحطا وأمرت كليوباترة بتوزيع منح من القمــح على مواطنى الإسكندرية لم يكن لليهود نصيب من هذه المنح لأنهم لــم يكونوا في عداد هؤلاء المواطنين.[1] ومن جانب آخر قد يكون ، وهــذا فى رأينا، عقابا لهم على خيانتهم للبلد الذى استضافهم علــى أرضــه ، والذى لم يشعروا بالانتماء إليه ومن ثم كانت خيانتهم .

---

[1] د. ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 1 ، 317- 318

إن أول نتيجة مهمة يمكن أن نستخلصها من التحليل السابق أن أيدى اليهود الآثمة امتدت بالمساعدة الفعلية للقائد الرومانى يوليوس قيصر الذى أضرم النيران فى الأسطول المصرى والميناء أثناء حرب الإسكندرية عام 48 ق . م ، وهذا يفسر لنا السر وراء انتقال كتاب ابن العبرى اليهودى الأصل والجذر إلى العالم اللاتينى وترويجه للقصة فى الأصل السوريانى أولا وهو ما حفظ فى الترجمة العربية فيما بعد . وهذه نتيجة مهمة وسوف تفيدنا فى متابعة التحليل الأساسى لقصة مكتبة الإسكندرية القديمة .

الحياة النيابية فى الإسكندرية

لكن ماذا عن الحياة النيابية فى الإسكندرية ؟ إنه إذا كانت الإسكندرية قد أسست كمدينة يونانية فإن هذا يعنى أن الإسكندرية قد شهدت حياة نيابية راسخة ، انطلاقا من حرص حكامها الذين أرادوا لها التفوق على أثينا ذاتها ، بل أرادوا لها أيضا أن تسود مدن العالم المتحضر وقتئذ.[1]

يذهب هنرى رياض إلى أنه " كان لمدينة الإسكندرية فى العصر البطلمى مجلس تشريعى أو مجلس شيوخ ، يتكون من المواطنين المستوفين لشروط خاصة من ناحية السن والثروة والمكانة ، وقد بقى

[1] د. حسن عون ، المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية عهد البطالمة ، مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول ، المجلد الخامس ، 1949 ، ص ص 83-101

قائما طوال العصر البطلمــى حتــى أصــبحت مصــر جــزءا مــن الإمبراطورية الرومانية ، فرأى الإمبراطور أغســطس ، أول أبــاطرة الرومان ، أن يلغى هذا المجلس وأمر أهل المدينة أن يــديروا شــئون مدينتهم بأنفسهم دون أن يكون لهم مجلس تشــريعى "[1]. وعلــى هــذا الأساس بقيت الإسكندرية بغير مجلس تشريعى لأكثر من مائتى عــام، الأمر الذى انعكس بالضرورة على حالة المدينة ومكانتها ، مما أدى إلى تدهورها اقتصاديا . ولكن ينبغى علينا أن نتوقف عند هذه النقطة قليلا، إذ أن مسألة وجود المجلس التشريعى فى مدينــة الإســكندرية مهمــة لمكانته المعنوية ، كما يذكر ذلك الدكتور لطفى عبد الوهاب الذى يؤكد أن " مجلس المقدونيين ومجلس السكندريين لم يكونا المجلسين الوحيدين اللذين عرفتهما مدينة الإسكندرية ، فقد كان هناك كذلك مجلس الشورى Boule . حقيقة لقد ثار الخلاف حول وجود هــذا المجلــس أو عــدم وجوده"[2]. ويعرض الدكتور لطفى عبد الوهاب للآراء التى تنفى وجــود المجلس التشريعى فى الإسكندرية ويرفضها على أساس بعض الشواهد المهمة التى من بينها " الخطاب الذى وجهه الإمبراطور كلاوديوس إلى السكندريين، والذى يقول فيه ، فى أثناء مناقشته لالتماسهم بخصــوص

---

[1] هنرى رياض ، المرجع السابق ، ص 11

[2] د. لطفى عبد الوهاب، دراسات فى العصر الهلينستى ، دار المعرفة الجامعية ، 1999 ، ص 285

إقامة مجلس للشورى " أما عن أنكم كنتم تتمتعون بمجلس للشورى فــى عهد ملوككم الأقدمين فهذا أمر لا أريد أن أخوض فيه "[1]. وبطبيعــة الحال هناك شواهد أخرى على وجود المجالس التشريعية ، إلا أن أهمية هذه المسألة تأتى من خلال التدليل على عمق الممارسة السياسية لــدى أهل الإسكندرية وأهمية هذا فى التدليل على البعد الديمقراطى لــديهم ، وهذا ما جعل ممارستهم الشعبية تكتسب بعداً تاريخياً لــه دلالتــه فــى تأصيل الفكر الشعبى الديمقراطى.

وهناك نظرة أخرى ذهب إليهاجريجينوج فى مجموعة المحاضرات التى ألقاها عام 1946 بعنوان مصر من الإسكندر الأكبر حتــى الفــتح العربى التى نشرت عام 1954 حيث يؤكد فى نص مهم عــن مجلــس الشورى فى الإسكندرية : وكان يعيش فى الإسكندرية منذ البداية خليط من السكان فى مقدمتهم مجموعة المواطنين المتمتعــين بكافــة حقــوق المواطنة ، وهم الاغريق أو من تجرى فى عروقهم دمــاء اغريقيــة . وكان هؤلاء كمواطنى المدن الاغريقية الحرة ينقســمون إلــى قبائــل Phylae وأحياء Demoi،ولهم مجلس للشــورى Boule وجمعيــة شعبية، وفيهم الموظفون المعرفون فى المدن الاغريقية الحرة . ولم يكن بالإسكندرية مجلس للشورى تحت حكم الرومان حتى اعتلــى العــرش

[1] المرجع السابق ، ص 286

الامبراطور سبتيميوس سفيروس[1] Septimius Severus ولا يـزال الجدل محتدما حول مسألة مجلس الشورى ، وهل وجده أغسطس قائما، وهل هو الذى ألغاه؟"[2]. ويعتمد جريجينوج على الدليل العكسى فى فهـم طبيعة الأشياء وفى تفسيره لوجود مجلس الشورى حيث يقرر فى نص له " وعندى أن الإسكندرية لم يكن بها مجلس للشورى عنـدما فتحهـا الرومان، لكن من العسير علينا أن نتصور أن الإسكندر قد شيد مدينـة اغريقية بدون مجلس للشورى "[3]. وهذا يعنى أمرين همـا: الأول ، أن الإسكندر فى تأسيسه للإسكندرية إنما أسسها على ذات النمط السياسـى الذى كان سائدا فى المدن الإغريقية التى كانت الممارسة السياسية أهـم ما يميزها. والثانى ، أن السيطرة الرومانية على الإسكندرية أدت إلـى تأخرها بصورة كبيرة ، وأبرز ما يظهر هذا التأخر تراجع الممارسـة السياسية الشعبية .

لكننا الآن نريد أن نتوقف عند الجوانب الثقافيـة المهمـة بالنسـبة للإسكندرية التاريخية لنربط كل هذا بالإسهام المعاصر والنهضة الشاملة التى تشهدها هذه المدينة ووضعها على الخريطة العالمية، وأهمية هـذا

---

[1] حكم فى الفترة من 193- 211

[2] جريجبينوج ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، محاضرات العام 1946 ، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على ، د. محمد عواد حسين ، القاهرة ، 1954 ، ص ص 99- 100

[3] المرجع السابق ، ص 100

الوضع بالنسبة لمصر وللشرق بأسره وانعكاساته على مسار الحضارة والفكر العالميين . ولن يبدو لنا هذا إلا من خلال تتبع المظهر الثقافى الرائد للإسكندرية كمدينة عالمية، من خلال المتحف والمكتبة لنعرف إلى أى حد ساهمت الإسكندرية وأعلام الفكر والعلم فيها عبر العصور، فى التكوين الثقافى العالمى وفى مسيرة الحضارة بصفة عامة.

الفصل الثانى

حلم البطالمة

المشروع الثقافى

تعتبر الإسكندرية من أهم دول العالم تاريخيا نظرا لما حازته من شهرة عالمية عبر التاريخ انطلاقا من سمعة مكتبتها، والأهمية التى احتلتها بين الباحثين العرب وغير العرب على السواء . وربما طغت هذه الشهرة على المتحف ؛ وأدت أيضا إلى الخلط بين المكتبة $\beta\iota\beta\lambda\iota o\Theta\eta\kappa\eta$ والمتحف Mouseion فى كثير من الأحيان . والسؤال : أيهما أسبق إلى الوجود ، المتحف أم المكتبة ؟ سؤال له أهمية معرفية مباشرة تتصل بطبيعة النشاط الذى نتج عن المتحف والمكتبة. وهذا السؤال لا يقل أهمية عن مؤسس المتحف والمكتبة . هل هو شخص واحد ؟ أم أنه أكثر من شخص ؟ وما طبيعة التوجهات التى أدت إلى اختيار شخص بعينه فى كلتا الحالتين ؟ إن مثل هذه الأسئلة تؤدى بالضرورة إلى محاولة التعرف على المتحف والمكتبة ، انطلاقا من تصور ثابت بوجود دور فاعل لكل منهما فى الحياة الثقافية المصرية .

وحتى نعرف الإجابة على كل هذه التساؤلات نتناول فى هذا الصدد بالتحليل والفهم دور المتحف ثم المكتبة لنعرف الخريطة العامة للفكر الثقافى فى أوائل عصر البطالمة .

أما المتحف كما يصفه استرابون، فإنه يشكل كيانا متكاملا ، وهو جزء من حى القصور الملكية . يقول استرابون فى هذا الصدد "والقصور على أية حال متصلة بعضها ببعض وبالميناء . والمتحف

أيضا جزء من القصور الملكية وهو يضم ممشى ورواقا خارجيا وبيتا كبيرا فيه منتدى العلماء والمشاركين فى المتحف وأموال هذه الجماعة مشتركة بينهم ولهم أيضا كاهن يشرف على المتحف ، كان الملوك يعينونه فيما مضى ويعينه قيصر الآن"[1].

وهنا لابد لنا أن نتوقف عند ما يذكره استرابون Strapo خاصة وإنه كاتب له مكانته الفكرية ودوره البارز فى ذكر أحداث كثيرة مهمة ، هذا فضلا عن إنه كان أول كاتب ومفكر يزور الإسكندرية بعد قرابة ربع قرن من الحريق الذى أصاب الميناء والمكتبة على يد يوليوس قيصر ، هذا من جانب . كما أنه أقام فى الإسكندرية لمدة خمس سنوات متواصلة، ومن وصفه ، ربما يكون قد أقام فى المتحف مع علماء عصره متمتعا بكل المزايا التى كان يتمتع بها العلماء ، هذا من جانب آخر . والأمر الذى يستوقفنا فى عبارة استرابون اغفاله ذكر المكتبة ، وهذا الأمر ربما يدل على أن المكتبة لم تكن موجودة على الأرجح وقتئذ ، إذ لو كانت موجودة ما تردد استرابون عن وصفها ، وذكر مكوناتها وما بها من كتب مختلفة ، وهنا أيضا نجد مسألة أخرى جديرة بالملاحظة وهى التساؤل عن المصدر الذى من خلاله حصل استرابون على الكتابات التى أعانته على تأليف موسوعته التى أمضى فى كتابتها قرابة الخمس سنوات . هل كانت هناك مكتبة أخرى داخلية

[1] استرابون فى مصر ، ص 60

فى المتحف بخلاف المكتبة الأم التى نعرفها؟ أم أنه أحضر ما يحتاجه من كتابات معه عند قدومه إلى الإسكندرية ؟ لنرى إذن فى التحليل التالى أهمية عبارة استرابون من الناحية المعرفية فى شقها الأول ثم نحاول تعقب مسألة حصوله على الكتب .

تشير عبارة استرابون إلى أن المتحف كان داخل القصور الملكية، وربما أقام فيه العلماء ، وهذا ما جعل بعض المفكرين يؤكد أن المتحف، أى دار العلم " كان يقيم فيها على نفقة الحكومة عدد من العلماء والأدباء لا تجنى منهم ضرائب "[1] ، لأنهم كانوا يقدمون للدولة خدمات علمية جليلة تدفع البحث العلمى قدما إلى الأمام . وكأن استرابون يريد أن يقول لنا إن الدولة حرصت فى الزمن القديم على تقديم كافة التسهيلات للعلماء والمفكرين بلا حدود، لأنهم بمثابة العقل من القلب ، ولأنهم الواجهة الثقافية والعقلية للدولة . ويترتب على هذا أن الدولة استطاعت أن تجنى من وراء جهدهم ثمار نهضتها .

لكن لنا أن نتساءل أيضا : إذا كان العلماء يقيمون فى المتحف ويتمتعون بكافة الامتيازات ، أليس من الطبيعى إذن أن تكون لهم مكتبة يلجؤن إليها للحصول على ما يلزمهم من الكتابات أثناء اجراء بحوثهم العلمية ؟ وهل إذا كانت هناك مكتبة فى المتحف ، هل هى المكتبة الأم التى يشار إليها عادة بأنها احترقت ؟ أم أن المقصود أنه كانت توجد

---

[1] جريجبينوج ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص 103

مكتبة صغيرة تخدم أغراض البحث العلمى للعلماء داخل المتحف ، وفى هذه الحالة تصبح مكتبة المتحف قاصرة على العلماء دون الجمهور ؟

يستوقفنا فى كلام استرابون الذى أشرنا إليه بعض العبارات التى تحمل دلالة تاريخية فيما يتعلق بالمتحف ، وسعينا وراء معرفة تفاصيله. ومن أهم ما تركز عليه عبارة استرابون قوله " والمتحف أيضا جزء من القصور الملكية" ، وأن العلماء داخل المتحف يشكلون جماعة علمية فيما بينهم ، وهذه الجماعة " مشتركة ولهم أيضا كاهن يشرف على المتحف " ، وهذا الكاهن " كان الملوك يعينونه فيما مضى". إن هذه الإشارات تتطلب منا بعض التحليل للوقوف على المزيد من المعلومات عن المتحف ودوره كدار علم.

وأول ما يسترعى الانتباه فى هذا الشأن فى هذا الشأن ذلك التحديد الذى يشير إليه الأستاذ جورج سارتون من أن المتحف (الموسيون) هو مركز البحوث العلمية[1]، وهو معهد العلوم بالإسكندرية، وقد ألحق به معبد لربات الفنون والعلوم Musae[2] على غرار ماكان متبعا فى

[1] سارتون ، تاريخ العلم ، ج 6 ، ص 257
[2] جريجبينوج ، المرجع السابق ، ص 103

المدارس الفلسفية اليونانية[1]، بخاصة أنه أسس علـى نمـط لوكيـون أرسطو.[2]

والجدير بالذكر أن بطلميـوس الأول (سـوتر) القائـد العسـكرى والمفكر اليونانى ، رأس الأسرة البطلمية ومؤسسها فى مصر، هو الذى أنشأ " مركز الأبحاث المعروف بالمتحف (الموسيون) "[3]، الذى عهـد به فى أول الأمر إلى الفيلسوف الأثينـى سـتراتون ليضـع أفكـاره وتصوراته الأساسية خاصة وأن الملك بطلميوس الأول سـوتر كـان يرغب فى أن يقوم ثيوفراسطس بهـذه المهمة لكنه لم يوفق ، وهـذا يعنى أن الدور الـذى أنيط بالمتحف منـذ البداية ارتسمت معالمه على هيـئة مشروع ثقافى يضارع المشروع اليونانى فى أثينا . وفى هـذا الصدد يقول الأستاذ سارتون فى نص مهم عن المتحف " ويرجع الكثير من الفضل فى نموه إلى أنصاره الملوك . وهـذه الإشارة مهمة لأننـا نستطيع أن نربط بين النهضة الشاملة التى تشهدها الدولة وبين توجهات الحاكم ، لأن الحاكم المستنير الـذى يعرف قيمة الثقافة والمعرفة يهتم بالواجهة الثقافية لبلده ويأتى اهتمامه هـذا من منطلق ايمانه بأن الثقافة والفكر مكونان رئيسيان فى النهضة.

---

[1] د. نجيب بلدى ، التمهيد ، ص 36

[2] د . حسين الشيخ ، العصر الهلينستى ، ص 112

[3] El- Abbadi , M ., *The life and Fate of the Ancient Library of Alexandria* , p . 41

ولكن أكثر من هذا الكثير يرجع إلـــى ســـتراتون Straton تلميـذ ثيوفراسطس وأحد أبرز علماء الطبيعة فى عصره . جاء ستراتون من أثينا إلى الإسكندرية تلبية لـدعوة صـديقه الملـك بطلميـوس الأول (حوإلىسنة 300 ق .م)، ولنا أن نعده المؤسس الحقيقى للمتحف لأنه نقل إليه الطابع العقلى الذى انطبعت به مدرسة اللوقيون ، وإليه يرجـع الفضل فى تحول المتحف إلى معهد للبحث العلمى بدلا من تحوله إلـى مدرسة للشعر والخطابة"[1].وفى هذا الإطار وجدنا سارتون يعقد مقارنة بسيطة بين المتحف فى بلاد اليونان والمتحف فى الإسـكندرية . أمـا المتحف عند اليونان فلم يكن إلا معبدا لربات الشعر والتاريخ والفلـك التسع ، على حين أن متحف الإسكندرية "كان معهدا من نوع جديد بلغ من أهميته أن تغلغل اسمه فى كثير من اللغات فاحتفظت به "[2]. ويبـدو أن طبيعة تكوين ستراتون أثرت على الطابع العام للمتحف فقـد كـان مهتما بدراسة الطبيعة تحت تأثير التعاليم غيـر المباشـرة لأرسـطو والتعاليم المباشرة لأستاذه ثيوفراسطس ، ويذكر الأستاذ سـارتون أنـه ظل فى مصر سنوات طويلة " حتى دعى إلى أثينا عند وفاة الفيلسـوف ثاوفراسطوس أحد أكبر تلامـذة أرسطو وشراحه سنة 288 ، وهنـاك

---

[1] سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة وتقديم الدكتور عبد الحميد صبرة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،1959 ، ص 32

[2] سارتون ، المرجع السابق ، ص 31

عين زعيما أو رئيسا على مدرسة اللوقيون (فكان ثالــث زعمائهــا) وأشرف على إدارتها نحو ثمانية عشر قدما عاما (من حوإلى سنة 288 إلى حوإلى سنة 270)"[1]. ويبدى سارتون إعجابه الشديد بــأن يكــون المسؤول عن تنظيم المتحف فى بدايته تلميذا متخرجــا مــن مدرســة اللوقيون ثم صار زعيما للمدرسة فيما بعد . وهــذا يــدلنا علـــى أن ستراتون هو مؤسس المتحف وأنه قد أنيطت به هذه المهمــة أصـــلاً.

يبقى علينا أن نميز فى عبارة استرابون ما أشار إليه من أن العلمـــاء داخل المتحف كانوا يشكلون "جماعة" ، وهــذه الجماعة لهــا "كــاهن" يشرف على شئونها . إن هــذه الأفكار التى يشير إليها استرابون إنمــا تبين أن العلماء فى ذلك العصر كانوا ينخرطون فى جماعات علميـــة ، وفكرة الجماعات العلمية على هــذا النحو إنما تكون قديمة جدا ويكون القدماء قد تنبهوا لها قبل أن يعرفها المعاصرين من مؤرخى العلم أمثال توماس كون وغيره . ومن ثم تصبح الجماعة العلمية بالصورة المشار إليها ذات تنظيم علمى ديناميكى يميزها عن غيرهــا مــن الجماعــات العلمية الآخرى التى قد تكون موجودة تاريخيا فى أماكن أخرى فى تلك الفترة . وفكرة وجود تنظيم وهيكل للجماعة العلمية يعنى أيضا أن مثل هــذه الجماعة ذات تدرج طبقى تتمايز فيه الأجيال العلمية ، وتصـــبح مقاليد الأمور متدرجة بين الأجيال العلمية داخل الجماعــة ، ويمســك

[1] المرجع السابق ، ص 32-33

بخيوط التماسك بين الأجيال جميعا شخص قادر على ادارة شئون الجماعة ، وعارف ببواطن الأمور فيها ، ويتمتع بمقدرة علمية وثقافة ومعرفة واسعة وفوق ذلك تكون له وظيفة ضابطة من الناحية الدينية ، وهذا هو الكاهن الذى كان يتمتع بنفوذ قوى وثقل علمى داخل المؤسسة ككل . وما نفهمه أيضا من العبارة التى أوردها استرابون أن تعيين "الكاهن" من قبل الملك يعنى أن أوامره نافذة المفعول وأن لديه الصلاحيات لتوفير كل ما يحقق للجماعة العلمية الاستقرار العلمى والنفسى والاجتماعى ، وما يتطلبه هذا الاستقرار من الاتصال بأجهزة الدولة المختلفة لتوفير احتاجات جماعة العلماء حتى يتفرغوا للابداع العلمى أو الفنى أو الأدبى أو غيره من صور الانتاج الفكرى . وربما كشف كل هذا عن بعد آخر مهم يتمثل فى أن الكاهن بما أنه كان معينا بأمر ملكى فإنه بالتإلى يمكنه الاتصال بالملك مباشرة لحل المشكلات التى قد تقف أمام مطالب العلماء ، أو قد يدعو الملك لحضور اجتماعات الجماعة العلمية أو الندوات التى تعقدها . لكن لاينبغى أن نتصور أن وظيفة الكاهن امتدت لتشمل المكتبة التى كان أمينها يعين بمرسوم ملكى أيضا ، وله وظائف تختلف عن وظائف الكاهن فى المتحف ، وهذه بطبيعة الحال مسألة تسترعى الانتباه: وظيفة الكاهن تقوم على أمر العلماء ، ووظيفة أمين المكتبة تقوم على رعاية عقل العلماء .

إننا إذا وثقنا فى نص سارتون ، وليس هناك ما يدعونا لغيـر ذلـك، لوجب أن نمسك عن النصوص التى لا تميز بين المتحـف والمكتبـة: المتحف هو مركز البحوث العلمية وفيه منتدى العلماء ، والمكتبة مركز الدراسات الإنسانية، وهى عقل الموسيون ، على مـا يـذهب الأسـتاذ سارتون . وهـذا يعنى أن أول فكرة علمية منهجية وصحيحة نشـأت فى عقل الـذين فكروا فى الأمر تمثلت فى ضـرورة وجـود مركـز للأبحاث العلمية بجوار المكتبة ، وهى فكرة تجعـل للمكتبـة حيثيتهـا ووجودها الفاعل . فمن المعروف أن مراكز البحث العلمى لا تسـتغنى عن مكتبة يلجأ إليها رجال البحث العلمى بين الحين والآخر ليحصـلوا منها على المادة العلمية التى يحتاجونها فى كتابـة أبحـاثهم ، وحتـى يمكنهم توثيق دراساتهم أيضا ، وهـذا ما جعل دراسات توثيق الكتـب وملحقاتها تزدهر فى الإسكندرية لتشكل الارهاصـات الأولـى لعلـم متكامل.

لكن ربما قابلتنا فى هذا الصدد بعـض التسـاؤلات ، وبخاصـة أن استرابون، وهو من أقدم المصـادر التاريخيـة التـى لـدينا ، يقـول "والمتحف أيضا جزء من القصور الملكية " ، على حـين أن الأسـتاذ سارتون لا يأخذ بهذا الرأى ، ويذهب إلى حد القول " والشيء المؤكـد هو أن الموسيون والمكتبة ، كليهما – مـع أنـه لـم تضـمهما أرض القصور الملكية – كانتا على الأقل فى البركيون ، وهو الحى المقدونى

– اليونانى فى الإسكندرية، وأنهما خضعا معا للأوامر الملكية "[1]. لكن الأستاذ سارتون يؤكد فى موضع آخر عبارة أخرى أكثـــر احتمـــالا إذ يقول "ولكن يحتمل أن المكتبة كانت جزءا مكملا للمتحف (كما يكـــون لكل معهد من معاهد البحث مكتبة خاصة به)؛ والمعهدان كلاهما كان قائما فى المدينة أو الحظيرة الملكية ، وكلاهما كان معهدا ملكيا علـــى نحو يقربهما من المعاهد الحكومية فى أيامنا ، لأن الملـــك كـــان هـــو الدولة، ولم يكن شىء من الأشياء التى يقصد بها الصالح العام ينشأ إلا بأمره وعلى نفقته . وقد كان المتحف والمكتبة من المرافق العامـــة "[2] وهما معا يخضعان للأوامر الملكية . إن هذا النص والـــنص الســـابق مباشرة يتعارضان تماما مع نص استرابون ، ولكن مع هذا التعـــارض نجد أن سارتون يعلق فى الهامش على عبارته السابقة بقولـــه " كـــان البروخيون هو الحى الأرستقراطى فى مدينـــة الإســـكندرية القديمـــة ، وموقعه من جنوبى الميناء الكبير إلى رأس لوخيـــاس الواقـــع شـــرق الميناء، واشتمل هذا الحى على القصور الملكية ، ومصـــالح الحكومـــة ودور السادة من المقدونيين واليونانيين ، فضلا عن الضـــريح الملكـــى والموسيون والمكتبة "[3].

---

[1] سارتون ، المرجع السابق ، تاريخ العلم ، ص 257

[2] سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة ، ص 37

[3] المرجع السابق ، تاريخ العلم ، ص 283

إن هذه العبارة الأخيرة بادية التعارض مع العبارة السابقة ، إذ كيف يتسنى القول أن الموسيون والمكتبة لم تضمهما أرض القصور الملكية، وأنها تشتمل عليهما فى الوقت ذاته .

لقد وصف لنا الأستاذ بتلر أرض القصور الملكية ، أو البروكيون، موضحا أنها كانت فخمة ورائعة الجمال . وفى هذا الصدد نجده يقول " وكان أفخم أحياء أنحاء المدينة فيما مضى جهة اسمها (البروكيون) وكان إلى شمالها ميناء الإسكندرية وإلى جنوبها الشارع الأعظم الآتى من باب الشمس إلى الحدائق الوسطى بالمدينة"[1]. وحى البروكيون هو أكثر أحياء المدينة سكانا وأعظمها فخامة ، وكان محاطا بالأسوار المنيعة . هذا وكما يذكر الأستاذ بتلر "كانت فيه قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التى كانت فيها جثة الإسكندر فى غشاء الذهب "[2]. أضف إلى هذا ما تؤكده الكتابات التاريخية الحديثة من أن المتحف والمكتبة كانا جزءا من منطقة القصور الملكية ، وأن هذه المنطقة بالنسبة لاسترابون تؤلف ربع أو ثلث المدينة[3].

وأيا كان الأمر ، وجد المتحف ووجدت المكتبة ، داخل أو خارج القصور الملكية ، وكانا يخضعان مباشرة للأوامر الملكية .

---

[1] بتلر ، فتح العرب ، ص 390

[2] المرجع السابق ، ص 390

[3] د. مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ص 41-42

إذن عبارة استرابون السابقة بينت لنا كيف أن التقاليد التـــى أرســـاها ملوك البطالمة فى الإسكندرية البطلمية كانت تمثل امتدادا طبيعيا لتقاليد مصر القديمة الفرعونية فى العلم ، وهى تلك التقاليد التى انتقلت إلـــى اليونانيين عبر الصلات التى تمت بين مصر القديمة واليونان ، خاصة وأن اليونانيين قد جاءوا إلى مصر القديمة فى رحلات اثـــر رحـــلات ليقفوا على علومها وأسرار تقدمها ، وقد شكل كل هذا فى فتـــرة مـــن الفترات نقطة انطلاق للعلوم اليونانية ، وفى الوقت نفسه أدى بصـــورة أساسية إلى أن يفهم العالم الغربى القديم ممثلا فى اليونان كدولة عظمى فى ذلك الوقت ، أهمية مصر كدولة مفتاحية فى الشرق ودورها الرائد فى حركة العبور من الغرب إلى الشرق ، وربما فسر لنـــا كـــل هـــذا اهتمام الإسكندر الأكبر بفتح مصر واظهار علامـــات الـــولاء للديانـــة المصرية القديمة .

إلا أن هناك نقطة أخرى لابد وأن نتنبه إليها فـــى حـــديث الأســـتاذ سارتون وهى المتمثلة فى تأكيده على أن المكتبة وما يـــتم بـــداخلها ، وحتى العلماء يتم الانفاق عليهم من قبل الملك . وهـــذا يعنى أن الملك كان يدرك المكانة الرفيعة التى يشغلها العلماء فى دولته ، كما يـــدرك أيضا أن فى رعايتهم ثقافيا وعلميا ازدهار للدولة وعملا على تقـــدمها. ونحن نعلم من خلال النصوص التى وصلتنا عن النهضة التى ازدهـــر من خلالها العالم الإسلامى أن خلفاء المسلمين اهتموا بالعلماء وأغدقوا

عليهم وأنزلوهم منزلة عالية ، مما وفر لهم أسباب الحياة الحرة الكريمة التى دفعتهم بالتالى إلى بذل قصارى جهدهم لتقدم الأمة . وربما توارث الحكام والخلفاء العرب هذا التقليد عن الإسكندرية القديمة وتقاليد ملوكها .

لكن يجب علينا قبل أن نبين جوانب النهضة والازدهار الذى عاشته الإسكندرية ، أن نتساءل عن المكتبة : كيف تأسست ؟ ذلك لأن مثل هذا السؤال سوف يبين لنا إلى أى حد يتواصل الحاضر مع الماضى ، وكيف يمكن للأجيال والحضارات أن تتواصل معا وتتحاور عبر الفهم المشترك لطبيعة المنظومة الثقافية للماضى والحاضر .

اجتهد البطالمة فى تحقيق مشروعهم وحلمهم الفكرى والثقافى المتمثل فى المكتبة الذى ينافس أثينا ومكانتها الفكرية التى احتلتها عبر القرون، وهنا بدأت تبرز على السطح ، ولأول مرة ، فكرة المنافسة العلمية والثقافية والريادة فى ميادين الفكر ، خاصة وأن الإسكندرية كمدينة جديدة كانت بيضاء الثوب لم تتلوث بعد بالمفاسد السياسية أوالفكرية التى كانت قد بدأت فى الانتشار فى أثينا ومعاقل الفكر اليونانى التى انصرف روادها إلى الطمع فى السلطة والتناحر عليها وهو ما يبدو واضحا ، على سبيل المثال فى حالة ديمتريوس الفاليرى الفيلسوف والخطيب والسياسى الأثينى الذى جاء فارا إلى مصر فى أعقاب الانقلاب الذى أطاح به طمعا فى السلطة.

كانت مكتبة الإسكندرية هى نقطة تحقيق هذا الحلم الثقافى ومحوره الأساسى . ولذا عمل ملوك البطالمة على اقتناء المخطوطات والمؤلفات العلمية والإنسانية من أنحاء المعمورة ، مما أدى إلى ازدهار المكتبة ونموها بصورة تسترعى الانتباه فى فترة وجيزة. وقد تطلب هـذا انفاقا على المكتبة بلا حدود فقد " بلغت مكتبة الإسكندرية بفرعيها من الثروة العلمية ، ومن دقة النظام ، ومن حسن الادارة ، ومن كثرة النفقات درجة لاتقارن فى ذلك العالم القديم ، حتى لقد اتهم الكاتب المشهور سينكا Seneca وهو أحد أدباء الرومان ومن أكبر فلاسفتهم، الغاية من تلك المكتبة فهو يرى أنها تمثل مظهرا من مظاهر البـذخ والثراء لملوك الإسكندرية "[1]

وفى هذا الإطار نلتقى بالتفكير العقلى الواعى الذى انطلق ابتداء مـن شرارة تأسيس المكتبة فى عهد بطليموس سـوتر، واستمر إلـى أن أصبحت المكتبة ذات شهرة عالمية فى كل أنحاء العالم القديم، وحتـى عصرنا هذا الذى أعيد فيه إحياء المكتبة وبعثها من جديـد. فقـد أدرك ملوك البطالمة قيمة مهمة الاشراف علـى المكتبـة فاختـاروا لادارة شئونها والاشراف عليها أكبر أساتـذة العلم وأئمة الأدب كى يزيدوا فى ثروتها العلمية بما ينتجونه من مؤلفات ، وفى ثروتها الأدبية بما كـان

[1] د. حسن عون ، المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية ، ص 93

لهم من شهرة ومكانة بين المعاصرين.[1] وهـذا هو السر الأكبر وراء فكرة المنافسة التى استشرت بين المفكرين والعلماء فى المكتبة للنهوض بها وجعلها أعظم مكتبة فى العالم القديم على أسس عقلانية .

ويجدر بنا أن نتنبه إلى ما مثلته مفردات العقلانية من منطلقات حيوية فى سبيل نهضة المكتبة بصورة شاملة ، خاصة حين وضعت الأقـدار مشروع المكتبة ككل منذ اللحظة الأولى للتأسيس بين يدى فيلسوف لـه رؤية معرفية ومنهجية مثل دمتريوس الفاليرى الذى تخرج فى مدرسة الفكر الأرسطى وعرف مكونات الفكر الأرسـطى وتوجهاتـه. وهـذه النقطة بطبيعة الحال شكلت كل ما اختاره ديمتريـوس الفـاليرى مـن كتابات ومخطوطات تم انتقاؤها لتسهم فى إثراء الحوار الفكـرى بـين القديم ، الذى جاء من الحضارات الآخرى ومن أثينا ذاتها، وبين الوليد الحديث فى الإسكندرية المتمثل فى مكتبتها التىلعبت دورا ثقافيا وعلميا مهما عبر التاريخ.

إن هذه التوجهات كانت تعنى فى الوقت ذاته أن الإسـكندرية بـدأت تتألق وتأخذ دورها الرائد كعاصمة ثقافية جديدة ذات روح جديدة وعقل منفتح جديد ، ينظر ويتأمل وينتج فى إطار انفتاح مطلق علـى العـالم بنظرة ملؤها الأمل فى مستقبل مشرق . وهنا يبدو السـؤال والطـرح الجديد : هل تعيد المكتبة فى ثوبها الحديث نزعتها الحوارية والعقلانية

---

[1] المرجع السابق ، ص 94

مرة أخرى ؟ وهل تصبح الإسكندرية عاصمة للثقافة العالمية كما كانت من قبل ؟ كل هـذه التساؤلات تطرح نفسها علينا وعلـى المفكـرين والمثقفين فى الشرق والغرب على السواء ؟ وكيـف يمكـن تصـور منظومة التفاعل الثقافى التى سوف تأخـذ مسارها فى المكتبـة بـين المفكرين ؟ إن هـذه المسألة لابد وأن تكون موضع تفكيرنا واهتمامنـا ونحن نستقبل هـذا الحدث الثقافى . وهذا يعنى أن استقبال هذا الحدث الثقافى سيشغل المفكرين لسنوات طويلة ، يتطلعون فيها إلـى تفعيـل منظومتهم الفكرية والثقافية لتواكب ما يدور حولنا فى هذا العـالم مـن أفكار وتيارات ثقافية جديدة .

ومن جانب آخر فإن الدور الثقافى لمكتبة الإسكندرية الحديثة اتسـاقا مع روح الشرق الجديد ، لابد وأن يأتى واعيـا بـالمتغيرات الثقافيـة العالمية ، وانعكاسات العولمة على المنطقـة ككـل باعتبارهـا أحـد المعطيات الثقافية المهمة فى عالم اليوم . ومن هذا المنطلق أيضا لابـد لنا من التفكير فى تأثير التيارات الثقافية العالمية على الهوية الوطنية ، ومدى الأثر الذى سوف تخلفه هذه الثقافات ايجابا وسلبا .

إن كل هـذا يجعلنا نفكر أيضا فى لغة الحوار التى سوف تسـتنها الحلقات النقاشية فى المكتبة ، خاصة إذا عرفنا أن الـدور الحـوارى سوف يشكل بعدا مهما من أبعاد روح الشرق الجديد . هل ستكون لغـة الحوار لغة آحادية ؟ أم أنها سوف تنطوى على التعددية وما يسـتتبعها

من معطيات ؟ ربما كان من المناسب أن نسأل كل هـذه الأسئلة وفـى ضوئها أيضا نتصور ما يمكن أن نقدمه نحن للمكتبة ، وما يمكـن أن تقدمه المكتبة لنا على كافة المستويات الفكرية والثقافيـة .هـل هنـاك علاقة بين كل هـذا والأمن الثقافى المصرى ؟ هل ستشـهد المكتبـة تزاوجا بين الجنسيات ؟ المسألة إذن تحتاج من المفكرين والمثقفـين أن يقدحوا أذهانهم لتصور كيفية مواكبتنا لهـذا الحـدث الثقـافى المهـم استيعابا وابداعا لنبين إلى أى مدى تشكل مكتبة الإسـكندرية الجديـدة نافـذة مهمة على المستقبل ، ولتأسيس قاعدة للتفـاهم الثقـافى بـين الشعوب ولتوطيد أركان السلام والقضاء على أفكار الحروب المتخلفـة التى تنشأ بين البشر لأسباب يجهلها من تشن عليهم الحروب .

الفصل الثالث

تأسيس المكتبة

ورؤية فيلسوف

لقد نشأت الإسكندرية فى أوى عهدها عندما قـدم إليهـا الإسـكندر الأكبر نشأة يونانية ، ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف التى حتمـت أن تكون قيادة المدينة يونانية ، وبالتإلى مؤسساتها ، أن تنشـأ المدينـة على غرار أثينا فى عهدها الزاهر ، وأن تحتل الثقافـة فيهـا درجـة رفيعة، وأن يصبح العلم منارة حقيقية للمدينة .

فى ذلك العهد أيضا كانت شهرة أثينا الثقافية والعلمية قد بدأت فـى الذبول خاصة بعد أرسطو ، وكانت المدارس الفكرية والفلسـفية قليلـة التأثير فى المجتمع اليونانى ، بعد أن كانت أكاديمية أفلاطون قد طبقت شهرتها الآفاق ، وبعد أن احتلت مدرسة أرسطو الليسيوم مكانة رفيعة .

ومن ثم كان من الطبيعى أن الذبول والانكسار الذى بدأ ينتشر فـى أثينا قابله تألق وازدهار فى الإسكندرية الوليدة التى بدأت تبرز ككيـان ثقافى عملاق . ولكن كيف يكون التـألق والإبـداع ؟ وكيـف تكـون معطيات الازدهار ومكوناته المعرفية ؟ إن هذه الأسئلة وغيرها لابد أن تشغلنا ونحن بصدد تناول مكتبة الإسكندرية. وغياب هذه الأسئلة يفقـد الموضوع ركنا أساسيا من أركانه المعرفية. ومن ثم فإن تتبع محاولـة الإجابة عن هذه الأسئلة يؤسس شكلا مهما من أشكال المعرفة العلميـة بأسباب الازدهار والتألق الذى بدأ يأخذ مكانه فـى الشـرق بصـورة يونانية.

من الواضح أن تأسيس مدينة الإسكندرية أخـذ فـى بدايتـه شـكل المشروع الثقافى لحكام البطالمة، كما سبق أن ذكرنا، ومن المعـروف أن لكل مشروع ثقافى أبجدياته ومفرداته وتوجهاته . ولا يعقـل بحـال من الأحوال أن يتم تأسيس مدينة كالإسكندرية منافسة لأثينا – وهذا هو مشروع البطالمة الحقيقى– دون أن تتوافر للمدينة أسـباب النهـوض الثقافى ، وأسباب الحرية الفكرية الحقيقية. ومن هذه الزاوية فإنه لابـد لمن يقصد الإسكندرية زائرا كان أو تاجرا أو مقيما ، أن يجد فيها كـل ما يحتاج إليه لتغطية الجوانب الثقافية والفكرية والسياسية التى ينشدها. وهنا لابد من التفكير فى تأسيس وتشييد مؤسسة ثقافيـة تغطـى هـذا الجانب ، وتلبى حاجة من يقصد الإسكندرية ، المدينـة الجديـدة، لأى غرض من الأغراض . ولايغيب عنا أن أصحاب الفكر والثقافة والعلم حين ينزل أحدهم بلدا من البلدان فإن أول ما يسأل عنه هو المكتبـة . من هنا كانت المكتبة أحد أبجديات تأسيس مدينة الإسكندرية كمشـروع ثقافى.

ومن الناحية المعرفية والتاريخية فإن مكتبـة الإسـكندرية القديمـة اكتسبت شهرتها الواسعة عبر التاريخ اعتبارا من القرن الثالث عشـر الميلادى (السادس الهجرى) بعد أن بدأت بعض كتابات المـؤرخين العرب تتحدث عن حريق مكتبة الإسكندرية. ومن ثم اعتبرت تاريخيـا

أشهر مكتبات العالم القديم بأسره ، رغم أنها لم تكن المكتبة الوحيدة فى العالم القديم[1] ، وربما لم تكن أقدم المكتبات أيضا .

وتذكر الدراسات التاريخية بعض المكتبات التى وجدت فى الشرق قديما[2] مثل مكتبة اوجاريت التى تقع على الساحل السورى، التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد التى أمكن العثور بها على عدة آلاف من اللوحات المكتوبة التى تحتوى على كثير من النصوص الدينية والعقائدية التى تكشف عن عقائد الفينيقيين حوإلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد . وفى الشرق[3] أيضا وجدت مكتبات

---

[1] جورج سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الرابع ، ص 257

[2] د. مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 7 وما بعدها

[3] تشير بعض الدراسات الحديثة عن المكتبة المصرية فيما قبل مكتبة الإسكندرية إلى أن المصريين عرفوا مكان حفظ لفائف البردى فى مكان يفيد اسمه الفرعونى معنى دار الكتب ، أو دار لفافات الكتب ، وقد يعنى أحيانا دار الوثائق ، و ذ لك إ ذ ا كانت المواد المحفوظة فى الأرشيف ذ ات اهتمام خاص ، مثل أرشيف تل العمارنة ، وأرشيف مكتبة الشئون الخارجية فى الرعامسة .وترجع هذ ه الكتابات الفضل إلى المصريين فى اختراع ورق البردى الذ ى استخدم فى الكتابة ، إلى جانب استخدام الألواح الخشبية . ونظرا لطبيعة الكتب التى كان معظمها على هيئة لفافات البردى ، وبعضها مسجل على لوحات فخارية ، فقد كان يتم حفظ الكتب فى ملفات وخزانات .وتشير هذ ه الدراسات أيضا إلى أن الأدلة الأثرية اثبتت توصل المصريين إلى عمل بطاقات للكتب سجل عليها اسم الكتاب واسم صاحبه ، وكانت هذ ه البطاقات تثبت على الصناديق التى تحوى ملفات الكتب . وقد قسمت دور الكتب فى مصر الفرعونية حسب طبيعة المكان الملحقة به إلى نوعين رئيسيين هما :(1) المكتبات المدنية التى تعددت فى مصر ، وكان منها ما ذ كر دون تخصص مما يشير إلى أنها كانت مستقلة بذ اتها . ومنها ماكان ملحقا بالقصور الملكية ، وكذ لك دور الحياة . وربما ارتبط بهذا الدور ماسمى فى الدولة الحديثة باسم مقر المخطوطات ،أو ديوان الكتب . وتوجد العديد من الأدلة النصية التى يستدل منها على وجود مكتبات كانت

أخرى فى أنطاكية وغيرها من المناطق المجاورة . ومع كل هذا ظلت مكتبة الإسكندرية أكثر هذه المكتبات جميعا شهرة، ونعلم عنها أكثر مما نعرفه عن أية مكتبة أخرى فى العالم القديم [1] .

إذن نحن أمام حدث ثقافى مهم وهو مكتبة الإسكندرية ، وهذه المكتبة تشكل بطبيعة الحال ظاهرة ثقافية وتاريخية . واذا كان الأمر كذلك فإن متطلبات التحليل المعرفى التاريخى تقتضينا التساؤل عن حجم هذه المكتبة ، ومن قام بالإشراف عليها ، وتنظيمها الداخلى ، ومقتنياتها، حتى نكون لأنفسنا فكرة عن أبعاد الظاهرة التى نتعامل معها ومؤثراتها وتداعيات هذه المؤثرات تاريخيا .

إن التصور المعرفى لابد وأن يميز بين مرحلتين أساسيتين فى تاريخ مكتبة الإسكندرية فى العصر القديم هما:

ملحقة بالقصور الملكية ، مثل مكتبة الملك امنحتب الثالث التى عثر فيها على بطاقات الكتب . (2) المكتبات الدينية التى تضمنت دور الكتب الإلهية ، ودور الكتب الملحقة بالمعابد . وتشير هذ ه الدراسات أيضا إلى أن الصفة الغالبة على هذ ه المكتبات هى الصفة الدينية ، إلا أنها تضمنت العديد من المعارف والعلوم فى الفلك والفنون والطب وغيرها . ومن مكتبات المعابد المهمة مكتبة معبد الإله أتوم فى عين شمس . ومن المعابد التى ألحق بها مكتبات معبد الرمسيوم الذ ى أقامه الفرعون رعمسيس الثانى ، وألحق بمعبد الفرعون سيتى الأول فى أبيدوس مكتبة تتكون من أربع حجرات يتوسطها بهو ، وقد زينت الحجرات الأربع بصناديق يرجح أنها كانت تضم بعض الوثائق وملفات الكتب . راجع فى ذلك : أحمد سليم ، المكتبة المصرية فيما قبل مكتبة الإسكندرية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ،

[1] جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 258

(1)المرحلة الأولى وهى المرحلة التأسيسية المهمة التى تم فيها إسناد مهمة تأسيس مكتبة الإسكندرية إلى الفيلسوف والسياسى الأثينى ديمتريوس الفاليرى. وهذه المرحلة عبرت بصورة أساسية عن الأصول الأولى التى تم التأسيس وفقا لها ، خاصة وأن الأفكار واللمسات الأولى خرجت من عقل فيلسوف وسياسى وحكيم نهل العلم فى مدرسة أرسطو، وعرف أهمية الكتاب معرفيا ، ودوره فى حياة الشعوب سياسيا وثقافيا .

(2)وأما المرحلة الثانية فتتمثل فى صدور أول فهرس عن مكتبة الإسكندرية من إعداد كاليماخوس ، وجاءت هذه المرحلة معبرة عن التوثيق الفعلى لمقتنيات المكتبة ، وهذه المرحلة لم تأتى فى فترة مبكرة وإنما جاءت متأخرة نسبيا .

ومع أن هناك جوانب أخرى مهمة فى حياة وتطور مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم، فإن اختيار مرحلة التأسيس والفهرس الذى أعده كاليماخوس ، قصد بهما أساساً أن نكشف إلى أى حد كانت مكتبة الإسكندرية القديمة معبرة عن روح الشرق الجديد ، وكيف أنها كانت أكاديمية علمية، أو مؤسسة علمية ذات تنظيم وبناء وروح جديد ، خاصة وأن معظم العلماء والمفكرين والأدباء السكندريين فى العالم القديم تخرجوا من هذه الأكاديمية العلمية (المكتبة)، واحتلوا مكانة مرموقة داخل المكتبة ذاتها باعتبارها مؤسسة علمية.

وكما نعلم ، فإن المؤسسة العلمية لابـد وأن تتمتـع بتنظـيم إداري دقيق، بحيث إن هذا التنظيم يتخذ شكل هـرم تتـدرج فيـه السـلطات والمسئوليات ابتداءً من رئيس يحدد المهام والواجبـات والالتزامـات، متدرجا إلى سلطات ومستويات تنفيذية تأتى بعده فى الدرجة والمكانـة، تنفذ كل ما يوكل لها من مهام، بحيث تأتى منظومة العمل فـى نهايـة الأمر معبرة عن وحدة كاملة متآزرة وكأنها معزوفة متناغمة، ليسـهل العمل فى كل القطاعات.

إن هذا الفهم يحدد لنا على وجه الدقة ماذا تم فى مكتبة الإسـكندرية القديمة منذ بداية تأسيسها، حيث كان من الطبيعى أن يعهد إلى شـخص ما مهمة أن يتحمل عب العمل والتأسيس، ويدير العمل بهـا، ويضـع التصورات الأساسية والمهام التى تنطلق منها خلية العمل فى كل اتجاه لإنجاح العمل . وهـذا يستلزم أن يستعين من تناط به هـذه المهمـة العلمية الدقيقة بعدد من الأفراد العلميين الـذين يمكنهم فهـم وتنفيـذ الأوامر الصادرة إليهم ، وفهم طبيعة التعامل مع مقتنيـات المكتبـة ، خاصة إذا علمنا أن المكتبة مقامة فى الحى الملكى وأن الملـك سـوف يقصد المكان للقراءة واستخدام الكتب. لقد كان من الطبيعى أن يكـون هـذا العمل من نصيب الفيلسوف والمفكر اليونانى ديمتريوس الفاليرى الـذى كانت له خبرات سابقة فى التعامل مع الكتب والمكتبة فى مكتبة أستاذه أرسطو . ومن ثم فقد أخـذ ديمتريوس الفاليرى الأمـر علـى

عاتقه فأنجز أهم وأضخم حدث ثقافى عرف فى العالم القديم وهو مكتبة الإسكندرية ، فدخل التاريخ من بابها ، رغم أنه اشتهر بكتاباته الفلسفية وأشعاره وكتاباته السياسية ، التى من بينها أيضا كتاباته عن الحب والزواج ،والنظم والحروب والنقد والتاريخ ، ورغم أنه كان واحدا من أهم حكام اثينا قبل نزوحه إلى الإسكندرية .

إننا نعلم من خلال الوثائق والكتابات التاريخية أن ديمتريوس الفاليرى هو الذى تحمل عبء تأسيس المكتبة ومهامها، وأن بطلميوس الأول (سوتر) هو الذى عهد إليه بهذه المهمة ، فقد كانت تربطهما زمالة العلم فى مدرسة أرسطو . كما نعلم أيضا أن ديمتريوس الفاليرى هو الذى وضع النواة الأولى للعمل العلمى الذى جرى فى المكتبة. ونعلم أيضا أنه كان من الطبيعى أن يسعى ديمتريوس الفاليرى إلى الحصول على الكتب والمخطوطات من شتى البلدان وفى مقدمتها أثينا نفسها، وأدى هذا الأمر بطبيعة الحال -مع ازدياد نمو المكتبة وازدهار المعارف بها- إلى ضرورة وجود أمناء للمكتبة عبر عصورها المختلفة يتابعون ما يجرى بها من عمل، ويعملون على تطويرها فى الوقت نفسه. ويترتب على هذا أنه كان من الواجب على أحد هؤلاء أن يقدم تصورا عقلانيا للتعامل مع المكتبة يستند إلى أسس محددة، فيقدم لنا فهرساً للمكتبة ككل بحيث يسهل التعامل مع مقتنياتها، وهذه المهمة كانت من نصيب الشاعر والأديب كاليماخوس الذى وضع أول فهرس لمكتبة

الإسكندرية بحيث اعتبر نقطة تحول مهمة فى حياة مكتبة الإسكندرية القديمة، وتأسست عليه علوم ودراسات مهمة فيما بعد كما سوف نعرض لهذا الجانب.

لكن ألا توحى إلينا الصلة العلمية القديمة بين بطلميوس الأول وديمتريوس الفاليرى بأنه لابد وأن يكون ثمة حوارا نشأ بين الصديقين القديمين والفيلسوفين ... بطلميوس الأول رأس الأسرة البطلمية ومؤسسها فى الإسكندرية وديمتريوس الفاليرى حاكم أثينا، الذى جاء إلى مصر لاجئا بعد انقلاب دبر للاستيلاء على السلطة، حول هذا المشروع الثقافى ترتب عليه أن يعهد بطلميوس الأول بحلمه إلى ديمتريوس ألفاليرى الذى يثق فيه ؟ إن الكتابات التاريخية التى بين أيدينا لم تزودنا بمثل هذا الحوار الذى ربما نشأ فى وقت ما فى التاريخ القديم بين بطلميوس الأول وديمتريوس. لكن العقل الفلسفى يمكن أن يتصوره فى إطار العلاقة بين المفكرين، خاصة وأن بطلميوس الأول يعد مفكرا وفيلسوفا قبل أن يكون حاكما وملكا . ربما أمكن لنا أن نصور قدر الطاقة ما عساه لم يسجل من حوار بين الرجلين فى أمسية التقيا فيها داخل القصر الملكى .

فى مشهد رائع فى حديقة قصر الملك بطلميوس بن لاجوس المطلة على البحر الهادىء الذى تنساب مياهه بهدوء فى أمسية صيفية ،

يدور الحوار بين الملك بطلميوس بن لاجوس وصديقه القديم الفيلسوف والحكيم ديمتريوس الفاليرى.

بطلميوس : ها قد التقينا مرة أخرى ياصديقى العزيز بعد غيبة طويلة.

ديمتريوس : أجل يامولاى ، وأنا أشكرك على كرمك وعطفك الذى شملتنى به بعد أن جئت إليك لاجئا ....

بطلميوس : ياعزيزى ديمتريوس لاتسرف إلى هذا الحد . لقد تعلمنا معنى الصداقة والوفاء فى مدرسة معلمنا الأكبر أرسطو وكان ثيوفراسطس بارعا فى تصوير هذا المعنى بدقة . وأنا لا أنسى لك براعتك وحكمتك وقت أن كنا نتحاور فى أروقة المدرسة.

ديمتريوس : أجل .... أجل ... كانت أيام لا تنسى ... لقد مرت وكأنها حلم جميل أفقنا منه ، وليتنا لم نفيق ...

بطلميوس : لازال بوسعنا أيها الصديق أن نعيد هذه الأيام ... أجل ... بوسعنا هذا مادامت تعاليم وأفكار المعلم الأول مازالت فى رؤسنا، نتذكرها فى كل لحظة . تصور يا عزيزى ديمتريوس أكاد أتمثل الآن أستاذى أرسطو وهو يتكلم عن آرائه فى النفس وقواها ... كم كان رائعا فى تصويره للعقل المنفعل والعقل الفعال ...

ديمتريوس : أجل ... أجل ... ولازلت أذكر اعجاب ثيوفراسطس بنظرية استاذنا أرسطو . لكن أروع ما فى هذه النظرية أن أرسطو يقرر بوضوح تام أن العقل قوة صرفة ، وأن الادراك العقلى لا يكون

إلا بافتراض وجود عقل منفعل وعقل فعال وعقل بالفعل ، على اعتبار أن كل ما هو بالقوة يخرج إلى الفعل بتأثير ما هـو بالفعـل . وبهـذه الصورة تميز فكر أرسطو عن الفكر السابق عليه .

بطلميوس : أجل ياصديقى ... ولذا رأى أن كل معرفة عقليـة فإنمـا تستمد من الصور الخيالية المأخوذة عن الحس ، باعتبارها مادة التعقل، وباعتبار أن العقل الفعال يجرد الصور المعقولة من الصـور الخياليـة ويقدمها للعقل المنفعل ليتحد بها ، فيخرج بذلك من القوة إلى الفعـل ، ويصبح عقلا بالفعل . ياعزيزى إن هذه النظرية سوف يكون لها شـأن كبير عند الأجيال القادمة حين يتناولون بالشـرح والدراسـة نظريـة أرسطو هذه .

ديمتريوس : أجل أيها الملك الحكيم ... ولكنى مندهش تماما ...

بطلميوس : وما سبب دهشتك يا صديقى العزيز ؟

ديمتريوس : كنت أتصور أن السنين الطوال التى خضت فيها العديـد من الحروب ، والحملات العسكرية التى قمت بها هنـا وهنـاك، قـد انتزعتك من عالم الفكر والفلسفة ورمت بك فى أحضان ساحات القتال، ولم تترك لك وقتا لممارسة الحوار الفلسفى العقلى . ولكننى أراك الآن أكثر تمسكا بالحكمة من ذى قبل .

بطلميوس : ربما أخذتنى الحروب لبعض الوقـت ياصـديقى ، لكـن حروب الفلسفة وفتوحاتها أهم من حروب السيف . لقد أصبحت أمقـت

الحرب ، وأصبحت أكثر اقتناعا بأن حل مشكلاتنا فى هذا العالم طريقه العقل والرأى والحوار وهـذا هو درس أرسطو العظيم . إننـى أدرك الآن أن أرسطو كان على حق فى حواره مع الإسكندر. لقد كان يريـد أن يكسبه للفلسفة ولكن الإسكندر أراد أن يكسب العـالم لأثينـا . لقـد انشغلنا جميعا بالحروب الخارجية .

ديمتريوس : أحسنت أيها الملك الفيلسوف . ولك أن تجد المثال متحققا فى شخصى . لقد بذلت ما فى وسعى للنهوض بأثينا ، وحاولت أن أقدم الفلسفة والحكمة ، كما عرفناها ، على السياسة . لكن هذا الأمـر جـر على ويلات وويلات ، وانقلب على انتيجـونس ، وهـو مـن أقـرب المقربين إلى ، واستولى على الحكم الـذى لم أكن حريصا عليه يوما من الأيام.

بطلميوس : لا تحزن ياصديقى ...

ديمتريوس : لست حزينا إلى هذا الحد أيها الملك الفيلسـوف . إن مـا يحزننى هو أن معنى الصداقة الـذى كان يـذهب إليه أستاذنا أرسطو قد أفقدته السياسة فى أثينا مضمونه . ولكننى أشكر الآلهـة علـى مـا حبتنى به من نعمة العقل لأننى سوف أعيش حياتى الفلسفية من جديـد فى هذا البلد الجديد إن أذنتم لى ياصديقى .. أعيش حياة فكرية هادئة لا أنازع فيها ساسة ولا ينازعنى سياسـيون . لقـد سـئمت الحـروب ،

وكرهت عالم السياسة الــذى لم يترك لى فرصة تجديد فكر أثينا ..، لم يبقى فى العمر إلا القليل ياعزيزى .

بطلميــوس : معك حق ياصديقى العزيز . ولكن السياسة تحتاج دائمــا إلى الفكر والعقل والحكمة. لقد كنت أفكر منذ وقت قريب مع صــديقنا ستراتون لتأسيس موسيون فى الإسكندرية ...

ديمتريوس : رائع أيها الملك الحكيم ... وهل انتهيتم إلى رأى فى هذا الأمر ؟

بطلميوس : ليس تماما يا صديقى ، ربما كان بوسعنا الآن أن نؤســس حديقة الحيوان ...

ديمتريوس : لكن أيها الملك الحكيم بالامكان أيضــا أن تتوســع فــى الفكرة...

بطلميوس : كيف ياصديقى ومشاغل ستراتون كثيــرة ولا أكــاد أجــد الوقت الكافى لمثل هــذه الأعمال الآن خاصة وأن الدولة فى مرحلــة تأسيس وأنت تعلم أننى أريد أن أرسى دعائم حكم يشهد له التاريخ ؟

ديمتريوس : أليس الأجدر بنا أن نبنى مكتبة تضاهى مكتبــة أســتاذنا أرسطو ، خاصة وانك تؤسس مدينة جديدة ؟

بطلميوس : إنها حقا فكرة رائعة . ولكن قل لــى كيــف ننفــذها؟ ... وجدتها ياصديقى العزيز . أراك ياديمتريوس أجدر من يستطيع القيــام بهذا . كنا جميعا فى أثينا نعرف اهتمامك بالكتب ، وكيف كنــت تشــم

رائحتها من بعيد وكأنها لا تفارقك أبدا ، ولا أنسى أنك عرفـت بيننـا بأنك الأثينى عاشق الكتب .

ديمتريوس : إنه لشرف كبير لى أيها الملك الحكيم أن أقوم بهذه المهمة الجليلة اكراما لك ولصداقتك .

بطلميوس : ويسعدنى أن تكون أنت يا ديمتريـوس مـن ينفـذ هـذا المشروع الـذى اعتبره حلم حياتى.

ديمتريوس : ولكنه مشروع يحتاج إلى أموال طائلـة لشـراء الكتـب والمكتبات من كل مكان ....

بطلميوس : كل ما تحتاجه ياصديقى ...كل ما تحتاجه ... سأوفر لـك كل الأموال اللازمة على أن تجعل هذه المكتبة بالقرب منى ، هنا فى القصر ، أو قريبا منه .

ديمتريوس : ليس هذا بالأمر العسير علينا أيها الملك . ولكنى سـوف احتاج بعض الأعوان الذين يساعدون فى هذا العمل ....

بطلميوس : لك كل ماتشاء يا صديقى العزيز . ولكن احرص على أن نلتقى بصفة مستمرة فى عطلة نهاية الأسبوع لنتابع معا كل ما تتوصل إليه من آراء.

ديمتريوس : أجل أيها الملك ، وإنى استئذنك فى الإنصراف الآن فقـد أطلت عليك اليوم، ولكنى أراك فى قمة السعادة .

بطلميـوس : أجل ... أجل ... آه ياصديقى لو استطعنا أن نحقق هـذا الحلم سيصبح مشروع العمر وسيخلد اسمنا على مر الأيام. وسـوف لاتخلو كتب الفلسفة والحضارة فى يوم من الأيام من الحديث عنه حتى بعد آلاف السنيين . حقا ياصديقى هـذا ما أحلم به الآن .

وما أن ينتهى الحديث بين الملـك بطلميـوس الأول وديمتريـوس الفاليرى ، حتى ينطلق هـذا المفكر والفيلسوف يدرس أبعاد الفكرة من جـذورها ويضعها أمامه بكل تفاصيلها . وربما كان من الواجب علينا أن نتعرف عن قرب على التصورات التى كونتها الكتابات التاريخيـة المختلفة عن ديمتريوس الفاليرى ، ومقدمه إلى مصر واتصاله بالملـك بطلميوس (سوتر الأول) صديقه وزميله القديم ؟ كل هذا يسـتحق أن نفرد مكانة خاصة لمؤسس المكتبة الأول .

أقول : كل هذا ينبهنا إلى أن بطلميوس سوتير حين أعطى الضـوء الأخضر للمفكر والفيلسوف ديمتريوس الفاليرى للمضى قدما فى تنفيذ مشروعه إنما كان يتمثل فى خلفيته العقلية – كحاكم وسياسـى محنـك وقائد عسكرى من الطراز الأول – كل تراث اليونـان الـذى أراد أن يفوقه بمراحل ، ليجعل من مصر والإسكندرية واحة ثقافية تحمل أحلام وآمال العالم فى منظومة معرفية فريدة ولبجعل من مصر بلـدا أمنـا مستقرا يغلب عليه الطابع الثقافى والحوار الفكرى . وهـذا بطبيعـة الحال ليس غريبا على بطلميوس الأول فقد عاش هـذا الجو الفكـرى

بكل جوانبه فى أثينا ، وفهم من أستاذه أرسطو أن وظيفـــة المفكـــر أن ينشد عالما آمنا مستقرا تتحقق فيه السعادة . ومن هنـــا اكتســـب هـــذا الحاكم شهرة واسعة حينما أقدم على هـــذا المشروع الثقافى الكبير فى العالم القديم . كما ينبهنا هذا من ناحيـــة أخـــرى إلـــى أن ديمتريـــوس الفاليرى كان ينظر إلى مستقبل الإنسانية جمعاء ، وكيف يمكن للمكتبة أن تشكل الروح الجديد للفكر فى عالم جديد . وكيف يمكن للمكتبـــة أن تكون الملتقى الثقافى الرائد الـــذى تنطلق منه الآراء والأفكر الكبـــرى التى تحدث التغييـــر الثقـــافى الفاعـــل . فكأنهمـــا (بطلميـــوس الأول/ ديمتريوس الفاليرى) معا يمثلان الروح الجديد الذى يمكـــن أن تمثلـــه وتعبر عنه مكتبة الإسكندرية .

أضف إلى هـــذا أن الأسس الفكرية للمكتبة القديمـــة لابـــد وأنهـــا انطلقت من أسس فلسفية ، وهو ما يمكـــن أن نســـتنتجه مـــن وجـــود ديمتريوس الفاليرى على قمة الهرم فى المكتبة ، ولابد أن يكون هـــذا قد انعكس أيضا على خطة العمل داخل المكتبة ، وهى مسألة لابد وأن تأخـــذ فى الاعتبار عند تقييم هـــذا العمل الثقافى الضخم الـــذى شهدته المكتبة القديمة .

وما يجب علينا أن ندركه فى هـــذا الاطار أن المكتبة القديمة لعبت دورا مهما فى التنشيط الفكرى والثقافى الـــــذى شـــهدته الإســـكندرية لقرون عديدة ، وأن هـــذا الدور لم يقتصر على النخبـــة المثقفـــة فـــى

الداخل، وإنما امتد ليشمل العلماء الــذين وفدوا إلى الإســكندرية مــن بلدان العالم القديم فى تواصل علمى وفكرى رائع شكل الروح الجديــد فى الإسكندرية بما جعلها روح الشرق القديم ، فهــل تنطلــق مكتبــة الإسكندرية الجديدة لتعبر عن هــذه الروح؟ هــذا ما نتطلع إليه .



ديمتريوس الفاليرى المؤسس الأول لمكتبة الإسكندرية

إن الحديث عن مكتبة الإسكندرية ممتد ويأخـذنا إلى ضرورة التعـرف على أول شخصية فى مكتبة الإسكندرية وهو ديمتريوس الفاليرى الذى حمل على كاهله عبء تأسيس المكتبة منذ كانت فكرة وتصورا بالقوة، إلـى أن صارت كيانا بالفعل، على ما يقول الفلاسفة. من هو ديمتريوس الفاليرى ؟ وما الصورة التى رسمتها الكتابات المختلفة لهذا الرجل الفيلسوف العبقـرى الذى برهن أن الفلسفة ليست مجرد كلمات وأقوال، وإنما الفلسفة قادرة على أن ترسم خطى مشروع ثقافى عقلانى يؤثر فى تاريخ وحياة البشرية بأسرها عبر مسيرة الإنسان على هذه الأرض؟ أترى وصلنا حديث الفـاليرى مـن القديم عبر صفحات الكتب ؟ لقد بدأت نهضة الشرق من جديد ولن يوقفهـا أى عائق.

يذكر مؤرخ العلم جورج سارتون[1] أن مكتبة الإسـكندرية هـى أشـهر المكتبات فى العالم القديم ، لكنها بطبيعة الحال ليست المكتبـة الوحيـدة ، وليست أقدم المكتبات جميعا ، لكنها بدون شك كانـت أكبـر المكتبـات ، وطبقت شهرتها الآفاق ، وبذتها جميعا ، وهى أفخم مكتبات العالم اليونـانى فى الأزمنة القديمة . وفى هذا الصدد يؤكد جورج سارتون أن أثينا شـهدت وجود مكتبات أخرى، كما وجدت مكتبات فى إنطاكيـة وبرجامـة ورودس وأزمير وكوس وغيرها من المناطق الآخرى المجاورة. ومع كل هذا ظلت

[1] جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج4 ، ترجمة د. إبراهيم بيومى مدكور وأخرين ، دار المعارف ، مصر ، 1970 ، ص ص 257-258

مكتبة الإسكندرية أكثر هذه المكتبات جميعا شهرة ، ونعلم عنها أكثر مما نعرفه عن أية مكتبة أخرى فى العالم القديم.

والواقع أنه قبل أن تتأسس الإسكندرية كمدينة يونانية الطابع ، عالمية الثقافة ، كانت المكتبات قد انتشرت فى مصر الفرعونية ، وبطبيعة الحال اتصل بانتشار المكتبات فى مصر القديمة كل ما من شأنه أن يساعد على ازدهارها مثل صناعة ورق البردى التى حظيت بشأن كبير واقترنت بعالم المكتبات . وربما وجدنا أدلة متعددة على أن برديات أدوين سميث ، وايبرس، وغيرها أقدم حتى من تأسيس مكتبة الإسكندرية .

وتذكر الدراسات التاريخية بعض المكتبات التى وجدت فى الشرق قديما[1] مثل مكتبة اوجاريت التى تقع على الساحل السورى ، التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد التى أمكن العثور بها على عدة آلاف من اللوحات المكتوبة التى تحتوى على كثير من النصوص الدينية والعقائد التى تكشف عن عقائد الفينيقيين حوإلى منتصف الألف الثانى الميلادى . ومن جانب آخر فإن أقدم المكتبات الغربية التى نعرفها هى مكتبة أثينا التى أسست فى عهد بيزستراتوس فى القرن السادس قبل الميلاد . وبعد ذلك بقرنين ، أى فى القرن الرابع قبل الميلاد نلتقى بمكتبتى أفلاطون وأرسطو فى اللوقيوم .

[1] مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 7 وما بعدها

أما تاريخ نشأة مكتبة الإسكندرية تحديدا فيرجع إلى القرن الثالــث قبــل الميلاد ، وعلى وجه التحديد أيام بطلميوس الأول (سوتر)[1] الــذى يعــرف بلقب المخلص[2]، الذى خلف الإسكندر الأكبر كحاكم لمصر وليس صــحيحا ما يذكره بعض من لايعرفون هذه الفترة التاريخية بصورة صحيحة من أن تأسيس المكتبة كان فى عهد بطلميوس فلادلفيوس . كان بطلميوس الأول (سوتر) حاكما مستنيرا . ولم لا وهو رفيق درب الإسكندر الأكبر وقد نهل علمه من مدرسة ارسطو . كما كان مثالا للعقل والحكمة ، فقد استطاع منذ أن استقل بحكم مصر أن يضع الأسس الراسخة لحكم البطالمة الذى اقترب من ثلاثة قرون متواصلة ازدهرت خلالها الحياة فى ربوع مصر ، وبصفة خاصة الجانب الثقافى والفكرى . ومن بين أهم الأحداث التى وقعت أثنــاء حكم بطلميوس الأول ذلك الحدث المشهود والذي تمثل فى تأسيس وإنشــاء مكتبة الإسكندرية . ولما كان هذا الملك متفرغا لأمور السياسة والحكم فقــد

---

[1] يذكر العالم الأثرى الأستاذ سليم حسن " أن كلمة سوتر الاغريقية قد ترجمت بطريقتين مختلفتين فى المتن الديموطيقى على حسب المكان الذى ألف فيه المتن ، ففى متن الوجه البحرى ترجم لنعت هكذا : (الذى يطرد الشر) ، وعلى حسب متن الوجه القبلى ترجم (الذى يصد) أى العدو " . راجع فى ذلك: سليم حسن ، مصر القديمة ، ج 14 ، ص 297

[2] الواقع أن ملوك البطالمة اطلقت عليهم بعض الألقاب المهمة التى عرفوا بها تاريخيا التى يمكن أن نتبينها على النحو التالى:

بطلميوس الأول (المخلص) ، بطلميوس الثانى (المحب لأخيه) ، بطلميوس الثالث (المصلح) ، بطلميوس الرابع (المحب لأبيه) ، بطلميوس الخامس (المتجلى) ، بطلميوس السادس (المحب لأمه)، بطلميوس الثامن (المصلح الثانى) ، بطلميوس التاسع (المخلص) ،بطلميوس العاشر (الإسكندر) ، بطلميوس الحادى عشر (الإسكندر الثانى)، بطلميوس الثانى عشر (الزمار) . هل هناك علاقة إذن بين هذه الألقاب وتلك التى اطلقت على الخلفاء العباسيين مثل الواثق بالله ، والمتوكل على الله ، .... هل انتقلت التقاليد البطلمية إلى الخلفاء العباسيين . إن هذه النقطة تستحق دراسة تحليلية مقارنة .

استعان بمن يستطيع أن ينجز هذه المهمة على خير وجه ، ويعـرف عنـه القدرة على تنفيذها ودفعها إلى الأمام ويوثق فى رأيه. ومن ثم كانت المهمة من نصيب ديمتريوس الفاليرى . فمن هذه الشخصية ؟ وكيـف تصـورها الكتابات المختلفة؟

يكاد ينعقد إجماع الكتاب ، على اختلاف نزعاتهم وتوجهاتهم الفكريـة، على أن ديمتريوس الفاليرى يعد المؤسس الحقيقـى لمكتبـة الإسـكندرية القديمة، إذ يذكر نجيب بلدى " أن بطلميوس الأول كلف بالإشراف العلمـى على (المتحف) ديمتريوس الفاليرونى Demetrius de Phalere الذى كان مقيما بأثينا وتلميذا لثيوفراسطوس خليفة أرسطو فى رياسة المدرسة . وكان ديمتريوس قبل مجيئه إلى الإسكندرية من كبار الساسة بأثينا ، اضطر إلـى تركها لمهاجمة خصومه السياسيين له ، والتجأ إلى الإسكندرية عند صديقه القديم بطلميوس. فعهد إليه هذا بالإشراف على المتحف" [1] . يشير هذا النص إلى أن ديمتريوس الفاليرى كان سياسيا فى أثينا ، وكان تلميذا لثيوفراسطس خليفة أرسطو . وأنه جاء إلى مصر لاجئا سياسيا نظرا للاضطرابات التى حدثت فى أثينا وقتئذ . لكن الإشارة الأخيرة التى يقدمها هذا النص تفيد أنه أشرف على المتحف فحسب، ولا تفيد أنه مؤسس المكتبة ، وهذه نقطة مهمة لابد وأن تسترعى انتباهنا ونتوقف عندها لأهميتها فى التحليل البنائى للنص.

ومن جانب آخر نجد هناك آراء أخرى تؤكد مشاركة الفاليرى فى تأسيس المكتبة ، ومن بين هذه الآراء ما يذهب إليه العالم والفيلسـوف السـكندرى

[1] د.نجيب بلدى ، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ، ص 38

المعاصر الدكتور محمد على أبوريان فـى رأيـه القائـل إن "ديمتريـوس الفاليرونى تلميذ ثيوفراسطس وكان فيلسوفا شعبيا ، ترأس حكومـة أثينـا ويقال إنه كان من بين المجندين لإنشاء مكتبة الإسكندرية وتنظيم الدراسات العلمية فيها "[1]، وهذا يعنى خلافا لما ذهب إليه نجيب بلدى ، أن الفـاليرى عهد إليه بتأسيس المكتبة والإشراف على الدراسات العلمية بهـا ، وهـى مسألة يتطلبها العمل فى أى مكتبة من طراز مكتبة الإسكندرية العريقة.

إلا أن بعض الكتاب الآخرين مثل فورستر على سبيل المثال يؤكـد لنـا وهو بصدد الحديث عن المتحف الذى يعتبره جامعة الإسكندرية، أن الـذى أسسه هو "بطلميوس سوتر الذى استدعى ديمتريوس فاليروس تلميذ أرسطو وأمره أن يقيم معهداً على نسق المتحف الأثينى ، مؤسسة فلسـفية تحتـوى على مكتبة أرسطو " [2] وهذا الرأى يعنى أن ديمتريوس الفاليرى كان يعيش فى أثينا وأنه كان تلميذا لأرسطو ! وأن قدومه إلى مصر كان بنـاء علـى طلب بطلميوس الأول ، لأنه صديق قديم له ، وقد جاء لتأسيس المكتبة .

لكن هذا الرأى الأخير تقابله بينات تاريخية أخرى تقلل مـن أهميتـه، إذ تذكر بعض الكتابات الآخرى أن بطلميوس الأول عندما بدأ فكرة التخطـيط لمكتبة الإسكندرية فى عام 285 ق .م " كان حريصا طيلة مدة حكمه علـى استقدام أعداد كبيرة من الإغريق ليعتمد عليهم فى إقامة دولة جديدة ومـن بين الشخصيات التى وفدت عليه أو لجأ إليه ديمتريوس الفـاليرى الأثينـى

---

[1] د.محمد على أبوريان ، تاريخ الفكر الفلسفى : أرسطو والمدارس المتأخرة ، ص 245

[2] أ.م . فورستر ، الإسكندرية : تاريخ ودليل ، ص 61

وهو من الشخصيات الفذة التى اشتغلت بالفلسفة والسياسة معا ، فقد أخذ الفلسفة عن أرسطو نفسه ، وله مؤلفات فلسفية وأدبية ، وكان قبل ذلك حاكما لأثينا وعندما سقطت أثينا فى يد القائد ديمتريوس انتيجونس اضطر ديمتريوس الفاليرى إلى الفرار واللجوء إلى مصر عام 295 ق . م حيث أكرمه بطلميوس الأول . وقد أعجب ديمتريوس الفاليرى حرص بطلميوس الأول على أن تصبح الإسكندرية مركزا للثقافة والعلم فى العالم القديم فأشار عليه إنشاء مجمع علمى تلحق به مكتبة كبيرة ، وسمى هذا المجمع الموسيون ، وهى كلمة يونانية تعنى معبد ربات الفنون والعلوم .... رحب بطلميوس بهذه الفكرة وشرع فى تنفيذها وعين ديمتريوس الفاليرى مشرفا ورئيسا للموسيون وسخر له من المال ما شاء من أجل شراء الكتب وجذب العلماء إلى الإسكندرية "[1]

إن هذا النص يشير إلى عدة أمور مهمة يجب أن نضعها فى اعتبارنا ونحن بصدد تأسيس تحليلاتنا ، وهذه الأمور هى :

1- أن ديمتريوس الفاليرى جاء إلى مصر لاجئا سياسيا ، وفارا من ديمتريوس أنتيجونس عام 295 ق . م
2- أنه كانت هناك صلات قديمة بين ديمتريوس الفاليرى وبطلميوس الأول .
3- أن فكرة تأسيس المكتبة ترجع فى الأصل إلى ديمتريوس الفاليرى وهو الذى اقترحها على بطلميوس الأول .

---
[1] د.سعيد اسماعيل صالح ، حضارة الإسكندرية ، ص 113

لكن النص يطرح علينا أيضا بعض السلبيات والأخطاء التى غالبا ما يقع فيها المؤرخون أنفسهم رغم شدة حرصهم على تتبع الأحـداث التاريخيـة. ومن بين السلبيات التى وقعت فى النص السابق تأكيد صـاحب الـنص أن ديمتريوس الفاليرى " أخذ الفلسفة عن أرسطو نفسه"، وهى مقولة عارية من الصحة تماما إذ من المعروف أن أرسطو ولد عام 384 ق. م وتوفى عـام 322 ق . م حسب تأكيد الكتابات التاريخية المختلفة[1]. أما إذا رجعنـا إلـى البينات التى يطرحها علينا النص فنجد أنها تتكامل مع بعض الآراء الآخرى التى يذهب إليها بعض الدارسين.

ويتفق الدكتور شعبان خليفة مع الآراء التى تذكر أن ديمتريوس الفاليرى لجأ إلى مصر ، إذ يؤكد أن بطلميوس الأول هو الذى جمع "حوله العلمـاء والأدباء والفلاسفة من كل حدب وصوب، وكان من أهمهم على الإطـلاق ديمتريوس الفاليرى الذى وصل الإسكندرية من أثينا كلاجئ سياسى "[2]. لكن المشكلة الأساسية فيما يذكره الدكتور شعبان خليفة أنه إذا كان ديمتريـوس الفاليرى قد لاذ بالفرار من أثينا بعد أن أطاح به ديمتريـوس انتيجـونس ، فلابد أن يكون فراره بلا ترتيب ، وبلا متاع ، وهو ما يقرر خلافه شـعبان خليفة إذ يقول فى نص تال " وعلى الرغم من بعض الآراء التى ذكرت أن الهدف من إنشاء المكتبة كان جمع الإنتاج الفكرى اليونانى فقط فـإن تلـك الآراء تدحضها آراء أخرى تقول بأن الإنتاج الفكرى جمع مـن المكتبـات

[1] د.محمد على أبوريان ، تاريخ الفكر الفلسفى:أ رسطو والمدارس المتأخرة ، ص 11
[2] د.شعبان عبد العزيز خليفة ، الكتب والمكتبات فى العصور القديمة ، ص 284

المصرية القديمة ، سواء من مكتبات المعابد أو الأكاديميــات والمــدارس ، وحتى المكتبات الخاصة يضاف إلى ذلك ما أمكن جمعـــه مـــن المكتبــات اليونانية ، وخاصة مكتبة أرسطو التى يقال "أن ديمتريوس نفسه قد نقلها من أثينا إلى الإسكندرية"[1] . إن هذه العبارة الأخيرة لا تفسر لنا كيفية نقل مكتبة أرسطو من أثينا إلى الإسكندرية بواسطة الفاليرى عند فراره ، خاصة وأن هذا النص يتكامل كما سبق أن أشرت مع النص السابق مباشرة . وربما كان من الممكن أن نقرر أيضا أن هناك عقبة أخرى تتمثل فى أن مكتبة أرسطو لم تكن مكتبة صغيرة يسهل على من يلوذ بالفرار أن يحملها معه ، وهو ما يمكن أن نلمسه فى تقرير جورج سارتون الذى يوضح فيه أن مكتبة أرسطو كانت مكتبة ضخمة وذلك فى قوله "ونستطيع أن نقول بأن مكتبات خاصـــة وعامة كانت فى العالم المتكلم باللغة اليونانية- فكان لأرسطو مكتبة كبيرة"[2]. ومن ثم فإن المكتبة الكبيرة بهذا المفهوم ليست مما يمكن حمله أثناء تــدبير عملية فرار من البلاد يخشى من فشلها فى ظل انقلاب أطاح بالسلطة.

لكننا نلتقى هنا برأى مهم يقدمه جورج سارتون الذى يذكر فــى تعليقــه على نص سترابون الذى دونه فى كتاب الجغرافيا " وإذا نحن اعتمدنا على ما ذكره سترابــون ، كان أرسطو نفسه هو الذى وضـــع أســـاس ترتيـــب المكتبة الملكية فى الإسكندرية "[3]. لم يذكر سارتون بعد هــذه الفقــرة أيـــة تعليق علـــى رأى سترابــون، ولكـــننا وجدناه فـــى حاشـــية يقــدمها لـــنا

---

[1] المرجع السابق ، ص 284
[2] جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 258
[3] المرجع السابق ، ص 258

(1) يذكر معلقا دون تفصيل " انظر جغرافية ستـرابون ج 13 فصـل 1 ص 54 ، وهذه الإشارة إلى أرسطو بعيدة عن الإمكان ؛ فإن أرسـطو مات فى 321/322 ق.م ، مع العلم بأنه صاحب فضل غيـر مباشـر على أمناء المكتبات"[1] . ومعنى هذا أن جورج سارتون يشير من طرف بعيد إلى عدم دقة سترابون كمؤرخ فـى أحكامـه التاريخيـة . ومـن المعروف أن سترابون، رغم المدة التى قضاها فى مصر ،لـم يـذكر مكتبة الإسكندرية ؛ وهذا يعنى أن سارتون ربما أراد بصورة سلبية أن يشكك فى حكم سترابون. ولسنا ندرى أيضا ما الذى جعـل سـترابون يذكر أن أرسطو " هو الذى وضع أساس ترتيب المكتبة الملكيـة فـى الإسكندرية " ،رغم أن أرسطو كان معاصراً للإسكندر الأكبر، ولم تكن المكتبة قد أسست فى عهد الإسكندر ، وإنما جاءت فكرة تأسيس المكتبة فى عهد بطلميوس الأول . ولا ندرى هل كان جورج سارتون يريد أن يلتمس العذر لرأى سترابون عندما ذكر فـى الحاشـية أن أرسـطو " صاحب فضل غير مباشر على أمناء المكتبات"؟ أم أن المسألة ترجـع إلي فكرة أرسطو عن تصنيف العلوم ؟ أضف إلى هـذا أن كـل هـذه الآراء تصطدم مع موقف أرسطو ذاته من فتوحات الإسـكندر الأكبـر وضمه شعوبا عديدة إلى الهوية اليونانية ليؤسس إمبراطورية متراميـة الأطراف ، ذلك أننا " نجـد أرسـطو فـى رسـالة (الإسـكندر أو

---

[1] المرجع السابق ، ص 283

الاستعمار) يحذر تلميذه من النتائج السيئة التى تـنجم عـن معاملتـه للمتبربرين على قدم المساواة مع اليونانيين "[1]ومن ثـم تكـون نظـرة أرسطو عنصرية فى جوهرها. لا شك إذن أن المسألة متعددة الجوانب.

لكن الدكتور إبراهيم نصحى الذى أفاض فى وصـف وتفصـيلات عصر البطالمة ، يرى عكس ذلك مؤكداً أنه قد " وفد إلى الإسـكندرية بعض الفلاسفة، كان أغلبهم من المشائين مثل ديمتريوس الفاليرى فـى عهد بطلميوس الأول"[2]، وهذا يعنى أن ديمتريوس الفاليرى لم يأت إلى مصر فارا ولاجئا سياسيا ، وإنما وفد هو وغيـره نتيجـة للاسـتقرار السياسى وللرخاء والازدهار الذى شهدته مصر فى عصر البطالمـة . وفى هذا الصدد يذهب الدكتور حسين الشيخ إلى أن الجامعة " أقيمـت فى نهاية عهد بطلميوس الأول وبداية فترة حكم بطلميـوس الثـانى . وكان مؤسسها (ديمتريوس الفاليرى) الأثينى الأصل "[3]. وهو فى هـذا الصدد يؤكد فكرتنا عن الازدهار الذى نعمت به مصر ، حيث "شهدت الفترة الأولى من العصر السكندرى حدثا ثقافيا هاما هو دعـوة الملـك بطلميوس الأول (سوتر) للفيلسوف والسياسـى الأثينـى ديمتريـوس

---

[1] د. محمد على أبو ريان ، أرسطو ، ص 13

[2] د. ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 2 ، ص 800

[3] د.حسين الشيخ ، مصر تحت حكم اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1997 ، ص 140

الفاليرى وما استتبع ذلك من تأسيس للموسيون "[1]. فكأن الفاليرى لم يفد إلى مصر لاجئا سياسيا وفارا من بلاده ، وإنما وفد تلبية لدعوة من صديقه القديم بطلميوس الأول.

إلا أن هذه الآراء سرعان ما تصطدم برأيين آخرين أولهما رأى جورج سارتون ، وثانيهما رأى وليام ثورب تارن . لنقترب من الرأيين لنرى بقية الحلقات ولنقف على أبعاد أكثر حول فكرة مؤرخى العلم والحضارات عن شخصية ديمتريوس الفاليرى .

أما جورج سارتون فيبدو أنه يشك فى مسألة قدوم ديمتريوس الفاليرى إلى مصر فاراً ولاجئا سياسيا ، وهو حين يضع أمامنا هذا الشك إنما يأتى رأيه بناءً على ما توافر لديه من وثائق وأدلة تاريخية، والمعروف أنه كان لا يألوا جهدا فى الحصول على الوثائق كلما أمكن ذلك لحسم قضية من القضايا . يقول سارتون " جمع ديمتريوس الفاليرى اليونانى نواة مكتبة الإسكندرية وهو فى بلاد اليونان ، ويمكن أن يطلق عليه مؤسس فكرة المكتبة ، ولو أن هذا الشرف أو أكثر منه ينبغى عدلا أن ينسب إلى الملكين الأول والثانى من البطالمة، إذ كان بطلميوس الأول (سوتر) هو الذى أمر بتأسيس المكتبة وتنظيمها على نفقته ، ثم أكمل ذلك خلفه بطلميوس الثانى (فلادلفوس) . ومن ثم

---

[1] المرجع السابق ، ص 152

ينبغى أن نقول إن مكتبة الإسكندرية أسسها سوتر وفلادلفوس وديمتريوس "[1].

إن هذا النص يشير ضمنا إلى ديمتريوس الفاليرى الفيلسوف ، وليس السياسى ،ولكن هذا لايعنى أن الفاليرى "ربما كان خطيبا أثينيا[2] لأن فلوطرخس يقرر أن المتعلمين أمثال دمتريوس الفاليرى كانوا يعتبرون الخطابة عملا حقيرا مهينا لا يتفق مع الرجولة الحقة[3]. ويستبعد النص فكرة قدومه لاجئا سياسيا إلى الإسكندرية ؛ بل يؤكد نص سارتون أن بطلميوس الأول هو الذى استقدم ديمتريوس الفاليرى، وهو الذى طلب إليه أن يأتى بأعظم مكتبة فى عصره وهى مكتبة أرسطو الذى يعد " أول من أسس مكتبة خاصة على أى معيار من المعايير "[4]، لأن بطلميوس الأول كان يزوده بالموارد المالية اللازمة لذلك . وفى هذه الحالة تصبح فكرة الدكتور شعبان خليفة التى يؤكد بموجبها أن ديمتريوس الفاليرى نقل مكتبة أرسطو من أثينا إلى الإسكندرية صحيحة فى هذا الجانب ؛ ويستبعد منها فكرة قدومه لاجئا سياسيا إلى مصر لعدم اتساقها منطقيا مع النتيجة الأخيرة .

---

[1] جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 259

[2] د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني ، دار المعارف ، مصر ، 1961 ، ج 1 ، ص 27

[3] ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، 8/7 ، ص 420

[4] السير وليام ثورب تارن ، الحضارة الهلينستية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة د. زكى على ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1966 ، ص 282

كان من الطبيعي أن يناقش الدكتور محمد علـــي أبوريـــان متتبعـــا تاريخيا مصير مكتبة أرسطو من بعده ، خاصة في كتابه عن أرســـطو الذي يعد من أهم الكتابات الفلسفية التي دونت في مدرسة الإســـكندرية المعاصرة عن هذا الفيلسوف . يذكر الدكتور أبوريـــان أن ســـترابون أورد القصة الكاملة لمصير مكتبة أرسطو وما آلت إليه من بعده ويشير في هذا الصدد أن أرسطو حين غادر أثينا سنة 322 ق.م أودع أوراقه عند ثيوفراسطس وأوصى بألا تسلم للمدرســـة فســـلمها ثيوفراســـطس لشخص يدعى نيليوس وهو ابن كورسيكوس السقراطي، وكان أرسطو وثيوفراسطس قد تعرفا عليه في أثينا ســـنة 348 ق.م ، وبعـــد وفـــاة نيليوس باع ورثته قسما من هذه المؤلفات لبطلميـــوس الـــذي أودعهـــا مكتبة الإسكندرية [1] لكن لم يذكر لنا الدكتور أبوريان ما إذا كـــان مـــا تسلمه بطلميوس من مؤلفات أرسطو كـــان عـــن طريـــق ديمتريـــوس الفاليري أم لا. لكنه يشير إلى أن القســـم الثـــاني مـــن المخطوطـــات الأرسطية التعليمية أخفاه ورثة نيليوس في كهف وتعرضـــت للـــتعفن والبلى ، واشتراها فيما بعد أحد أثرياء أثينا وهـــو بليكـــون ، وعنـــدما احتلت جيوش روما مدينة أثينا سنة 83 ق.م نقل سولا مجموعة بليكون إلى روما . وفي سنة 55 ق . م باع ابنه فوسطوس هـــذه المجموعـــة

---

[1] د محمد علي أبوريان ، المرجع السابق ، ص20

الثانية من الكتب سدادا لديونه. ثم تابع الدكتور أبوريان قصة نشر هذه المؤلفات .

أما الرأى الثانى الذى يعارض رأى جورج سارتون فيمثلـه وليـام ثورب تارن الذى يشكك فى وجود شخصية الفـاليرى ذاتهـا وصـلته بمؤسس المكتبة ، حيث يقول " وفضلا عن المكتبة أسـس بطلميـوس الأول الأكاديمية بالإسكندرية. وسواء أكان ديمتريوس الفـاليرى هـو الذى أعطاه الفكرة أم لم يكن ، فلقد كان إنشاؤهما متمشيا مـع الـروح التى أوجدها أرسطو"[1]. ومتفقا مع الروح التى سـادت مـع فتوحـات الإسكندر الأكبر التى ظهرت فى "التـزاوج بـين الثقافـات اليونانيـة والحضارات الشرقية وتمثلت أبرز صور هذا التـزاوج فـى مصـر وخاصة الإسكندرية التى أنشأها الإسكندر فـى 332 ق . م لتصـبح مركزا ثقافيا وحضاريا جديداً فى العالم اليونانى[2].

لقد نوقشت مكانة ديمتريوس الفاليرى من أكثر من جانب ، وتوجـد العديد من بينات جديدة ، فإلى جانب كون ديمتريوس الفاليرى مشـائيا صميما ، فقد حكم أثينا لمدة عشر سنوات حتى أطيح به عام 307 ق.م. والنقطة المهمة فى هذا الصدد أن ديمتريوس الفاليرى لم يكن سياسـيا

---

[1] المرجع السابق ، ص 282

[2] د. حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ حضارة اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية ، 1987

بارعا فحسب ، وإنما كان كاتبا موهوبا فى الوقت نفسه . وهنا تجــدر الاشارة إلى أن ديوجينس لائرثى قد ذكــر قائمـــة بأعمالـــه . ونظـــرا لصلاته القوية بالملك بطلميوس الأول سوتر ، وخبراته الواسعة " فإنـــه ليس هناك شك فى أن ديمتريوس الفاليرى هو الذى اقترح على ســـوتر فكرة إنشاء مركز أبحاث عظيم فى الإسكندرية عرف باســـم المتحــف ملحق به مكتبة عالمية"[1].والـــذى لاشك فيه أن مثل هذا الــرأى كـــان موضع تقدير من جانب بطلميوس الأول (ســـوتر)، وقــد التقـــى هـــذا الاقتراح مع رغبة سوتر فى أن يجعل من الإســـكندرية ، لـــيس فقــط مملكة قوية ، وإنما مركزاً للثقافة والحضارة .

ولكن هـــذه النقطة تثير العديد من التساؤلات المهمة التى تهمنا مـــن الناحية المعرفية والتاريخية البحتة ، إذ من الطبيعى أن نتساءل : أيهما وجد أولا ، المتحف أم المكتبة ؟ وإذا كانت المكتبة قد وجدت أولا فمـــا هو الدور الـــذى لعبه ستراتون بالنسبة لتأسيس المتحف؟

إننا نعلم أن سارتون الـــذى يتبنى الرأى القائل بأن ستراتون قدم إلى مصر والتقى بطلميوس الأول (سوتر) قبل مجيء دمتريوس الفـــاليرى يدعم بشدة أن المتحف وجد أولا ، ثم جاءت فكرة المكتبة.وربما كـــان

---

[1] El - Abbadi , M., The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, p.81

من الواضح أن الفاليرى جاء إلى مصر فى تاريخ لاحق على تأسيس المتحف ، وهو ما نميل إليه أيضا فى النظر إلى سياق الأحداث .

وفى هذا الإطار أيضا لابد وأن نبين أن نجاح سياسة البطالمة فى مصر لفترة طويلة إنما جاء نتيجة طبيعية لنجاحهم فى لفت أنظار العالم لمصر كعاصمة ثقافية. وقد ساعد هذا الوضع بصورة مباشرة على الدعاية السياسية للبطالمة انطلاقا من النشاط الثقافى وسمعته العالمية بين الدول، وهو ما جعل مؤرخا مثل اميانوس ماركلينوس يؤكد لنا "أن خير تزكية كان فى إمكان أى طبيب أن يحصل عليها هى أن يقال عنه إنه اتم دراسته فى جامعة الإسكندرية".[1]وهذا ما جعل البطالمة وهم بصدد الدعاية السياسية لنظامهم أن يعتمدوا على الثقافة والنشاط الفكرى للصفوة المثقفة ، على اعتبار أنها تحتل مكانة أدبية مرموقة على الصعيد العالمى.

ومن جانب أخر فإن الدكتور العبادى يستبعد فكرة التعاون بين ديمتريوس الفاليرى وبطلميوس فلادلفيوس، إذ العلاقات بينهما لم تكن جيدة ومن المعروف أنه بعد وفاة بطلميوس سوتر فإن فلادلفيوس سرعان ما قبض على ديمتريوس ونفاه إلى الدلتا حيث مات هناك[2] . ويتفق هذا الرأى مع ما سبق أن ذكره الدكتور ابراهيم نصحى الذى

---

[1] لطفى عبدالوهاب ،دراسات فى العصر الهلينستى ، دار المعرفة الجامعية ، ص 189

[2] Ibid, p. 82

يؤكد أنه "إذا كانت المراجع القديمة تختلف فيما بينها على مؤسس مكتبة الإسكندرية ودار العلم فيها، إذ منها من يعتبر ذلك المؤسس بطليموس الأول، ومنها من يعتبره بطليموس الثانى، فإن صلة ديمتريوس الفاليرى بمنشأ هاتين المؤسستين تؤيد الرأي الأول لأنه فقد مكانته فى القصر البطليمى على عهد بطليموس الثانى"[1].وبناء على هذا لم يكن ديمتريوس الفاليرى قائما على أمر المكتبة زمن بطلميوس فلادلفيوس ، وتصبح الأراء التى تقرر أن ديمتريوس الفاليرى أسس المكتبة زمن فلادلفيوس لا تشكل بينة ايجابية فى إطار معرفتنا بتاريخ تأسيس المكتبة.

لكن إذا كانت فكرة تأسيس المكتبة فى حد ذاتها قد دارت برأس ديمتريوس الفاليرى وراودته، على ما يذكر الدكتور لطفى عبدالوهاب[2]، وإذا كان بطليموس الأول قد اقتبس الفكرة من أرسطو، ووضع نواة المكتبة الكبرى فى الحى الملكى بما جمعه من الكتب وهى على ما يذكر يوسيفوس بلغت مائتى ألف كتاب[3] ، فإن بطليموس الثانى هو الذى نظمها وأعطاها صورتها الحقيقية وانشأ كذلك فيما يبدو المكتبة الصغرى التى كانت تكون جزءاً من معبد السرابيوم، على ما يقول

---

[1] إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر ج 2 ، 1946، ص 800

[2] د. لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص 188

[3] سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، ج 14 ، ص 251

الدكتور إبراهيم نصحى[1]. وهذا هو مغزى قول سـارتون أن تأسـيس المكتبة ينبغى أن ينسب عـدلا إلـى بطليمـوس سـوتر وبطلميـوس فلادلفيوس وديمتريوس الفاليرى.

ولكن ربما كان من الواجب علينا أن إلى رأى مهـم يتحـدث عـن مصر البطلمية ويشير إلى أن بطلميوس الأول (سوتر) وجه الـدعوة أولا إلى ثيوفراسطس طالبا مجيئه إلى الإسكندرية وذلك فى عـام 297 ق . م الذى اعتذر وأصر على أن تكون المهمة من نصيب ديمتريوس الفاليرى الذى رشحه بقوة[2]، ومعنى هذا أن بطلميوس كان يفكـر فـى بداية الأمر فى إسناد تأسيس المكتبة إلى عالم فيلسوف معروف عنه أنه من بين تلامذة الفيلسوف العظيم أرسطو ، ولم يجد فى هذا الصدد مـن هو أفضل من ثيوفراسطس الذى رشح الفاليرى لهذه المهمة التاريخيـة الحضارية .

إذن مركز الأبحاث العظيم الذى يشير إليه الدكتور مصطفى العبادى هو المتحف وقد ألحقت به المكتبة . وهذا ما يجعلنا نقول "(المتحف) و (المكتبة)"، لأنهما ليسا شيئا واحدا كما صورته بعض الكتابـات وإنمـا

---

[1] د. ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ص 800-801

[2] Ellis , Ptolemy of Egypt , Rutledge , New York, 1994 , P.55

هما كيانان مختلفان ، لكل منهما وظيفته وطبيعته القائمة بذاتها ، ودوره المتميز عن دور الكيان الآخر .

بيد أن المكتبة ظلت تنمو مع الوقت وفى هذا الصدد يذكر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن نمو المكتبة ازداد عبر الزمان وخلال فترة حكم عدد من الملوك ، ويدل على هذا أن خلفاء بطلميوس الأول اتجهوا إلى نصرة العلماء وتشجيع روح التعليم ، وبصفة خاصة بطلميوس الثانى وبطلميوس الثالث فقد عملا على توسيع المكتبة وتطويرها وتزويدها بالكتب [1] ، ولما ازدادت وكبر حجمها كان من الطبيعى أن ينشأ لها فرع آخر فكانت المكتبة الإبنة، أو مكتبة السرابيوم ، وهى أيضا لا تقل أهمية عن المكتبة الأم التى نشأت فى أحضان القصور الملكية . والواقع أن مكتبة السرابيوم مارست دورا مهما داخل النسيج الثقافى الإسكندرى قديما ، وكانت موضع اهتمام الكتاب بصورة كبيرة لأنها استمرت فى الوجود لفترة أطول من المكتبة الأم .

والواقع أن بعض المؤرخين مثل كلبل Klipple يؤكدون أن كتب المكتبة الأم قد زادت زيادة كبيرة فى عهد فيلادلفيوس حتى إنه اضطر عام 250 ق . م . أن يؤسس مكتبة ثانية فى معبد السرا بيوم ، ويذهب إلى هذا الرأى أيضا الأستاذ محمد أحمد حسين مؤكدا أن مكتبة السرابيوم انشئت فى عهد فيلادلفيوس نظرا لازدهار الحركة العلمية فى

---

[1] د. سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية منذ أقدم العصور ، 1963 ، ص 218

ذلك الوقت، على عكس ما يراه الأستاذ متر الذى يذهب إلى أن تأسيس مكتبة السرابيوم كان فى عهد بطلميوس السـابع (145-116 ق.م) ، وهذا العهد فى رأى كثير من الكتاب كان عصر تدهور واضمحلال .

لم يكن دليل آثار الإسكندرية مجرد دليل ، وإنمـا نجـد أصـحابه يناقشون الوقائع بصورة عقلانية دقيقة . وفى هذا الصـدد يؤكـد لنـا هنرى رياض أن الإسكندرية التى ذاع صيتها " أصبحت قبلة أنظـار العلماء من كل مكان وبقيت دار الحكمة والمكتبة كعبة للباحثين إلى أن أحرق الامبراطور أورليان عام 272 م الحى الذى كانت فيه ، فـدمر جانب كبير منها ، واضطر العلماء إلى الانتقال إلى المكتبة الصـغرى بالسرابيوم ، مركز عبادة سرابيس (منطقـة عمـود السـوارى الآن) ورحل البعض الآخر عن البلاد. و كان للاضطرابات التـى حـدثت بالمدينة أثرها ففقدت المكتبة الكبرى أهميتها حتى اختفت من الوجـود فى القرن الرابع الميلادى "[1]. إن هذا النص يقرر بصورة واضحة أن المكتبة دمرت على مرتين الأولى فى القرن الثالـث ، والثانيـة أنهـا اختفت تماما فى القرن الرابع الميلادى . وتعليل هذا كما يرى هنـرى رياض أن ظهور المسيحية وانتشارها فى القرن الرابع كـان بمثابـة الضربة القاضية لها ، حيث دمر المعبد وأحرق ما فيه تماما. وقد جاء تدمير المعبد نتيجة لشغب اليهود وهو ما يقرره هنرى رياض بقولـه"

[1] هنرى رياض ، المرجع السابق ، ص 18- 19

أن معبد السرابيوم دمر فى أثناء الثورة التى قام بها يهود الإسـكندرية فى عهد الامبراطور تراجان(98-114 م). وعلـى أطـلال المعبـد البطلمى أقام الامبراطور الرومانى هادريان (117 –138 م) معبـدا آخر[1] كان على حسب قول مؤرخى القرن الرابـع الميلادى مربـع الشكل، ولم يكن هذا المعبد أقل فخامة من سابقه وإن كان هو الآخر قد تهدم تماما فى أثناء الحملة التى قام بها المسيحيون فى الإسكندرية فى أواخر القرن الرابع للقضاء على الوثنية ومعابدها ، وقد أقيمت علـى أنقاضه فيما بعد كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا "[2]. أضف إلى هذا أن مكتبة السرابيوم قبل أن يتهدم المعبد كانت مركز ثقل الحركة العلميـة فى الإسكندرية وقد ترك هذا أثره الكبير على حركة العلـوم والآداب فى ذلك الوقت.

وبناء على ما تقدم فإن السرابيوم ومكتبته تلقيا أول موجات التدمير على أيدى اليهود فى الاضطرابات التى شنت على أهل الإسـكندرية ، ثم جاءت الموجة الثانية علـى أيـدى المسـيحيين علـى اعتبـار أن السرابيوم معقل الوثنية . وهذا يعنى أن الموجة الأولى كانت سياسـية على حين أن الموجة الثانية كانت دينية .

[1] أيضا : د.عزت قادوس ، آثار الإسكندرية القديمة، الإسكندرية ،1998 ص 151

[2] المرجع السابق ، ص 55

والأستاذ سارتون وهو من أئمة مؤرخى العلم فى هذا العصر ، وله اسهامات متعددة فى مجال العلم ، يشكك فى وجود المكتبة فـــى ذلـــك الوقت، ويرى أنه إذا كانت موجودة على سبيل الافتـــراض فلابـــد أن يكون قد دمرها المسيحيون . ويؤكد سارتون رأيه هـــذا بقولـــه " ازداد تدهور المكتبة بازدياد نفوذ الأساقفة المسيحيين على مدينة الإسكندرية ، سواء أكان أولئك الأساقفة أثناسيين أم أريوسيين . وفى أواخر القـــرن الرابع الميلادى كانت الوثنية فى طريقها نهائيـــا إلـــى الـــزوال مـــن الإسكندرية حيث كان الموسيون والسرابيون آخر المعاقل الوثنية بها . على فرض أنهما كانا باقيين حتى وقتذاك . ومن المعروف أن أوائـــل المسيحيين وتلامذهم كرهوا المكتبة أشد الكره لأنها كانت فى نظـــرهم معقل الكفر والخلاعة ، ولهذا كانت موضع الهجوم الصامت حتـــى آل إليها الخراب "[1].

ومعنى هذا الرأى أن الأستاذ سارتون يفترض أن المكتبة والمتحـــف ظلا قائمين حتى أواخر القرن الرابع الميلادى ، على أقل تقدير ، ومن ثم يلقى باللائمة على المسيحيين الذين ، كما يقول ، كرهوا المكتبة .

لكن الأستاذ بتلر بعد تحليلاته المتعددة والقيمة لكـــل مـــا دار فـــى الإسكندرية فى ذلك العصر ينتهى إلى التقرير الذى يؤكد فيـــه " وأمـــا المتحف فلا نجد له ذكرا باقيا إلى يومنا هذا ، ولابد أن نقول إنه تخرب

---

[1] سارتون ، تاريخ العلم ، ص ص 281 ، 282

وزال قبل ذلك بزمن طويل . ولعل زواله كان فى الحريق الكبير الذى أحدثه يوليوس قيصر عندما حاصره المصريون فى ذلك الحـــى تحـــت قيادة (اخيلاس) "[1]. ويقدم الأستاذ بتلر إشارة مهمة فى الهامش يـــذكر فيها : " يقول Matter إن المتحف لا يذكر بعد القرن الخامس الجزء الأول صفحة 331 ، والدكتور Botti يقول إن المتحف زال من زمن قديم قبل ذلك التاريخ "ولم يبق المتحف بعد زمن كركلا" صفحة 138 "[2]. وزمن الامبراطور كراكلا Caracalla (211 – 217 م) .

يذكر الأستاذ سافوز فى مقالة له بعنوان "حرب الإسكندرية " ، أن قيصر تتبع بومبي بفيلقين وثمانمائة فارس . ولكن حينما وصل علمه بموت بومبي مكث قيصر في ميناء الإسكندرية فترة بسبب الرياح ، وانشغل في بداية الأمر بتسوية الخلاف الذي نشب بين الملك بطلميوس وأخته كليوباترا ، اللذان أراد لهما والدهما أن يحكما المملكة سويا بعد موته، وهذا ما جعله يكون حلفا مع الرومان لمساعدته علي تنفيذ إرادته. وفي الوقت نفسه نشب الصراع بين الأخ وأخته حيث أراد كل منهما أن ينفرد بالسلطة . وبينما كان قيصر منشغلا بأمر التسوية بينهما، أحضر بوازانياس الجيش الملكي من البوليزيوم إلي الإسكندرية

---

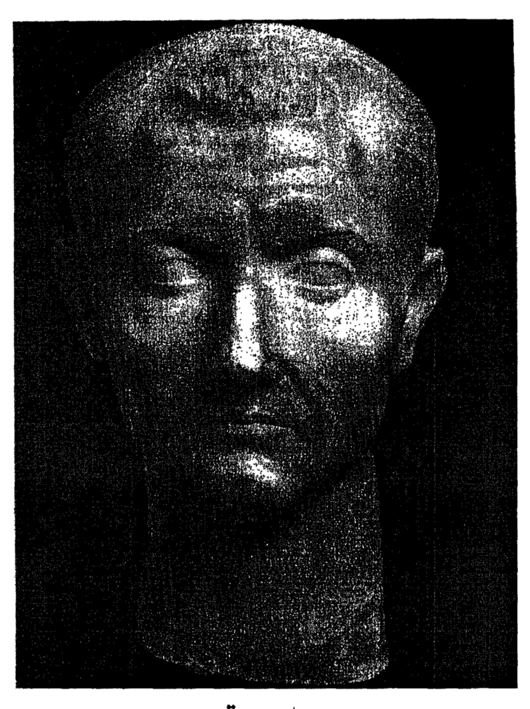
[1] بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ص 398-399 ، ويقصد بقوله (فى ذلك الحى...) البروكيون .

[2] المرجع السابق ، ص 399 . وقد ذكرت هذه الملاحظة فى هامش 2 .

تحت قيادة أخيلس . وحينما علم قيصر أن هذا الأمر قد تم دون علمه أرسل ديستوريدس وسرابيون إلي أخيلس ليعرفا ما يهدف إليه ، إلا أنه قتلهما . لقد كانت لدي أخيلس قوة عسكرية هائلة استطاع بواسطتها أن يحكم قبضته علي المدينة فيما عدا المنطقة التي كان يعيش فيها قيصر جنوب الميناء الكبير في منطقة القصور الملكية . لقد وزع قيصر فيالقه وحاصر المدينة ، ولكنه عاد إلي الشمال عندما حاول الأعداء أن يستخدموا البحرية المصرية في شرق الميناء .

لقد حاصرت البحرية خمسون سفينة قادمة من مارسيليا ، اثنتان وعشرون كانوا في الميناء فعلا وبعض القوارب الصغيرة في عرض البحر . وكان بمقدور أخليس أن يهاجم هذه السفن وأن يرسل رؤس من فيها إلي قيصر . ومن ثم أصبح الموقف حرجا بالنسبة لقيصر ، وكان عليه أن يحرق كل السفن الموجودة فى الميناء ، وهو ما حدث فعلا وأدى إلى أن يحكم قبضته علي البلاد.

إن هذا الرأى يكشف لنا بصورة واضحة أن مؤرخى العلم يعتقدون أن المكتبة والمتحف زالا من الوجود زمن يوليوس قيصر وقت أن أضرم النيران فى الأسطول المصرى فاندلعت النيران تلتهم كل ما كان فى محيط ميناء الإسكندرية والحى الملكى ، ومن بينها المكتبة والمتحف .



يوليوس قيصر

تصور لنا الكتابات المختلفة ماحدث لمكتبة السرابيوم أثناء الصــراع بين المسيحية والوثنية ، فبينما ظلت الإسكندرية وما فيها مــن معاهــد علمية ومكتبات تتمتع بسلام وازدهار نسبى على امتداد القــرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، تغيرت الأحوال مع حلول القرن الثالث ، وانقلبت رأسا على عقب ، إذ بدأت فترة من الفتن والمحن والاضطرابات التــى دامت طيلة القرنين الثالث والرابع الميلاديين[1]. وفى هذا الصدد يمكــن أن نستنتج من بين السطور أن بعض المفكرين يغلب الجانب السياســى ، على الأقل فى المرحلة الأولى انطلاقا من فكرة الاضطرابات التى شــهدتها الإسكندرية التى قد تعتبر نوعا من الارهاب الــذى تــم ممارســته علــى المستوى الفردى والجماعى معا. وتفسير هــــذا فى رأينا ربما يكون بسبب أن اليهود لم ينسوا أن كليوباترا ملكة مصر عاقبتهم أثناء المجاعــة التــى ضربت البلاد ، على اعتبار أنهم ليسوا مواطنين ، ولأنهم خانوا الوطن أثناء حرب الإسكندرية وسهلوا ليوليوس قيصر عملية حرق الأسطول المصــرى وتدميره بصورة قضت على آمال المصريين فى الانتصار، بالإضافة إلــى تدمير المكتبة والكتب مما ترك أثرا بالغا فى نفــوس المصــريين وملــوك البطالمة ، الأمر الذى يفسر لنا إهداء أنطونيــو عام 40 للملكة كليوبــاترا مكتبة برجامون التى قدرت بنحو 200 ألف كتاب .

[1] د. مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 35

والواقع أن الأحداث والمحن التى تلاحقت على مكتبة السرابيوم أيضا ، صورتها لنا الكتابات التاريخية بشكل يتفاوت من حيث الدقة والتحليل. لكن بعض الكتابات المهمة التى كرست لتناول مكتبة الإسكندرية قديما وتحليل الآراء المختلفة حولها استطاعت أن تقيم هذه الفترة بصورة تحليلية رائعة ربطت فيها بين الدقة وسياق الأحداث ، فضلا عن النقد التاريخى الذى يمثل زخما رائعا لتصوير الطبيعة الدرامية للأحداث التى وقعت وبصفة خاصة لمكتبة السرابيوم . وهنا تزودنا الكتابات التاريخية المختلفة برؤى متعددة[1] تكشف لنا المأساة التى حلت بمكتبة السرابيوم وأجهزت عليها أثناء فترة الصراع بين المسيحية والوثنية .

كانت مكتبة السرابيوم فى المعبد الكبير ، وهذا ما كفل لها التمتع بالحماية ، إذ استمدت قدسيتها من قدسية المكان ذاته طيلة العصر الوثنى. ولكن بعد أن أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للامبراطورية سقطت مقولة القدسية التى كانت تتمتع بها المعابد الوثنية، وترتب على هذا أن أصبح مصير المكتبة مرتبطا بمصير المعبد الكبير والمعابد الوثنية الأخرى ، هذا من جانب. ولما ازدادت شوكة المسيحية ازدادت معها موجات الاضطهاد ضد خصومهم

[1] المرجع السابق ، ص 38-46

الوثنيين ، وبلغت هذه الموجـــات قمتهـــا فـــى عصـــر الإمبراطـــور ثيودوسيوس الأول (379- 395م) حيث " شن حملـــة مشـــددة ضـــد الوثنية وجميع معابدها فى أرجاء الإمبراطورية " ، هذا من جانب آخر.

وأثناء هذا الصراع لعب رجال الدين دورا مهما فى استئصال شأفة الوثنية من البلاد ، وتحويل المعابد الوثنية إلى كنائس ، وهذا ما نجـــده مثالا متكاملا فى شخصية ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية الذى كـــان أول من أقدم على هذا بأمر الإمبراطور . كان على الوثنيين أن يلجأوا إلـــى المعبد الكبير ، حيث مكتبة السرابيوم ، وهو أشبه بقلعة حصينة ، ممـــا حدا بالأسقف ثيوفيلوس أن يستعين بوالى المدينة الرومـــانى ، وقائـــد حامية المدينة ، لكنهما شكا فى الأمـــر وطلبـــا إذنـــا صـــريحا مـــن الإمبراطور ثيودوسيوس الذى جاء أمره للأسقف ثيوفيلوس فـــى عـــام 391 م " بتدمير المعابد التى فـــى الإســـكندرية " . ومـــا أن تمكـــن ثيوفيلوس من المعبد حتى " قام بنفسه بضرب تمثـــال الإلـــه ســـرابيس الضربة الأولى ، وتبعه المسيحيون الآخرون الذين اعملوا فى المعبد ما استطاعوا من تدمير وتخريب".

ولكن لم يكن المهم هو المعبد كبناء وإنما الكتابات المختلفـــة التـــى كانت موجودة داخل المعبد التى اجتهد البطالمة والحكـــام علـــى مـــر الزمان فى تجميعها والحصول عليها من كافة أنحاء المعمورة على مر القرون ، ووضعها داخل المكتبة من أجل استفادة العلماء والباحثين فى

شتى التخصصات ، ومن أجل نشر الثقافة فى ربوع البلاد ، وتكـوين بنية معرفية تؤدى إلى الابداع الفكرى مما يعمل علـى رقـى الأمـة وتقدمها . وهنا لابد لنا وأن نتساءل عن حجم الدمار الـذى لحق الكتب المودعة فى المكتبة : ألم تسجل لنا الكتابات التاريخية المختلفـة أيـة معلومات عن أعداد الكتب التى اقتنتها مكتبة السـرابيوم التـى كانـت بطبيعة الحال فى تخصصات مختلفة ؟

لاشك أن المؤرخين فطنوا إلى هـذا الجانب ومن ثم عملـوا علـى اثبات الحقيقة التاريخية وفق ما أتيح لهم من معلومـات وبيانـات فـى عصرهم . ونحن نقول وفق ما أتيح لهم من معلومات لثقتنـا فـى أن الحقيقة يمكن ادراك جزء منها وليس كلها . وهناك أسباب متعددة قـد تؤدى إلى حجب الحقيقة فى بعض الأحيـان . وقـد صـاغ الأسـتاذ جوتشلك[1] المؤرخ المعروف رأيا يدعم فكرتنا هـذه حيث يقول لنا فى نص بليغ يقول فيه:

إن قدراً فقط مما لوحظ فى الماضى قد تذكره أولئك الـذين لاحظـوه، وأن جزءاً فقط مما تذكر سجل ، وأن جزءاً فقط مما قد سجل حفظه لنا التاريخ ، وأن جزءاً من ذلك الذى وصل يمكن تصديقه ، وأن جـزءاً من ذلك الذى يمكن تصديقه هو الذى حفظ ، وأن جزءاً من ذلك الـذى

---

[1] لويس جوتشلك ، كيف نفهم التاريخ : مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى ، ترجمة عائدة عارف ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، 1966 ، ص 60

حفظ يمكن أن يوسعه المؤرخ أو يقصه ، وأن تاريخ الماضى بأكمله لا يعرفه المؤرخ إلا بواسطة السجل المحفوظ ، وأن معظم التاريخ المحفوظ هو الجزء الباقى من الجزء المسجل عن الجزء المتذكر من الجزء الملاحظ من ذلك الكل .

إذن ماذا حفظت لنا الكتابات المختلفة عن أعداد الكتب التى كانت موجودة بالمكتبة ؟ وهل هناك تفاوت بين التقديرات التى ذكرتها الكتابات المختلفة ؟ هذا ما يجب علينا أن نتبينه بصورة مركزة من خلال الأرقام .

أما أعداد الكتب بالمكتبة فقد ذكر الأستاذ محمد أحمد حسين أن بريشيا نقل عن كاليماخوس أن عدد لفائف البردى بمكتبة السرابيوم بلغ فى عهده 42800 لفافة ، وأن عدد اللفائف المنوعة فى المكتبة الكبرى بلغ 400000 لفافة والمفردة 90000 لفافة . وربما كان هذا التقدير المأخوذ من عهد كاليماخوس يدل على أن الفهرست الذى عمله كاليماخوس لم يكن من صنعه وحده وإنما اشترك معه بعض الباحثين لتسجيل مقتنيات المكتبة ، خاصة إذا علمنا أن مثل هذه العملية تستوجب وجود تخصصات متعددة فى الفهرسة والتصنيف والتدوين وغيرها مما يدعم السجل ويجعل مفرداته موثقة . وهذا يطرح علينا فكرة أن علما البيبليوجرافيا فى ذلك الوقت شهد تقدما كبيرا ، وربما ترجع أسس هذا العلم لتلك الفترة. لكن اختلاف المؤرخين فى تحديد

عدد الكتب الذى كان بالمكتبة وقت بطلميوس فيلادلفيوس ثم أيام الحريق على يد يوليوس قيصر ، يؤكدا أن الأعداد التى ذكرت تقريبية وإنها تتراوح بين 54000 مجلد وبين 700000 مجلد . ونتبين هذا من أقوال المؤرخين :

1- يذكر يوسيفوس (القرن الأول الميلادى) أنها 200000 مجلد .

2- ويذكر سينكا (القرن الأول الميلادى) أنها 400000 مجلد .

3- يذكر يوزيب Eusebe de Cesaree (265 -340 م) أن عددها كان 100000 مجلد .

4- يذكر أميان مارسيلان (القرن الرابع الميلادى) أنها 700000 مجلد. لكن يلاحظ أنه خلط بين مكتبة البروكيوم ومكتبة السرابيوم فذكر أن ما بهذه المكتبة الأخيرة هو 700000 مجلد وأنها حرقت وقت حرق الأسطول على يد قيصر.

5- أما متر فإنه يعتقد أنه كان بمكتبة البروكيوم وهى المكتبة الأم 400000 مجلد حرقت كلها أيام يوليوس قيصر وأن مكتبة السرابيوم وهى المكتبة الفرعية كانت تحتوى 300000 مجلد.

6- أما المؤرخ الرومانى (70-141 ق . م) تشيوس سيوتينيوس ترنكليوليوس Caius Suetonius Tranquillus فإنه يذكر نقلاً عن ليفيوس أن عدد الكتب التى حرقت بلغ 400000 مجلد.

7- ويشير أوروسيوس Orosius وهو من مؤرخى القرن الخامس الميلادى فى تاريخه العام الذى أهداه إلى القديس اغسطين عن حريق المكتبة أن 400000 مجلد حرقت .

من كل هذا نستنتج أن أعداد الكتب التى ذكرها الكتاب تقريبية ، وأن العدد الصحيح لانعرفه على وجه الدقة ، خاصة وأن كاليماخوس نفسه الذى صنف المكتبة وفهرسها والذى نقل عنه بعض الكتاب، قد ازدادت المكتبة بعده بصورة كبيرة فى العصور التالية بحيث اضحت الأعداد المذكورة مجرد ترجيح فحسب . وربما كانت هذه الحقيقة واضحة للعيان ، خاصة وأن المكتبة كانت تزود على الدوام بالكتب التى تفد إليها من أنحاء العالم ، كما يحدث فى مكتباتنا فى العصر الراهن ، إذ يتعذر علينا أن نتصور وجود مكتبة ما ، فى القديم أو الحديث ، ولا يحدث لها تزويد فى الكتب والمقتنيات . ولكن مهما كانت كثرة الأعداد أو ضآلتها فإن فقدان مكتبة ما مسألة تدعو إلى الحسرة والآسى بكل ما تحمله الكلمة من معان .

الفصل الرابع

كاليماخوس والفهرست

يعد كاليماخوس Callimachus من أهم الشخصيات التى ارتبطت بمكتبة الإسكندرية القديمة من حيث الشهرة العالمية التى امتدت لقرون طويلة حتى عصرنا هذا فقد كان عميداً للنقاد الأدبيين[1] فى عصره ، بالإضافة إلى كونه شاعرا [2]، وقد طبع العصر بطابعه وبنقده. وفى عصره أصبح للشعر السكندرى سمات محددة خاصة فى القصائد التى كتبها كاليماخوس، وقد أثرت هذه السمات فى أدب العصر المتأغرق بعد ذلك . ويذكر الدكتور لطفى عبد الوهاب أن أول إنتاج لهذا الشاعر كان " النشيد الذى كتبه تحت عنوان (إلى زيوس) كبير آلهة اليونان حوإلى 280 – 275 ق .م"[3] . وربما اكتسب كاليماخوس شهرته العالمية من ارتباط اسمه بأول مصنف فى علم المكتبات وهو الفهرست Pinakesالذى وضعه للمكتبة. علينا إذن أن نقف على هذا الجانب الذى يعد حدثا ثقافيا مهما، لنعرف الدور الثقافى الذى أراده

[1] د. لطفى عبد الوهاب ، دراسات فى العصر الهلينستى ،ص 29

2 يذكر العالم المصرى سليم حسن أن من أهم ما أنشأه شعرا مرثيته التى أنشأها فى موت أرسنوى زوج بطلميوس الثانى وقد خالف فيها الشاعر نغمته المعتادة إذ وضعها فى نغمة عاطفية مؤثرة . فنجده فى البداية يصف صعود روح ارسنوى إلى النجوم ، وفى المشهد التالى نشاهد كاريس بعد سهرها على جبل أثوش تخبر فيلوتيرا الحزينة وهى أخت ارسنوى المؤلهة أن السحب التى تغطى السماء تأتى من جنازة الملكة فى مصر . إن هذه الفكرة فى حد ذاتها مصرية ، ولم تظهر عند ملوك البطالمة إلا بعد أن أصبح الملك بطلميوس الثانى وزوجه مؤلهين وذلك باعتناقهما المذهب الإلهى المصرى . راجع فى ذلك : سليم حسن ، مصر القديمة ، ج 14 ، ص 275

3 د. لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص 32

كاليماخوس، ومدى ارتباط هذا الدور بما هو أبعد من مجـــرد وضـــع فهرست.

ويذكر المؤرخ المعروف جورج سارتون في كتابه " تاريخ العلــم " أن كاليماخوس البرقاوى الذى ولد حوإلى 310 ق.م. كان يعمل مدرسا للنحو فى بلده إليوسيس بالقرب من الإسكندرية، ثــم اتصــل بالملــك بطليموس الثانى فعينه أمينا للمكتبة، حوإلى سنه 260، وشــغل ذلــك المنصب حتى وفاته حوإلى سنة 240 "[1]. ويتفق معه فى هــذا الــرأى سليم حسن الذى يذكر أن كاليمــاخوس هــاجر مــن "ســيرينى" إلـــى الإسكندرية " وكشف عن مذهبه عندما كان يعمل مدرسا فـــى مدرســـة ضاحية اليوزيس"[2]، ويكشف لنا أن اتصاله بالملك بطليموس جاء عــن طريق الشعر ، ذلك أنه فى أنشودة له وضعها عن الإله ريوس وصف " الحقوق الإلهية للملك"[3]. وفى تقدير الأستاذ سليم حسن أن كاليماخوس " درس نظام الحكم المصرى القديم وأراد أن يرضى بطليموس بوضعه فى مصاف ملوك مصر الذين يعدون أولاد رع وأنهم آلهـــة"[4] . وهنـــا نجد أن الأستاذ سليم حسن يستنتج " أن فى ذلك برهانا قاطعا يـــدحض

---

[1] جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج4،ص 272
[2] سليم حسن ، المرجع السابق ، ج 14 ، ص 274
[3] المرجع السابق ، ص 274
[4] المرجع السابق ، ص 274

الفكرة القائلة أن موضوع التأليه إغريقي فى أصله "[1] على حين ، أنه وفقا لرؤية سارتون وقراءته للنصوص القديمة، فإن كاليماخوس شغل منصب أمين مكتبة الإسكندرية خلال هذه الفترة ، ولكنه منذ صباه كان مشغولا بتحضير فهرس المكتبة"[2]، أى لمدة عشرين عاما متواصلة. لكن هذه المسألة موضع اختلاف المؤرخين على شتى مذاهبهم.

وفى هذا الإطار نجد أن بعض المؤرخين مثل متر Matter لا يرى أن كاليماخوس "شغل وظيفة امين للمكتبة فى عهد فيلادلف خلافا لما هو معروف لدى معظم المؤرخي،"[3]ويوافقه على هذا الرأى محمد أحمد حسين[4] .ومن جانب آخر نجد أن الدكتور شعبان خليفه يذهب بالمسألة كلها إلى ما هو أبعد من وظيفة أمين إذ يذكر نصا مهما يقول فيه " ففيما نعلم لم يكن كاليماخوس من بين المديرين وإن كان من أمناء المكتبة"[5].إن هذا النص يضعنا مباشرة أمام مسألة التقسيم الإداري والفنى الذى نجده بين الكلمتين " مدير " و"أمين". وتزداد المسألة تعقيدا فى نص آخر يقدمه لنا الدكتور شعبان خليفه حيث يقول:"وكليماخوس على وجه التحديد كان باحثا ارتبط اسمه بالمكتبة كأمين مساعد ولم

[1] المرجع السابق ، ص 275

[2] سليم حسن ، المرجع السابق ، ص 274 -

[3] محمد احمد حسين ،،مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ، ص 26

[4] المرجع السابق ، ص 33

[5] شعبان خليفه ، الكتب وعالم المكتبات القديمة ، ص 288

يصل أبدا إلى رتبة مدير، وربما كان الأمناء المساعدون في تلك المكتبة يوضعون على درجة باحث طالما أن المكتبة كانت مكتبة أكاديمية"[1]. لاشك إذن أن هذا النص يشير إلى كاليماخوس على أنه "أمين مساعد" أو "باحث" ويرى أن الوظيفتين متساويتان. وبهذا وضعنا الدكتور شعبان أمام أربعة وظائف هي "مدير" و "أمين " و"أمين مساعد" و"باحث" . مما يزيد الأمر تعقيدا فيما يتعلق بالتعرف على شخصية كاليماخوس، كشخصية تاريخية ذات إسهام مهم في إطار التعرف على مكتبة الإسكندرية القديمة .

وربما كان مصدر التعقيد في مثل هذه النصوص أن بعض الكتابات الأوربية الحديثة قد ألقت بظلال الشك على مكانة ووضع كاليماخوس في مكتبة الإسكندرية، والدليل على هذا مايذكره وليام ثورب في كتابه عن "الحضارة الهللينسية" من شك في تولي كاليماخوس أمانة المكتبة، إذ يقول في نص مهم:"ومن المحتمل وإن يكن أبعد ما يكون من المحقق أن كاليماخوس تولى أمانة المكتبة"[2].هل كان وليام ثورب هو مصدر الشك في مكانة كاليماخوس كأمين للمكتبة؟ أم أن هناك مصادر أقدم

---

[1] المرجع السابق ،،ص 289

[2] وليام ثورب، الحضارة الهللينسنية، ص 283

تشير إلى هذه المسألة ؟ نشير فى هذا الصدد إلى رأيين على درجة كبيرة من الأهمية ظهرا على امتداد النصف قرن الماضى[1].

أما الرأى الأول فيقدمه لنا الدكتور إبراهيم نصحى الذى يذكر: "ويرى البعض أن كاليماخوس قد تولى منصب أمين المكتبة، لكننا نميل إلى تأييد الرأى المعارض لذلك، ولاسيما أن وثيقة بردية كشفت حديثا تخبرنا بأن الذين عينوا أمناء للمكتبة بعد زنودوتوس كانوا أبولونيوس الرودسى وارتوستينس واريستوفانس البيزنطى،الذى علق على فهارس كاليماخوس ويعزى إليه فضل ترتيب مؤلفات أفلاطون ثم ابولونيوس مؤرخ الأدب الاغريقىeidographos واريستارخوس وكيداس Cydas أحد رجال حرس الملك"[2] .ومعنى هذا أن الدكتور إبراهيم نصحى لايؤيد فكرة أن كاليماخوس تولى أحد المناصب داخل مكتبة الإسكندرية.

---

[1] لا نعرف سببا مقنعا للتقرير المزدوج الذى قدمه لنا الأستاذ سليم حسن عن كاليماخوس حيث يقول فى فقرة عن علماء الإسكندرية الذين تولوا إدارة مكتبة الإسكندرية " وفى عهد رياسة أبوللونيوس لمكتبة الإسكندرية نظم الشعر الغنائى كاليماخوس مفهرس مكتبة الإسكندرية المشهور ولم يتول الأخير فى يوم من الأيام وظيفة أمين المكتبة" . سليم حسن ، المرجع السابق ، ص 254 . وفى موضع أخر وحين يتحدث عن الشعر فى الإسكندرية وحين يتحدث عن كاليماخوس يخبرنا أنه " ومن المحتمل أن مقطوعاته الشعرية القصيرة التى كانت تنطوي على نكات- وكانت السائدة فى هذا العصر- قد لفتت نظر بطلميوس إليه . وقد منحه الأخير وظيفة أمين مكتبة الإسكندرية "(المرجع السابق ، ص 274) إن التضارب بين الفقرتين يشكل مظهرا من مظاهر التناقض البين فى بعض النصوص عن كاليماخوس ، كما يبين أن بعض النصوص فسرت بصورة لا تتسق مع البينات التاريخية.

[2] ابراهيم نصحى ، تاريخ البطالمة، ص 803

وأما الرأى الثانى الذى يعبر عنه الدكتور مصطفى العبادى[1] فى كتابه"حياة وقدر مكتبة الإسكندرية القديمة" فيتمثل فى أنه لايوجد اتفاق على ترتيب أمناء مكتبة الإسكندرية، وفى هذا الصدد يشير إلى أن القائمة التى عثرعليها بناء على بردية قديمة تقدم لنا معرفة بالشخصيات التالية:

1- زانودوتوس zenodotus (285 – 270 ق.م) انحدر من أفسوس ، متعدد النشاط العلمى، وقد كرس وقته لإدارة المكتبة ، وعلى ما يرى سارتون فإنه من المحتمل أن ادارة المكتبة فى تلك الفترة كانت خفيفة الأعباء ، خاصة وأن الروتين بأساليبه المختلفة لم يكن قد تسرب إلى ادارة المكتبة[2].أضف إلى هذا أن سارتون يصف لنا طريقة عمله داخل المكتبة التى أدارها على أساس التشاور مع مساعديه ليأتى العمل منسجما . وأما من حيث أعماله العلمية فإنه " يعد أول إغريقى من العصر الهلانستيكى يضع للعالم متنا منقحا لكتابى هومر (الإلياذه) و (الأوديسى) "[3].وقد احتل مكانته الرفيعة فى التاريخ القديم لأنه "كان أول أديب يتصدى لنقد أشعار هوميروس Homerus الشاعر اليونانى

---

[1] El-Abbadi,M.,The Life and fate of the Ancient Library of Alexandria, p.93f

[2] سارتون ، المرجع السابق ، ص ص 270- 272

[3] سليم حسن ، المرجع السابق ، ج 14 ، ص 254

العظيم"[1] وهو فى الأصل تلميذ الشاعر لفيليتاس ، ويذهب ديورانت إلى تقرير رأى مهم يقول فيـــه : " واصـــل أرســـطوفان عملـــه ، وأتمـــه أرستارخوس ، وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالى لهاتين الملحمتين، وهما اللذان شرحا ما غمض فيها شرحا يدل على غزارة الاطـــلاع"[2]. والذى لاشك فيه أن الجهد الذى صرفه زانودوتوس فى هذا الصدد أدى إلى حفظ هذا النص الملحمى المهم وبقائه عبر الأجيال والقرون .

2- **أبولونيـــوس الرودســـى** Apollonius(270 – 240 ق.م) وهـــو مصرى يونانى الأصل ومولده بالإسكندرية . نال شهرة واســـعه فـــى رودس خاصة فى تدريس الخطابة . وهو مؤلف الملحمـــة المعروفـــة بالحملة الأرجونيتية[3] Argnautic Expedition ويذكر ســـارتون أن أبوللونيوس خلف أستاذه كاليماخوس فى وظيفة أمين مكتبة الإسكندرية؛

---

[1] د. حسن عون ، المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية فىعهد البطالمة ، ص 94

[2] ديورانـت ، قصـة الحضـارة ، ج 8 ، ص 90 . الاليـاذة والأوديسـه مـن أشـهر الملاحم الاغريقية التى كتبها الشاعر الملحمى الكبير هوميروس ، ووفق ما يذهب إليه دارسو وعلماء التاريخ اليونانى والرومانى فإن تاريخ تدوين الملحمتين يعود إلى الفترة الواقعة ما بين القرن الحادى عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد . وملحمة الإلياذة تصور فى صورة شعرية رائعة وقائع الحرب الطروادية التى دارت رحاها بين الاغريق وأهل طروادة بعد أن الأمير الطروادى هيلين زوجة ميلاوس القائد اليونانى. ودامت الحرب عشر سنوات حيث إنتصر الاغريق فى نهايتها ، وسقطت طروادة.أما ملحمة الأوديسه فتصور لنا صراع أوديسيوس أحد أبطال الحرب الطروادية بعد العودة إلى موطنه ايثاكا وما تخلل هذه الفترة من عناء ، وكيف أنه تمكن من استرداد عرشه بعد رحلة طويله. راجع فى ذلك: د . حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ الحضارة : مصر اليونانية الرومانية ، 1985 ، ص ص 106-107

[3] سليم حسن ، المرجع السابق ، ج 14 ، ص 254

إلا أنه لم يظل طويلا فى عمله[1]، لكن بعض الكتابات تـذكر أنه تـرك الإسكندرية وذهب إلى جزيرة رودس على اثر خلاف نشب بينه وبـين كاليماخوس ، إلا أنه عاد إلى الإسكندرية مرة أخـرى وتـولى شـئون المكتبة وأنتج للأدب كتبا عديدة[2] .

3- أراتوسثينس (245 – 204 ق.م) تتلمـذ على الفيلسوف اليونـانى المشائى ديكايارخوس[3] Dicaearchos ، وهو من أبرز رجال العلـم فى العالم القديم ، حيث تضلع فـى الرياضـيات والفلـك والجغرافيـا والتاريخ وفقه اللغة . ارتحل إلى الإسكندرية بعد أن أتم تعليمه فى أثينا، بناء على دعوة الملك بطلميوس الثالث الذى حكم فى الفتـرة (247 – 222 ق . م) ، وأسند إليه العمل أمينا للمكتبة فى عام 235 ق. م على وجه التقريب . ويصور لنا الأستاذ سارتون[4] أهميته العلمية والتاريخية من خلال الدراسات التى أنجزها التى أهمها دراسة حـول الـدراما . ودراسته المعروفة باسم كرونوجرافيا التى قام فيها بأول محاولة ذكيـة لترتيب الحوادث الرومانية القديمة ، وبذلك أوجد دراسات جـادة عـن

[1] سارتون ، المرجع السابق ، ص 274
[2] د. حسن عون ، المرجع السابق ، ص 94
[3] د.ابراهيم نصحى ،تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج2 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1946 ،ص 800
[4] المرجع السابق ، ص ص 275 ، 276

فكرة الترتيب الزمنى فى النقد الأدبى . أضف إلى هذا فإنه وفقا لـرأى سارتون يعتبر المصنف الأول للكتب العلمية فى المكتبة .

4- **أريستوفانيس** (1/204 – 6/189 ق.م) يعتبره سارتون مـن أهـم علماء الإسكندرية ، ومن أعظم فقهاء اللغة فـى العـالم القـديم علـى الإطلاق ، ومرجع ذلك أنه أدخل قواعد جديدة فى نقد المتون. أضـف إلى هذا أنه توافر على إعداد تحقيقات علمية دقيقة للعديد من الملاحـم القديمة مثل الإلياذة والأوديسة، وقد سبق أن أشـرنا إليهـا ، وملاحـم هزيود ، وقصائد الكايوس، وأناكريون وبندار ويوربيدس وغيرها مـن الأعمال المهمة . ويصور لنا سارتون إنجازاته العلمية فيما يلى[1] :

أولا : دراسته النظائر النحوية (القياسات) حيث أسهم فى تنظيم النحو اليونانى .

ثانيا : تصنيفه معجما باللغة اليونانية .

ثالثا : اختراعه وتنظيمه لعلامات الترقيم فى الكتابة ، بالصورة التـى أدت به إلى استنباط العلامات الرقمية العاديـة لمـا نسـتخدمه الآن ، واسـتنباط علامـات متنوعـة ضـرورية فـى نقـد النصـوص والمتون.وبطبيعة الحال فإن هذا الإسهام العلمى يدل على حجم العطاء الذى قدم فى هذه الفترة من قبل العلماء الذين شغلوا منصـب الأمـين

[1] المرجع السابق ، ص 287

واستطاعوا بذكائهم أن ينهضوا بالمكتبة ويجعلوا منهـا منـارة علميـة رائدة .

5- **أبولونيوس ايدوجرافوس** (6/189 – 175 ق.م) معلوماتنا عنه قليلة، لكن ينسب إليه ترتيب قصائد الشاعر اليونانى بندار[1] ، واهتمامه بالنحو والتاريخ .

6- **أرستارخوس** (175 – 145 ق.م) أديب وناقد ونحوى . أنجز عـددا كبيرا من الشروح ، وألف مجموعة رسائل فى النقد اندرجت فى 800 لفافة بردية . وقد حصر سارتون إنجازاته فيما يلى [2]:

أولا : عرف ثمانية أنواع من الكلام هى الاسم ، الصفة ، الفعل،المفعول، الضمير ، أداة التعريف ، الظرف ، حرف الجر ، العطف.

ثانيا : أدخل رموزا تنقيطية فى تحقيقات لقصائد الشعراء اليونانيين.

ثالثا :أن النقد الذى قام به لم يكن فقهيا لغويا فقط ، وإنما كان بحثا ثريا. هذا وقد استمرت مدرسته لمدة طويلة تتبع خطاه بصورةعلمية دقيقة،مما يدل على أهميته .

---

[1] يعد بندار من أهم وأشهر الشعراء الغنائيين عند الإغريق ، كان حيا فى الفترة الواقعة بين الربع الأخير من القرن السادس ومنتصف القرن الخامس قبل الميلاد . وتذكر الكتابات التاريخية أنه دون سبعة عشر كتابا فى الشعر الغنائى . وقصائده الشعرية تعتمد على الأساطير بصورة أساسية . راجع فى ذلك الدكتور حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ الحضارة : مصر اليونانية الرومانية ،1985 ، ص 108 –109

[2] جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 279 ، 280

7- **كيداس** أحد رجال الحرس (145 – 116 ؟ ق.م). وهنــا لابــد وأن تكون لنا وقفة . إذ ما الذى جعل ملوك البطالمة فى ذلك الوقت يعينون أحد رجال الحرس أمينا للمكتبة ؟ هل سادت الفوضى أرجــاء المكتبــة وفقدت السيطرة عليها بحيث أصبح من الضرورى تعيين أحــد رجــال حرس القصر– وهو بطبيعة الحال رجل عسكرى – أمينــاً أو مــديراً للمكتبة ، ومن المعروف أن رجال حرس القصر على وجه الخصوص أكثر انضباطا وصرامة ؟ وكيف سيستطيع كيداس هذا، وهو من رجال الحرس، أن يسهر على رعاية العلماء والمفكرين ، أو حتــى يضــبط الإيقاع بينهم داخل المكتبة؟ أم أن كيداس هذا كان أحد المفكرين فى هذا العصر ، ولما أراد أن يتقاعد كانت هذه هى المكافأة؟ ليست لدينا وثائق كافية تشير إلى مثل هذا التصرف . ومع هــذا يمكن لنا أن نستنتج أن الروح العلمية فى هــذا العصر كانت سائدة بصورة عالية ، وربما كان هــذا مبرراً يفسر لنا تعيين كيداس أمينا للمكتبة إذ أنه يمكــن لنــا أن نفترض أفقه الواسع وثقافته الرفيعة حتى يمكن أن يتبوأ هــذه المكانــة العلمية الرفيعة . ولا يغيب عن بالنا أيضا أنه يمكن النظر إلــى مثــل هــذا القرار على أنه نكسة حلت بالمكتبة والعلماء وتدخلا صارخا فــى شئونهم العلمية .

ومع أن هذه القائمة التى يذكرها الدكتور مصطفى العبادى تتفق مع قائمة جورج سارتون[1] وإبراهيم نصحى[2]، إلا أنه قد يلاحظ أن القائمة لم تتضمن اسمين مهمين هما ديمتريوس وكليماخوس[3] ، هذا بالإضافة إلى ما يلاحظه جورج سارتون من "أن هذه القائمة تنتهى بانتهاء النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد. يضاف إلى ذلك أنه لاتوجد أية اشارة فى أى مصدر من المصادر إلى أمين لمكتبة الإسكندرية بعد هذا التاريخ"[4]. ومن هذا يستنتج سارتون "أن العصر الذهبى لمكتبة الإسكندرية لم يظل سوى قرن ونصف قرن من الزمان، لأنه ليس من المعقول أن تزدهر مكتبة ما دون أن يكون لها أمناء معرفون".[5] كما أن هذا فى رأينا يفسر أن المكتبة اندثرت بعد هذا التاريخ ، وربما لم توجد ككيان .

ولكن ليس من العسير فهم طبيعة الإغفال الذى تحفل به القائمة المذكورة لاسمى كل من ديمتريوس الفاليرى وكاليماخوس، وربما أمكن فهم هذا فى ضوء ما هو متوافر لدينا من معلومات من خلال كتابات المؤرخين . فكما نعلم من استعراض حياة ديمتريوس الفاليرى

---

[1] جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 259

[2] ابراهيم نصحى ، المرجع السابق

[3] El-Abbadi,M.,The Life and Fate of The Ancient Library of Alexandria, p.93

[4] سارتون ، المرجع السابق ، ص 260

[5] المرجع السابق

أنه كان مسئولا ومشرفا على العمل الذى تم فى المكتبة بأسرها، وكأنه ممثلا للملك. وأما كاليماخوس فقد أنيطت به مهمة محددة داخل المكتبة لعمل الفهرس أو الكتالوج، وهو مايبدو من عبارة الـــدكتور مصـــطفى العبادى التى يقول فيها حرفيا :[1]

.."*he would have been assigned a responsible Commission in the Royal Library, which ultimately produced his great Catalogue (Phinakes)*"

وهذه المهمة استغرقت عشرين عاما لإنجاز هذا الفهرس العظيم . ومن الطبيعى أن يكون هذا الفهرس أضخم حدث علمى فى تاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة. والفهرس الذى وضعه كاليماخوس عنوانه: قوائم جميع المؤلفات الهامة فى الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها[2].

لكن الأستاذ سارتون ينظر لمسألة أمين المكتبة من منظور آخر، وهو مدرك تماما لبعض التعقيدات المتصلة بهذا الموضوع وما يترتب عليها من تحليلات ونقد ، ومن ثم فإنه يذكر فى هذا الصدد "ويقال إن كاليماخوس لم يكن أمينا للمكتبة أو مديرها ، بل كان مفهرسا لها . غير أن هذه المسألة لا تحتمل كثيراً من المناقشة نظراً لقلة معلوماتنا عن حدود هذه الوظائف وطبائعها " [3].

---

[1]El-Abbadi, M., op.cit, P.94

[2] سارتون ،المرجع السابق ، ص 272

[3] جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 274

يبدو من النص أن سارتون يشكك فى حجج الذين ينكرون قيام كاليماخوس بأعباء أمانة المكتبة ، وهو ما جعله يستخدم كلمة (ويقال) فى مفتتح عبارته وكأنه غير راض عن الأمر ككل ، وهذا يعنى بالنسبة له أن الآراء التى قدمت فى هذا الاتجاه ليست نهائية ، وهو ما عبر عنه سارتون بقوله " هذه المسألة لا تحتمل كثيراً من المناقشة". وبين سارتون فى هذا الصدد أيضا مسألة أخرى وهى أن الحجج المتعارضة المختلفة ، المؤيدة لاعتبار كاليماخوس أمينا للمكتبة والمعارضة لها فى الرأى ، متكافئة ، وليست إحداها أفضل من الآخرى وهو ما يبدو من قوله " نظرا لقلة معلوماتنا عن حدود هذه الوظائف وطبائعها " .

والأستاذ سارتون يبين لنا إلى أى حد اعتبر أمين المكتبة فى ذلك العصر عالما من العلماء ، أوهو كان كذلك فعلا . وهذه مسألة على درجة كبيرة من الأهمية فى التأريخ لمكتبة الإسكندرية ومعرفة بنيتها الفكرية الداخلية ، والمنظومة المعرفية المتكاملة التى تحركت من خلالها. ومن ثم فإنه " يجب علينا أن نذكر أن أولئك الأمناء الأولين لم يكونوا أمناء فحسب ، بل رجالا من أرباب الأدب وفقه اللغة ، والتحقيق والمعاجم والتاريخ والفلسفة والشعر ، وربما كان الواحد منهم عالما فى أحد هذه العلوم ، أو فى بعضها، أو فى كلها . أو كانوا كذلك

جميعهم "[1]. والذى لاشك فيه أن هذه المسألة استوقفت المؤرخين بصورة قوية بحيث تكاد تصدق على العصر البطلمى كله أن " البطالمة كانوا يهدفون إلى نفس الغرض الدعائى السياسى حين عهدوا بأمانة المكتبة إلى سلسلة من الأمناء كانوا أبعد ما يكون عن طبقة الموظفين الذين يؤدون عملا روتينيا آليا ، بل كانوا بحق مجموعة من العلماء برز كل منهم فى ميدانه كأبرع ما يكون التبريز."[2] فكان هناك من العلماء من تولى أمانة المكتبة، وقام بالإشراف على العمل بها . وهذه مسألة تكشف لنا إلى أى حد اعتبرت وظيفة أمين المكتبة فى ذلك العصر من أهم الوظائف على الإطلاق ، وبخاصة أن أمين المكتبة فى هذه الحالة باعتباره من العلماء ، يعرف احتياجات الباحثين والعلماء الذين يترددون على المكتبة ، ويعرف كيفية تزويد المكتبة بالمقتنيات الحديثة باستمرار لأهميتها للدرس والاطلاع ، فضلا عن تجديد شباب المكتبة بصورة دائمة .

أضف إلى هذا أنه إذا أخذنا بما تذهب إليه بعض الروايات من أن كاليماخوس لم يكن أمينا للمكتبة ، وإنما كان مجرد مفهرس للمكتبة ، فإنه فى هذه الحالة علينا أن نواجه سؤالا آخر ملحا وهو : أمن الممكن بالنسبة لأى شخص غير منخرط فى منظومة العمل الإداري الرسمى

---

[1] المرجع السابق ، ص 274
[2] د. لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص 191

(الوظيفى) داخل المكتبة ، والمكتبة الملكية بالذات ، أن يدخل إلى المكتبة دون أن تكون له علاقة ، أو مسؤلية محددة ، ليجرى تصنيفا للمكتبة ؟ إنه حتى فى مكتباتنا الحديثة لا يمكن لأى شخص لا تربطه علاقة ما بالمكتبة أن يقوم بمثل هذا العمل ؛ إلا إذا كان مكلفا بكتاب رسمى ، ومن المسؤل الذى تخضع المكتبة لإشرافه مباشرة . وهنا يمكن أن نلمس أهمية العبارة التى ذكرها الدكتور مصطفى العبادى التى أراد بها أن يحسم النقاش حول الجدل الدائر فى هذه النقطة بالذات، حيث إن كاليماخوس حسب ما تقرره العبارة التى ذكرها " انيطت به مهمة ومسؤلية محددة داخل المكتبة الملكية ، كان نتيجتها كتالوجه العظيم (الفهرست) ". والمعنى الذى يمكن أن يفهم من هذه العبارة ، أو القول (انيطت به مهمة ومسؤلية محددة داخل المكتبة الملكية) ، أن هذه المهمة لا يمكن أن تكون إلا بأمر مباشر من الملك، فهو وحده الذى يمكن أن يصدر مثل هذا التكليف ، وعلى وجه التحديد(داخل المكتبة الملكية). ومن ثم فإنه سواء أكان كاليماخوس أمينا للمكتبة أم لم يكن ، فقد كانت هناك مسؤلية محددة ملقاة على كاهله وهى فهرسة المكتبة . ولاشك أن هذا حدث بأمر ملكى.

والجدير بالذكر هنا أنه طالما صدر أمر ملكى بفهرسة الكتب داخل المكتبة الملكية ، فإن هذا يعنى أنه لم يعد بالإمكان التعامل مع المكتبة دون مرشد أو دليل علمى يبين مواضع الكتب وأماكن تواجدها،

واستقلال الفنون عن بعضها ، ويعنى أيضا أن عدد الكتب التى كانت بالمكتبة أكبر من أن يتم التعامل معها دون دليل . وأنه نظرا لضخامة أعداد الكتب ، فعلينا أن نتوقع أنه ليس ميسورا لفرد واحد فحسب أن يقوم بعبء العمل فى الفهرسة والتصنيف وحده ، ومن ثم " لم يكن كاليماخوس يستطيع بمفرده أن يحصر ويسجل ويصنف كل هذا العدد من الأعمال فى مكتبة الإسكندرية . وقد قيل أنه قام وحده بإعداد خمس الفهرس أى نحو تسعين ألف عمل ، وجاء من بعده ، وربما فى جزء من حياته ، أمناء آخرون تعاقبوا عليه وأكملوه "[1] . وربما كان من الطبيعى أن نضع فى اعتبارنا استعانة كاليماخوس بإعداد من الباحثين أو المساعدين لاتمام الفهرس كما سبق أن ذكرنا ، وأن تكون مهمته الأساسية الإشراف ، وبخاصة أن أمين المكتبة فى ذلك الوقت كانت له مهام تربوية أخرى داخل القصر الملكى . وفى هذا الصدد يذكر الدكتور ابراهيم نصحى "أن زنودوتوس وأبولونيوس الروديسى واراتوسيثينس وارستارخوس كانوا معلمى أبناء معاصريهم من البطالمة "[2]، وهذه مهمة أساسية بطبيعة الحال ، لأن الملوك كانوا يثقون فى العلماء وحكمتهم ، ولذا "فإننا لا نعدو الحقيقة إذا استخلصنا من ذلك أن أمين المكتبة كان فى نفس الوقت كذلك مربى أفراد الأسرة

---

[1] د. شعبان عبد العزيز خليفة ، المرجع السابق ، ص 291
[2] د . ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص 803

المالكة"[1]. وعند هذا التفسير تصبح مسألة المسؤلية التى انيطت بالمفهرس الأول ، كاليماخوس ، داخل المكتبة الملكية مفهومة، لأنها تتصل بطبيعة عمله كمربى ومعلم لأبناء الأسرة الملكية . ويصبح تواجده فى هذا الإطار بمرسوم ملكي.

ومادام كاليماخوس وضع اللمسات الأولى للعمل فى الفهرست الذى وضعه ، فإنه بذلك قد " ابتكر طريقة تقسيم الأعمال الكبيرة إلى (أجزاء) أو (كتب) حتى تصير اللفافات الكبيرة متوازنة فى حجومها ويسهل تناولها وتداولها وخزنها واسترجاعها "[2] . وعلى هذا الأساس لابد وأن يكون التقسيم الأساسي للكتب أدى إلى إمكان توزيعها على الرفوف وفى القوائم ، وهذه مسألة مهمة بالنسبة للتعامل مع الكتب فى المكتبة .

واللافت للانتباه أنه لاتوجد لدينا نسخة من فهرس كاليماخوس، وقد عبر سارتون عن حسرته لفقدان هذا الفهرس قائلا: " كم نتمنى لو أننا لم نفقد هذا الفهرس، لأن معظم الكتب التى كانت فى متناول علماء الإسكندرية فقدت تماما، وكثير غيرها من المؤلفات القديمة غير معروف لنا إلا عن طريق الاقتباسات القليلة التى نقل منها الناقلين"[3]

---

1 المرجع السابق ، ص 803

2 د. شعبان عبد العزيز خليفة ، الكتب والمكتبات فى العصور القديمة ، ص 290

3 جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ص 273

ويتفق مع هذا الرأى الدكتور شعبان خليفه الذى يؤكد أن الاقتباسات أو القطع التى تم العثور عليها" تكشف عن جهد عظيم وحس ببيبلوجرافي رائع. ويقع الفهرس فى 120 لفافة[1] أو مجلـد[2]، وهـو "أول فهرسـت منظم وضع فى التاريخ" [3] وقد وضع هذا الفهرس لما " صارت المكتبة غنية بحيث لايمكن استخدامها دون الاستعانة بفهرس هام"[4].ولضـخامة المكتبة " قام كاليماخوس بوضع فهارس الكتب وضمنها تاريخا موجزا لحياة أشهر المؤلفين".[5]

ويذكر جورج سارتون[6] أن الفهرس الذى وضعه كاليماخوس قسـم إلى ثمانية أقسام هى :

1- المؤلفون المسرحيون
2- شعراء الملاحم والأناشيد
3- المشرعون
4- الفلاسفة
5- المؤرخون

---

[1] د. شعبان خليفه ، المرجع السابق ، ص 290
[2] محمد احمد حسين ، مكتبة الإسكندرية، ص 26
[3] المرجع السابق ، ص 26
[4] جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 272
[5] إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص 803
[6] سارتون ، المرجع السابق ، ص ص 272-273
وأيضا : د. إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص 803

6- الخطباء

7- أساتذة علم الخطابة

8- مؤلفون متنوعون

لكن هناك كتابات أخرى [1] تقدم لنا تقسيما على عشرة أقسام هى:

1- شعراء الملاحم والشعر الغنائى بصفة عامة

2- الشعر التمثيلى (ويقسم فى داخله إلى التراجيديا والكوميديا)

3- القانون

4- الفلسفة

5- التاريخ

6- الخطابة (البلاغة)

7- الطب

8- العلوم الرياضية

9- العلوم الطبيعية

10- مجموعات

وقد نظر المؤرخون على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم إلـــى الفهــرس باعتباره أداه مفيدة ومهمة بالنسبة لعلماء الأكاديمية الذين زادوا عليــه على مر العصور [2]، وأنه من حيث القيمة العلمية يتجاوز كونه قائمـــة

---

[1] شعبان خليفه ، المرجع السابق ، ص 290 - 291

[2] محمد احمد حسين ، مكتبة الإسكندرية ، ص 26 - 27

عادية للكتب، "لأنه تضمن ملاحظات تاريخية وتحليلية"[1]ومن ثم كان في كثير من الأحيان يعطى حكمه على قيمة الكتاب وعلى مؤلفه الحقيقي"[2]، وهذه المسألة أفادت عمل الأجيال التالية، وأدت إلى معرفتنا ببعض الشذرات عن الكتابات المفقودة التى لم تصلنا أصلا. وهذا ما جعل الأستاذ سارتون يربط بين ما ورد من كتابات فى الفهرس وبين المؤلفين ويتساءل عن الكتب العلمية. إذ أن الفهرس بطبيعته ، وكما هو معروف لنا، عمل يدعو إلى الدهشة والإعجاب لضخامته، وهو فى الوقت نفسه وحسب التصنيف الذى يذكره الأستاذ سارتون يؤدى بنا أن نستنتج أنه ربما وضعت فى القسم الرابع مع الفلاسفة، أو فى القسم الثامن مع المؤلفين المتنوعين، وهو قسم الموضوعات المتنوعة الضرورى لاتمام أى خطة أو منهج للتصنيف.[3]

بيد أن العلامة جورج سارتون يشير فى الوقت نفسه إلى اختلاف الترتيب فى الأقسام، إذ الترتيب فى بعض الأقسام كان زمنيا، وفى أقسام أخرى كان موضوعيا، بينما فى أقسام أخرى كان يقوم على ترتيب حروف الهجاء. هذا فضلا عن أنه كان لكل كتاب عنوانه، واسم لمؤلفه، وكان فى كثير من الأحيان يناقش المؤلف فى أصل تأليفه

---

[1] سارتون ، المرجع السابق ، ص 273

[2] محمد احمد حسين ، المرجع السابق ، ص 27

[3] سارتون ،، تاريخ العلم ، ص 273

إذا لزم الأمر، ويذكر بعض السطور الأولى من الكتاب . وهذه الطريقة نجد تطبيقا لها فى كتاب الفهرست الذى وضعه ابن النديم ، مما يرجح أن تكون احدى نسخه قد وقعت لابن النديم بصورة أو بأخرى ، وهـذا ما لا تتوافر عنه معلومات مؤكدة . ويشير سارتون إلـى أنـه " مـن المحتمل أن بعض هذه الدلالات كانت تكتب مرة أخرى فـى البطاقـة المرافقة باللفافة البردية، لأن تصنيف عدد كبير من اللفـائف يتطلـب بعض إشارات للإهداء إليها، مع عمل بعض البطاقات لكل منها".[1]

إن هذا العمل لا يمكن بحال من الأحوال للأجيال الراهنة أن تقـدر قيمته العلمية إذا نظرنا إلى هذا الجهد بمنظور العصر الذى عاش فيـه كاليماخوس وهو المنظور الوحيد الذى يمكن لنا من خلال تقيـيم هـذا العمل لاكتشفنا ضخامته وأهميته التاريخية فى الوقت نفسه. وهـذا مـا جعل سارتون يطلق على كاليماخوس " لقب المفهـرس الأول"، وهـو أيضا ما جعل الدكتور شعبان خليفه يذهب إلى أن كاليمـاخوس "أهـم شخصيات تلك المكتبة على الإطلاق من وجهة نظر علم المكتبات وعلم الببيليوجرافيا حيث قام بإعـداد فهـرس المكتبـة الـذى اعتبـر أول ببليوجرافيا عالمية فى التاريخ"[2]، وهذا ما يجعله يسـتحق "لقـب أبـو الببليوجرافيا ".

---

[1] سارتون ، المرجع السابق ، ص 273
[2] شعبان خليفه ، المرجع السابق ، ص 289

والفهرس الذى أعده كاليماخوس على مايرى الأستاذ سارتون " مزود بالإيضاحات ومن المستطاع أن نسميه تاريخ الأدب اليونانى"[1]. وقد بين الأستاذ سارتون أهمية هذا الفهرس بمقارنته بعمل ابن النديم الذى أتى بعده فى القرن العاشر الميلادى ، يقول سارتون فى فقرة مهمة " ولكى نقدر هذا الفهرس القديم حق قدره يكفى أن نذكر كتاب الفهرست الذى ألفه محمد بن إسحاق بن النديم (النصف الثانى من القرن العاشر). وهو الكتاب الذى ندين له بجزء كبير مما نعرف عن الآداب العربية المفقودة التى ربما ظلت مجهولة لدينا كما هو الحال فى كثير من المؤلفات اليونانية الهامة"[2]. إن إنتاج مثل هذا العمل (الفهرست) شكل فى كلتا الحالتين (كاليماخوس – ابن النديم) عملا إبداعيا من الطراز الأول اعتبر علامة بارزة فى عصريهما.ولكن ربما جاز لنا أن نطلق مثل هذا الحكم على كاليماخوس الذى قدم لنا أول فهرست لمكتبة الإسكندرية، أما فى حالة ابن النديم فإن الموقف يختلف تماما . وآية ذلك أن ابن النديم وجد أمامه مادة علمية يمكن أن يقتبس منها وينهل عنها ويعمل على هداها، الأمر الذى لم يكن متاحا أمام كاليماخوس ، ومع هذا نقول إن العمل الذى قدمه ابن النديم يعتبر عملا ابداعيا ، لأنه قدم لنا ذخائر معرفية عن كتب لم تصل إلى أيدينا، كما

[1] سارتون ، المرجع السابق ، ص 273
[2] سارتون ، المرجع السابق، ص 273

قدم لنا معرفة واسعة لمادة علمية وردت فى كتابات انتشرت فى حضارات أخرى ولم تكن معروفة بالنسبة للمسلمين ، وانتقلت هذه المعرفة إلى العالم الأوروبى فيما بعد.

ابن النديم وكتاب الفهرست

والواقع أن المطلع على كتاب ابن النديم يلتقى بواجهة ثقافية عقلانية لها أهميتها من الناحيتين التاريخية والثقافية ،وكذلك من ناحية الدراسات المقارنة ، ومع أننا لانعلم على وجه اليقين ما إذا كان ابن النديم قد اطلع على بعض الكتابات القديمة عن الفهرست الذى وضعه كاليماخوس ، إلا أن هذا لايحول بيننا وبين التعرف على ما ذكره ابن النديم فى الفهرست لنعرف أواصر الصلات بين العملين من الناحية العامة.

يذكر ابن النديم فى صدر كتابه " هذا فهرست كتب جميع الأمم، من العرب والعجم ، الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم ، واخبار مصنفيها ، وطبقات مؤلفيها ، وانسابهم ، وتاريخ مواليدهم، واوقات وفاتهم ، واماكن بلدانهم ، ومناقبهم ، ومثالبهم ، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة ."[1] ثم يبدأ ابن النديم فى ذكر محتويات الفهرست التى يصنفها فى عشر مقالات وهى :

---

[1] ابن النديم ، الفهرست ،ص 3

المقالة الأولى ، وهى ثلاثة فنون:

الفن الأول : فى وصف لغات الأمم من العــرب والعجــم ، ونعــوت اقلامها، وانواع خطوطها ، واشكال كتاباتها .

الفن الثانى : فى اسماء كتب الشرائع المنزلة على مــذاهب المسلمين، ومــذاهب أهلها .

الفن الثالث : فى نعت الكتاب الــذى لا يأتيه الباطل من بين يديــه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . واسماء الكتب المصنفة فى علومــه ، واخبار القراء واسماء رواتهم ، والشواذ من قرائتهم .

المقالة الثانية ، وهى ثلاثة فنون فى النحويين واللغويين :

الفن الأول : فى ابتداء النحو ، واخبار النحويين البصريين وفصــحاء الاعراب ، واسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى اخبار النحويين واللغويين مــن الكــوفيين ، واســماء كتبهم.

الفن الثالث : فى ذكر قوم من النحويين خلطواالمــذهبــين ، واســماء كتبهم.

المقالة الثالثة ،.وهى ثلاثــة فنــون فــى الاخبــار والآداب والســير والانساب.

الفن الأول : فى اخبار الاخباريين والرواة والنسابين واصحاب الســير والاحداث ، واسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى اخبار الملوك والكتاب والمترسلين ، وعمال الخــراج واصحاب الدواوين ، واسماء كتبهم .

الفن الثالث : فى اخبار النــدماء والجلســاء (والأدبــاء) والمغنــين والصفادمة والصفاعنة والمضحكين ، واسماء كتبهم .

المقالة الرابعة ، وهى فنان فى الشعر والشعراء :

الفن الأول : فى طبقات الشعراء الجاهليين ، والاسلاميين ممــن لحــق الجاهلية ، وصناع دواوينهم ، واسماء رواتهم .

الفن الثانى : فى طبقات شعراء الاسلاميين وشــعراء المحــدثين إلــى عصرنا هــذا .

المقالة الخامسة ، وهى خمسة فنون فى الكلام والمتكلمين :

الفن الأول : فى ابتداء امر الكلام والمتكلمين من المعتزلــة المرجئــة، واسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى اخبار متكلمى الشيعة الامامية والزيدية وغيرهم مــن الغلاة والاسماعيلية ، واسماء كتبهم .

الفن الثالث : فى اخبار متكلمى المجبرة والحشوية ، واسماء كتبهم.

الفن الرابع : فى اخبار متكلمى الخوارج واصنافهم ، واسماء كتبهم.

الفن الخامس : فى اخبار السياح والزهاد والعباد والمتصوفة المتكلمين على الوسواس والخطرات ، واسماء كتبهم .

المقالة السادسة ، وهى ثمانية فنون فى الفقه والفقهاء والمحدثين :

الفن الأول : فى اخبار مالك واصحابه ، واسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى اخبار ابى حنيفة (النعمان) واصحابه ، واسماء كتبهم.

الفن الثالث : فى اخبار الامام الشافعى واصحابه ، واسماء كتبهم .

الفن الرابع : فى اخبار داود واصحابه ، واسماء كتبهم .

الفن الخامس : فى اخبار فقهاء الشيعة ، واسماء كتبهم .

الفن السادس : فى اخبار فقهاء اصحاب الحديث والمحدثين ، واسماء كتبهم .

الفن السابع : فى اخبار ابى جعفر الطبرى واصحابه ، واسماء كتبهم.

الفن الثامن : فى اخبار فقهاء الشراة ، واسماء كتبهم .

المقالة السابعة ، وهى ثلاثة فنون فى الفلسفة والعلوم القديمة :

الفن الأول : فى اخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين واسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجودة منها وما ذكر ولم يوجد وما وجد ثم عدم.

الفن الثانى : فى اخبار اصحاب التعاليم ، المهندسين والأرثماطيقيين والموسيقيين والحساب المنجمين وصناع الآلات واصحاب الحيل والحركات .

الفن الثالث : فى ابتداء الطب واخبار المتطببين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها .

المقالة الثامنة ، وهى ثلاثة فنون فى الاسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعبذة :

الفن الأول : فى اخبار المسامرين والمخرفين والمصورين واسماء الكتب المصنفة فى الاسمار والخرافات .

الفن الثانى : فى اخبار المعزمين والمشعبذين والسحرة واسماء كتبهم.

الفن الثالث : فى اسماء الكتب المصنفة فى معان شتى لا يعرف مصنفوها ولا مؤلفوها .

المقالة التاسعة ، وهى فنان فى المذاهب والاعتقادات :

الفن الأول : فى وصف مذاهب الحرانية الكلدانيين المعروفين فى عصرنا بالصابئة ومذاهب الثنوية ، من المنانية والديصانية والخرمية والمرقيونية والمزدكية وغيرهم واسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى وصف المذاهب الغريبة الطريفة كمذاهب الهند والصين وغيرهم من اجناس الأمم .

المقالة العاشرة ، وتحتوى على اخبار الكيمائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين واسماء كتبهم .

لاشك إذن أن هناك تشابهات بين ابن النديم وكاليماخوس ، فمن الواضح أنهما اتخذا قاعدة موضوعية للتصنيف وهذه القاعدة فى حالة كاليماخوس تستند إلى ترتيب الفنون ، أما فى حالة ابن النديم فإنها

تستند إلى استقراء المـذاهب ، وهـذا الاستقراء استند بـدوره إلـى الترتيب التاريخى وهو مانلاحظه أيضا فى كلام ابن النديم فى مقدمـة الكتاب .

ومن جهة ثانية نجد أن ابن النديم يـذكر كتابات المفكرين وبعـض أقوالهم وترجمات كتبهم إلـى اللغـة العربيـة ، واسـم المتـرجم أو المترجمين إن تعددت الترجمات وقيمة هـذه النقطة بالـذات تتمثل فى أنها المفتاح فى كثير من الحالات لمعرفة الترجم الأصلى وطبيعة عمله ونشاطه الفكرى وكيفية الترجمة ، أو الطريقة التى اعتمد عليهـا فـى الترجمة من الأصل الـذى كان لديه إذا كـان سـريانيا أو يونانيـا أو فارسيا أو هنديا أو غير ذلك من اللغات الآخرى . أضف إلى هـذا ما يصوره لنا ابن النديم عن العصور التى ترجمت فيها الكتب أو المقالات وهو فى هـذا يتشابه مع كاليماخوس الـذى ذكر فى الفهرست الـذى عمله بعض مقاطع من الكتب التى ذكرها. وهـذا التشابه ربما تكون له جوانب أخرى لدى كل منهما، إذ من الواضح أنهما معا حرصا علـى ابراز أهمية الكتابات المـذكورة. لكن إذا كانت المسألة محـدودة فـى عصر كاليماخوس فإنها ليست كـذلك عند ابن النديم ، فقـد تراكمـت المعارف والكتابات التى وصلت ابن النديم على مدى أكثر مـن ألـف عام.

لكن يجب علينا أيضا أن نلاحظ أن الفهرست الــذى عمله ابن النديم يختلف إلى حد كبير عن الفهرست الـــذى عملــه كاليمــاخوس . إذ الفهرست فى حالة ابن النديم جاء تسجيلاً لكتابات موجــودة أو وردت عنها أخبار أواختفت ، ولم يقصد به أن يكون فهرسا لمكتبة بعينها مثل بيت الحكمة أوغيرها ، هو مجرد سجل احصائى لما اتيح لابن النــديم أن يعرفه من كتابات . لقد ذكر ابن النديم فى الفهرست أكثر من ســتة آلاف كتاب وذكر من الأعلام ثلاثة آلاف وخمســمائة علــم تقريبــا . ولاشك أن هــذا العدد الكبير من الأعلام والكتابات التى ذكرهــا ابــن النديم يدل على سعة ثقافته واحاطته بالكتب القديمة والحركــة الثقافيــة والعلمية التى كانت قريبة العهد به. لكنه بطبيعة الحال لم يتطرق إلـــى ذكر كتب أخرى صدرت بلغات أخرى غير العربية والفارســية ممــا لايعرفه ابن النديم ، لكنه مع كل هــذا قــدم لنــا عــددا كبيــرا مــن الأبجديات للشعوب المختلفة فى مستهل كتابه الفهرست . وهــذه مسألة مهمة تكشف عن طبيعة وغزارة الانتاج الفكرى والثقافى فى عصر ابن النديم . وربما لو تيسر لابن النديم أن يقدم لنا احصاء للكتابــات التــى كانت موجودة فى بيت الحكمة لأمكنه أن يقدم لنا أشياء كثيرة لم نعرف عنها أصلا ولم تصل إلينا خاصة ونحن نعلم أن اجتياح المغول بغــداد بعد عصر ابن النديم بأكثر من قرن ونصف نتج عنه فقــدان وضـــياع الكتب التى عبرت عليها جيوش الغزاة وداستها سنابك الخيل فى نهــر

دجلة . لم يقصد ابن النديم إذن إلى تصنيف مكتبة من المكتبات ، وإنما كان كل همه أن يقدم لنا خلاصة لثقافة عصره. وربما لو ذكر لنا ابن النديم ما كان موجودا فى المكتبات العامة والخاصة لأمكن لنا أن نعرف أشياء كثيرة مما ضاع وفقد .

لكننا نلاحظ أيضا أن فهرست ابن النديم قدم لنا احاطة وافية بالثقافة اليونانية وفلاسفة اليونان القدماء ، وفلاسفة وحكماء الإسكندرية وذلك من خلال استعراض كتاباتهم وأهم الترجمات التى عملت لها فى العالم الإسلامى وأهميتها ، ومن خلال هذا التتبع استطاع أن يرصد جوانب كثيرة من الكتابات التى لم تصلنا أصلا . والأكثر من هذا أنه قدم لنا بعض الأخبار المهمة عن الكوارث التى حلت بكتابات بعض المفكرين والعلماء فى مدرسة الإسكندرية القديمة مثل أرشميدس الذى ذكر أن الروم حرقت كتبه .

أما الفهرست الذى وضعه كاليماخوس فإنه جاء تصنيفا لكتابات موجودة فى مكتبة الإسكندرية القديمة وكانت تحت يدى المفهرس، وقد عملت لها بطاقات داخل المكتبة حتى يمكن لرواد المكتبة أن ينتفعوا بها بصورة دقيقة وحتى يمكنهم الحصول على الكتب التى يريدونها .

إذن جاء فهرست كاليماخوس حصيلة للعمل العام داخل مكتبة الإسكندرية لسنوات طويلة ومن واقع أرفف المكتبة وبياناتها ، على حين جاء فهرست ابن النديم ليكشف عن طبيعة المشروع الثقافى الذى

اتجه إليه ابن النديم ، والـذى أراد أن يقدمه خلاصة لعقـل عصـره وطبيعته الابداعية . والذى نعتبره بمثابة اللبنة الأولـى فـى الثـورة المعلوماتية التى أراد ابن النديم أن يحققها ، وهو الأمر الـذى يجعـل الباحثين بصفة دائمة ينقبون فى هذا المؤلف المهم الذى لاشك فى أنـه يكشف عن طبيعة عصر التدفق المعرفى بكل أبعاده .

لابد أيضا أن نشير هنا إلـى أن كتـاب الفهـرس الـذى قدمـه كاليماخوس لاتوجد منه نسخة تحت أيدينا أو فى الكتابات التى دونـت باليونانية أواللاتينية أو غيرها بعد عصر كاليماخوس ، على حـين أن كتاب الفهرست الـذى دونه ابن النديم نسـخه موجـودة بـين أيـدينا ونعرف مافيه من معلومات .

إن الملاحظ المدقق فى الكتابين يجد أنهما كانا يعبران عـن الوجـه الثقافى للعصر الـذى عاش فيه كاليماخوس وابن النديم ، وهـذا يعنى أن الطابع الثقافى العام لعصريهما اتسم بالطابع الشمولى الموسـوعى . وهـذا يعنى من جانب آخر أن المعرفة فى ذلك العصر كانت أقـرب إلى النزعة الكلية أكثر من اتجاهها إلى الناحية التخصصية الجزئيـة . أضف إلى هـذا أن الموسوعات توفر مصـادر متعـددة للمعلومـات يقصدها كل من يبحث عن المعلومة من الناحية التاريخية فى تطورهـا وأبعادها الأساسية .

كل هــذا يلقى الضوء على تفكير القدماء ويكشف عــن اهتمامهــا بمصادر المعلومات وكأن لسان حالهم يقول أنهم وضعوا أسس عصــر المعلومات الــذى نعيشه الآن .

الفصل الخامس

علماء الإسكندرية

يبدو أن الإسكندرية كانت دائما وأبدا على موعد مع القدر وهو ما تكشف عنه صفحات التاريخ الطويل المجيد لهذه المدينة التى شهدت نهضة عالمية عبر سنوات طويلة ، وكانت دائما موضع أنظار القادمين إليها من الشرق والغرب على السواء . الواضح للعيان أن هذه النهضة شكلت بدورها تطلع الإسكندرية الدائم إلى مزيد من التقدم والازدهار ، وقد انعكس هذا بدوره على اسهامات أجيال العلماء الذين أنجبتهم الإسكندرية والذين أتو إليها وعاشوا حياتهم فيها يقدمون العطاء المتواصل جيلاً من بعد جيل.

لقد شكلت مدرسة الإسكندرية القديمة نقطة انطلاق حضارى مهمة فى العالم القديم والحديث على السواء بالنسبة لشعوب البحر المتوسط ، خاصة بعد تأسيس المتحف والمكتبة وانتقال التراث الثقافى الأدبى والعلمي من أثينا ومن غيرها من بقاع العالم إلى الإسكندرية مما جعل هذه المدينة أكبر المراكز العلمية الحضارية فى العالم القديم ، ونقطة التقاء محورية لشعوب الشرق والغرب.

برز فى الإسكندرية العديد من العلماء الذين طبقت شهرتهم الآفاق وبقيت مؤلفاتهم وكتاباتهم خالدة عبر الزمان ، مثل كتابات اقليدس عالم الرياضيات المشهور الذى ظلت هندسته موضع اعجاب وتقدير العالم أكثر من ألفى عام ومثل كتابات بطلميوس الفلكية والجغرافية ، وغيرهما

من العلماء والمفكرين الذين قدموا انجازات علمية رائدة بهرت العـــالم ، بل وشكلت الروح العلمى لقرون عديدة .

ونحن إذا أردنا أن نتناول علماء الإسكندرية عبـــر العصـــور فـــإن الحديث سوف يطول بنا ويمتد ليشمل العديد من العلمـــاء والتخصصـــات العملية والأدبية وغيرها التى أثرت الحياة العلمية فى الإسكندرية ، ولكن حسبنا هنا أن نشير إلى نماذج قليلة للمفكرين الذين أثروا فى تارخ الفكر العالمى بصورة ايجابية ، أدت إلى نهضة البشرية وأثرت فى حضـــارات أخرى عبر التاريخ . وبطبيعة الحال فإن تناول الأمثلة التى اخترناها إنما جاء لابراز المكانة العلمية الراقية التى احتلها الفكر الســـكندرى علميـــا وتاريخيا مما جعله فكرا عالميا، بل ويشكل دائرة مهمة من دوائر حضارة العلم بصفة عامة . من هم إذن أهم علماء الإسكندرية ؟ وماهى الاضافات التى قدموها من خلال فكر مدرسة الإسكندرية ؟

ربما كان العالم والطبيب السكندرى هيروفيلوس من أشهر وأهم العلماء السكندريين الـــذين ظهروا فى فترة تألق وازدهار العلوم فى الإسكندرية وأثروا بعمق فى تطور وحياة العلم وتاريخ الطب بصفة خاصة . ولاشك أن هـــذا يدفعنا إلى التساؤل عن مكانة هـــذا العالم الســـكندرى وطبيعـــة اسهاماته وكيف كانت نبراسا للبشرية.

1- هيروفيلوس

يذكر ويل ديورانت أن هيروفيلوس الذى عاش فى الإسكندرية حوإلى عام 285ق.م ونبغ فى عهد بطلميوس سوتير ، قام بتشريح العين ووصف الشبكية وأعصاب النظر وصفا طبيا وكذلك قام بتشرح المخ ووصف مقدم الدماغ والمخيخ والسحايا ، وجعل المخ مركز التفكير وبذا أعاد له مكانته السامية . وهو أول من فهم وظيفة الأعصاب وقسمها إلى أعصاب حس وأعصاب حركة، وفصل أعصاب الجمجمة عن أعصاب النخاع الشوكى، وميز الشرايين من الأوردة، وحدد وظيفة الشرايين بأنها هى الأوعية التى تحمل الدم من القلب إلى مختلف أجزاء الجسم. وضم جس النبض إلى وسائل تشخيص الأمراض واستخدم الساعة المائية لقياس عدد ضربات القلب . وشرح المبيض والرحم والحويصلات المنوية وغدة البروستاتا ووصفها ، ودرس الكبد والبنكرياس وسمى الأمعاء الاثنى عشر باسمها. وبالجملة هو أعظم علماء التشريح فى العهد القديم .

ومن ثم فإن هيروفيلس على ما يذهب سارتون "أول مشتغل بالتشريح العلمى "[1] ، ولذا فإنه يعتبر الباحث الرئيسى فى ميدان التشريح ، إذ قد بلغت مشاهداته من الطول بحيث يبدو لمن يطالعها كأنها ثبت محتويات مختصر جامع فى علم التشريح ، ومع هذا فإننا نرى مبالغة فى هذا الرأى من جانب سارتون ، خاصة وأن المصريين القدماء كانوا رواد التشريح وهذا ما كشفت عنه بردية أودوين سميث. ولكن أطباء

[1] سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة ، ص 34

الإسكندرية من بعد هيروفيلوس افتتحوا عصر التشريح، وسوف يتبين لنا أن هذا التقليد سوف يتبع فى مدرسة الإسكندرية على مر العصور وسوف ينتقل إلى جالينوس ومن بعده سينتقل إلى العلماء العرب . سـوف يتـابع الرازى دروسه فى التشريح ويشترط على المتعلمـين لدراسـة الطـب ضرورة اتقان التشريح فى بداية الأمر ، وسوف ينطلق الحسن بن الهيثم فى دراسته للعين وتشريحها إلى احداث ثورة علمية متكاملة فـى مجـال البصريات.

2- ارستراتوس Erasistratos

وهو من أهم علماء الإسكندرية وأطبائها المشهوريين فقد عـاش فـى الإسكندرية حوإلى عام 258 ق.م ، وقد واصل المسح التشريحى واهـتم أكثر من سابقيه بوظائف الأعضاء. وميز بدقة المخ من المخيخ ، وأجرى العديد من التجارب على الأجسام الحية لدراسة عمليات المخ المختلفـة ، ووصف وشرح عمل الأوعية اللمفاوية فى غشاء الأمعـاء والصـمامين الأورطى والرئوى فى القلب . ويذكر أن كل عضو يتصل بسائر أجـزاء الكائن الحى بثلاث طرق ، بشريان ووريد وعصـب . وحـاول تعليـل الظواهر الفسيولوجية بعلل طبيعية .ورفض نظرية الأخلاط التى ذهـب إليها هيبارخوس التى احتفظ بها هيروفيلوس .وقرر أن الطب هو فن منع المرض بمراعاة قواعد الصحة ، وليس هو علاج لمرض بدواء . وكـان يقاوم كثرة استعمال العقاقير، ويعتمد على تنظـيم التغذيـة والاسـتحمام

والرياضة. وقد أثر هذا الاتجاه على كثير من الأطباء العــرب وجعلهــم يتجهون إلى العلاج بالغذاء ، والنصح بالرياضة.

3- اقليـــــدس

أما اقليدس Euclid فيعتبر من أهم الشخصيات العلمية الســكندرية ، وقد استقى أهميته عبر التاريخ من خلال كتابه المعروف باسم " الأصول" الذى طبقت شهرته الآفاق ، لاحكام نسقه الرياضى وفق أصول المــنهج الاستنباطي Deductive Method الذى طبقه بصورة رائعة مما جعله مقصد الرياضيين والمفكرين عبر العصور.

ويذكر العلامة جورج سارتون أن اقليدس السكندرى عاش فى عصــر بطلميوس الأول ، وربما امتدت حياته إلى أيام فيلادلفيوس . ويروى لنــا بعض الأمور التى تنبىء عن شخصيته كعالم . قيل أن بطلميــوس الأول سأله ذات يوم إن كان يوجد فى الهندسة طريــق أقصــر مــن طريــق الأصول؟ فأجابه بأن الهندسة لايوصل إليها طريــق ملكــى . ويســتنتج سارتون من هذه القصة أنه ربما لا تكون صادقة من الناحية التاريخيــة ، لكنها تنطوى على حقيقة مهمة وهى أن الرياضيات لا تأبه للأشــخاص . لكن سارتون يذكر قصة أخرى عن اقليدس إذ سأله أحد المتعلمين عليــه عن القيمة التى سوف يجنيها من تعلم الهندسة ؟ فنادى اقليدس على عبده وطلب إليه أن يرد عليه ماله . أما القصة الأولى فقد رواها برقلس ، وأما

الثانية فقد قصها ستوبايوس وكلاهما عاش فى النصف الثانى من القـــرن الخامس.

ومع أن سارتون يتتبع حياة ونشاط اقليـــدس ، إلا أنــــه يؤكـــد عـــدم اتصالهبالمتحف بصفة رسمية ، لكنه مع هذا لابد وإنه كان على اتصــــال بالمكتبة . وباعتباره عالما رياضيا لم يكن بطبيعة الحال بحاجة إلى آلات وأدوات حتى يستعين بالمتحف ، وإنما كان بحاجـــة إلـــى المخطوطـــات والكتب الموجودة فى المكتبة ليتم أعماله منها .

ويبين سارتون أن الخلط كثيرا ماحدث لـــدى الكتـــاب بـــين اقليـــدس السكندرى واقليدس الميغارى . إن اقليدس الميغارى أحد تلامذة ســـقراط المخلصين الذين حضروا وفاة سقراط ، وهو أيضا صديق لأفلاطـــون ، وصاحب مدرسة فلسفية أسسها فى ميغارى . وفى هـــذا الصـــدد يشـــير سارتون إلى أن الخلط الذى حدث بين الرجلين ظل قائما فـــى الكتابـــات المختلفة حتى أواخر القرن السادس عشـــر حيـــث صـــححه فيـــديريجو كوماندنيو Federigo Commandino فى ترجمته اللاتينية التى ظهرت فى بيسارو عام 1572 . ومن بعد ذلك بدأ الناس يتحدثون عن اقليـــدس الرياضى ونسوا اقليدس الميغارى .

وتشكل مسيرة اقليدس العلمية بعدا جديدا فى إطار الدراسات الرياضية من الناحية التاريخية، والمتتبع لاسهاماته بشىء من التركيـــز والتـــدقيق يكتشف أثر هندسته فى العالم العربى ، وكيف تناولها العلمـــاء العـــرب،

والتطورات التى طرأت عليها. نتناول هذا الجانب من خــلال المســلمة الخامسة. وبيان كيف تطورت المعرفة العلمية فى هذا الجانب فى العصر الحديث واسهام مدرسة الإسكندرية المعاصرة فى هذا الاطار.

اقليدس وكتاب الأصــــــول

يعتبر اقليدس من أهم العلماء الرياضيين الذين ظهروا فى الإسكندرية ولمعوا فى مدرستها فى حدود النصف الأول من القــرن الثالــث قبــل الميلاد. وترجع أسباب شهرته إلى أمرين : **الأول** تدوينه لكتاب "أصــول الهندسة " وهــذا الكتاب كان موضع اهتمام علماء الاغريق أنفسهم وهــو ما يشير إليه ابن النديم الــذى يــذكر أن هــذا المؤلف كان موضع شرح من جانب ابسقلاوس وسنبليقوس الزفنى وبلس وايرن[1]. والأمر الثــانى المسلمة أو المصــادرة الخامسة التى دارت حولها البحــوث والدراســات لقرون طويلة ، وأدت الدراسات التــى أجريــت حولهــا إلــى تطــوير الرياضيات واكتشاف أنساق رياضية وهندسية جديدة . نتناول فيما يلــى من فقرات الحديث عن كتاب "اصول الهندسة " ثم المصادرة الخامسة.

محتويات كتاب أصول الرياضيات

يتألف كتاب أصول الهندسة من ثلاثة عشر كتابا يمكن تصــنيفها فــى المجموعات :

---

[1] ابن النديم ، الفهرست ، ص ص 325 وما بعدها

أ – مجموعة الكتب من الأول إلى السادس وتتناول الهندسة المستوية بكل موضوعاتها. حيث تتناول المقالة الأولــى التعريفــات والمصــادرات ، والنظر فى المثلثات والمتوازيات والأشكال المتوازية الأضلاع وغيرها. وأما المقالة الثانية فتحتوى على الجبر الهندسى. وخصصت المقالة الثالثة لتناول هندسة الدائرة . على حين أن المقالة الرابعــة تــدرس الأشــكال المنتظمة الكثيرة الأضلاع . والمقالة الخامسة نظريية جديدة فى التناســب يطبقها اقليدس على المقادير المشتركة (المنطقة) والمتباينة (الصماء). وأما المقالة السادسة فهى تطبيقات لهذه النظرية على الهندسة المستوية .

ب – مجموعة الكتب من السابع إلى العاشر وتتناول الحســاب ونظريــة الأعداد والكميات المنطقية والجذور الصماء.

ج – مجموعة الكتب من الحادى عشر إلى الثالث عشر وتتناول الهندسة الفراغية والمجسمات.

ويرى سارتون أنه قد أضيفت إلى كتاب الأصول فى فترات لاحقــة مقالتان أخريان عرفتا بالمقالة الرابعة عشرة والمقالة الخامسة عشــرة ، واحتواهما كثير من النسخ والترجمات منهــا المخطــوط والمطبــوع . والمقالة الرابعة عشرة على مايعتقد هى من وضع ابسقلاوس الســكندرى فى مطلع القرن الثانى قبل الميلاد ، وهى مقالة تشــهد بقــدرة رياضــية فائقة. أما المقالة الخامسة عشر فترجع إلى عصر متأخر وهى أقل شأنا.

ويشير سارتون إلى أنه من آثار تأملات أفلاطون المغرقة فى الخيال أن اكتسبت نظرية المجسمات الكثيرة السطوح قدرا عظيما من الأهمية . ومن ثم رأى الناس أن علم الهندسة يبلغ قمته عند الوصول إلى معرفـة الأجرام الأفلاطونية، وفى رأى برقلس أن اقليدس كان أفلاطونيـا أقـام صرح هندسته بقصد تفسير الأشكال الأفلاطونية ، ولكن سارتون يؤكد أن هذا الرأى ظاهر الخطأ. إن نظرية المجسمات المنتظمـة هـى النتيجـة الطبيعية لهندسة المجسمات، ومن ثم كان لابد لكتاب الأصول أن ينتهـى عندها . وفى رأى سارتون أنه كانت هناك اسهامات سابقة على اقليـدس لأكثر من ألف عام ، لكن عبقريته ترجع إلى أنه كان أول جـامع لهـذه المعارف ، وقد رتبها فى نسق منطقى متماسك .

ويعتمد كتاب " الأصول " بصفة أساسية على فكرة النسق الاسـتنباطي Deductive System ،هذا بالإضافة إلى أن النسق الإقليدى يستند إلى بديهيات وتعريفات ومسلمات.نقدم فيما يلى تعريفا بالنسـق الاسـتنباطى بصفة عامة ، ثم نعرض لمكونات نسق اقليدس .

يقول العالم المصرى الدكتور محمد ثابت الفندى " حقيقة أنه لا يوجـد علم أكثر عراقة فى تاريخه من فلسفة الرياضة. فقـد دخلـت الرياضـة مرحلة اليقين العلمى منذ أقدم المفكرين الذين حفظ لنا التاريخ أسـماؤهم: طاليس وفيثاغور . كما أنه لا يوجد علم إنحدر ألينا عبر القـرون كبنـاء وثيق شاهد بالعبقرية العلمية للإنسان مثل هندسة الرياضـى الإسـكندرى

إقليدس "[1]. هذا البناء الذى شيدت الرياضيات وفقا له هو مـــانطلق عليـــه النسق الاستنباطى الذى ينطلق ابتداءً من بديهيات وتعريفـــات ومســـلمات معينة ليبرهن على مجموعة من النظريات أو اللواحق باســـتخدام قاعـــدة التعويض أو قاعدة اثبات التالى .

فكأن مايميز الرياضيات كعلم دقيق يتسم باليقين المطلق إنما هو ذلـــك البناء النسقى المحكم ، أو ما يعرف بالنسق الاستنباطى الذى يستمد اليقين من كون الاصول التى يبدأ منها مستقلة عن الواقع التجريبـــى أو عـــالم الخبرة ، ومن كونها قد صدرت عن العقل البحت – ولا شىء غير العقل البحت– وتخضع لشروطه .

والواقع أننا نجد المنطق يشترك أيضا مع الرياضيات فـــى الخاصـــية الاستنباطية ، وربما من الناحية المنهجية وجدنا المنطق أسبق إلى البنـــاء النسقى الاستنباطى من الرياضة . إن الرياضيات والمنطق يستندان معـــا إلى خاصية الاتساق المنطقى ، وهى تلك الخاصية التى تصدر بـــدورها عن مبدأ عدم التناقض ، وهو من أهم المبادىء والقوانين المنطقيـــة . إن قانون عدم التناقض هو القانون المحورى الذى تأســـس عليـــه المنطـــق كعلم،وهو ثانى قوانين المنطـــق. ومنـــذ اكتشـــفت بعـــض المخالفـــات Paradoxes الرياضية بدأ علماء الرياضيات يتحدثون عن التناقضـــات، وهو ما نألفه فى كتابات رسل وغيره من الكتاب.

---

[1] د. محمد ثابت الفندى ، فلسفة الرياضة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1969 ، ص 13

إن أقدم نسق منطقى متكامل عرفته البشرية على الاطـلاق واسـتخدم وأسس على فكرة النسق الاستنباطى هو نسق المنطق الارسـطى الـذى أودعه أرسطو نظرية القياس : قد لا تكون الرياضـيات أقـدم وأعـرق تاريخا من المنطق ، لأن الرياضيات لم تنتظم فى نسق استنباطى محكـم إلا فى عصر اقليدس (300 ق . م) على مايذكر الدكتور الفندى ، ولكن من الواضح أن فكرة النسق الاستنباطى متحققة عند أرسطو (384-321 ق . م) فى نظرية القياس ، وهو ما يجمع عليه المناطقة ومؤرخو الفكر المنطقى.

أولا : البديهيـــات

- الأشياء المساوية لشئ واحد متساوية.
- إذا أضيفت أشياء متساوية إلى أشياء متساوية كان الناتج متساوى.
- إذا طرحت أشياء متساوية من أشياء متساوية كان الناتج متساوى.
- بإضافة أشياء متساوية إلى أشياء غير متساوية نحصل علـى نـواتج غير متساوية.
- بطرح أشياء متساوية من أشياء غير متساوية نحصل على نواتج غير متساوية.
- أضعاف الشى الواحد متساوية.
- أنصاف الشئ الواحد متساوية.
- المقادير التى ينطبق الواحد منها على الآخر متساوية.

- الكل أكبر من الجزء .

ثانيا : التعريفـــــات

- النقطة هى ماليس له أجزاء .
- الخط طول بلا عرض .
- حد الخط نقطتـــان .
- المستقيم يقع بين نقطتى نهاية .
- السطح له طول وعرض فحسب .
- الخطوط هى نهاية السطوح .
- السطح المستوِى هو الذى يقع عليه أى خط مستقيم .
- الزاوية المستوِية تنشأ من ميل خطين متقابلين الواحد منهما على الآخر بحيث يكون لكل خط اتجاه مخالف للآخر ، وهكذا

ثالثا : المسلمـــــات

- يمكن رسم مستقيم واحد بين نقطتين.
- يمكن مد مستقيم إلى أى طول .
- يمكن رسم دائرة من أى مركز.

إن بناء النسق الإقليدى بالبرهان الذى يتقدم من البسيط إلى المعقـد ثـم الأكثر تعقيدا، فيبرهن على النظريات البسيطة ثم يتدرج منها إلى نظريـات معقدة ، وينتقل من هذه وتلك إلى النظريات الأشد، وهكذا.

وكتاب " الأصول " كان من بين الكتابات المهمة التى انتقلت إلى العرب إبان حركة الترجمة والنقل ، حيث قام بترجمته إلـى العربيـة لأول مـرة

الحجاج بن يوسف بن مطر الذى ترجمه للخليفة هارون الرشيد فى أواخـر القرن الثامن الميلادى، ثم فى عهد الخليفة المأمون إبان فترة تأسيس بيـت الحكمة فى بغداد فى بداية القرن التاسع الميلادى قام الحجاج بـن يوسـف بتصحيح ترجمته الأولى وعمل ترجمة جديدة للكتاب. وقد عرفت الترجمـة الأولى بالنقل الهارونى ، والترجمة الثانية بالنقل المأمونى. ويذكر ابن النديم فى الفهرست أن كتاب أصول الهندسة نقله أيضا إسحاق ابن حنين وأصـلح ثابت ابن قرة هـذا النقل ، ثم نقله أيضا أبو عثمان الدمشقى وقسـطا بـن لوقا[1].

إذن أصبح كتاب " الاصول " بين أيدى الرياضيين والمفكـرين العـرب وهى مسألة تهمنا بالدرجة الأولى ، إذ أن نقل هـذا الكتاب أحدث نقلة مهمة فى الفكر العربى العلمى لأنه كان قيد الشرح والشك والتصحيح . أما الشرح فيتمثل فى أن هـذا الكتاب عملت عليه شروح متعددة من أهمهـم جميعـا شرح محمد بن موسى الماهانى ، والفضل بن حاتم النيريزى ، وثابت بـن قرة ، وأبو جعفر الخازن وأبو الوفا البوزجانى ، وابن ناهويه الارجـانى ، وأبو القاسم الأنطاكى ، وسند بن على ، وأبو الحسن بن كرنيب ، وأحمد بن الحسين الأهوازى ، ونظيف القس وغيرهم من الرياضـيين فـى القـرن التاسع[2]. وأما الشكوك فتزودنا كتب التراث ، وبصفة خاصة ابن النـديم ، بعدد من كتابات الشكوك التى عملت على كتاب الأصول التى من بينهـا "

[1] ابن النديم ، الفهرست ، ص 325
[2] المرجع السابق ، 340 وما بعدها

شكوك كتاب اقليدس " من وضع قسطا ابن لوقا . كذلك فإن من أهم الشكوك التي وضعت على كتاب اقليدس ما دونه العلامة العربى الحسن بن الهيثم(+ 430 هـ)، وهذا الكتاب بين أيدينا حيث إننا نقوم بتحقيقه ودراسته الآن، وسوف يرى النور قريبا. وفى هذا الاطار أيضا نجد مجموعة الحلول التي من بينها " اصلاح كتاب اقليدس" للكندى ، ثم "اصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة من كتاب اقليدس " وهى من وضع الكندى أيضا[1] "، شرح المشكل من كتاب اقليدس " وقد وضعه الكوهى وامتد هذا التأثير فيما بعد ليشمل كل الرياضيين الذين جاءوا فى الفترة الواقعة مابين القرن العاشر والقرن الخامس عشر ومن أهمهم جميعا الحسن بن الهيثم الذى وضع " حل الشكوك على اقليدس". ثم المحاولات التى قام بها نصير الدين الطوسى فى شأن المصادرة الخامسة. وقد تتبع جورج سارتون فى الجزء الرابع من تاريخ العلم المنحنى التاريخى للمصادرة الخامسة ، وكذلك فعل الدكتور عبد الحميد صبره فى مناقشته " برهان نصير الدين الطوسى على مصادرة اقليدس الخامسة ".

والواقع أن كتاب " أصول الهندسة " لاقليدس انتقل إلى العالم اللاتينى عبر الترجمة العربية فى فترة مبكرة ، وإبان حركة انتقال العلم العربى إلى أوروبا ، وأصبح الكتاب كاملا فى أيدى علماء الغرب فى صورته العربية المترجمة إلى اللاتينية مزودا فى طبعات مختلفة بالاضافات والتعليقات والشروحات التى وضعها العلماء العرب على الكتاب .

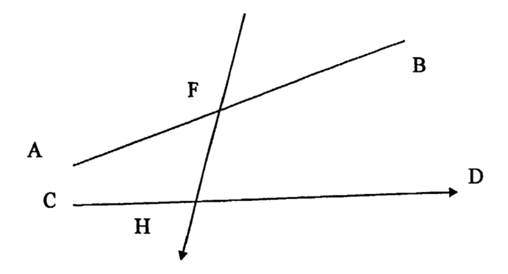
[1] المرجع السابق ، ص 317

ويهمنا فى هذا الصدد أن نشير إلى أن كتابات العلماء السكندريين خاصة اقليدس وبطليموس ، فى مجالى الرياضيات والفلك ، حظيت بنصيب كبير من الدراسة والبحث لدى العلماء العرب .

المسلمة الخامسة

يشير نص المسلمة الخامسة كما وضعه جورج سارتون إلى أنه: اذا قطع مستقيم مستقيمين ، وكان مجموع الزاويتين الداخلتين فى نفس الجانب أقل من قائمتين ، فان المستقيمين اذا مدا بدون حد يتلاقيان على نفس الجانب الذى تكون فيه الزاويتان أقل من قائمتين.

هذه المسلمة يمكن توضيحها رياضيا كما يلى :



تقرر المسلمة التقاء الخطين المستقيمين المرسومين فى سطح واحد مستوٍ ، ان تحقق شرط معين : ليكن لدينا AB ، CD هما الخطين المستقيمين المرسومين ، وليكن FH قاطعا لهما بحيث إن مجموع الزاويتين BFH ، FHC أقل من قائمتين.
المسلمة الخامسة تقرر أن الخطين لابد أن يلتقيا[1] ان أخراجا باستمرار فى جهة B، C

لقد شكلت المسلمة الخامسة محور اهتمام الرياضيين خاصة بعد أن تناولها بطليموس الفلكى فى النصف الأول من القرن الثانى ، ثم جاء بعد بروقلس Proclos فى النصف الثانى من القرن الخامس وتناولها بشئ من التفصيل والاعتراض على محاولة بطليموس. وبعد أن نقلت علوم العرب إلى أوروبا تناول اليهودى ليفى بن جرسون المسلمة بالدراسة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر، ثم جاءت محاولة جون واليس(1616 – 1703) ومحاولة ساكيرى (1667 – 1732) ويوحنا هينرش لابرت (1728 – 1777) والفرنسى مارى لجندر (1752 – 1833) وهناك اسماء أخرى يمكن اضافتها إلى هذه القائمة.

ومن خلال المحاولات السابقة يمكن الاشارة إلى التعديلات التالية :

[1] راجع فى ذلك : عبدالحميد صبره ، برهان نصير الدين الطوسى ، ص 134

التعديـــــلات :

1-بروقلس (410 – 485) : اذا قطـــع مســـتقيم أحـــد مســـتقيمين متوازيين فانه يقطع الآخر.

2- جون واليس (1616 – 1703) : أذا أعطينا شكلا ، فانه يوجـــد شكل يشابهه من أية سعه.

3-جون بلا يغير : من أية نقطة معلومة لايمكن أن يرسم الا مســـتقيم واحد يوازى مستقيما معلوما.

4- ليجندر (1752 – 1833) : يوجد مثلث مجموع زواياه الـــثلاث يساوى قائمتين.

5- ليجندر : اذا اعطينا ثلاث نقط ليست على استقامة واحدة ، فتوجـــد دائرة تمر بها.

6_ جاوس : اذا أمكننى أن أبرهن على أنه يمكـــن أن يوجـــد مثلـــث مستقيم الاضلاع ، مساحته أكبر من أية مساحة فإننى أكون فى وضـــع فيه أبرهن بطريقة حاسمة كل الهندسة.

وهكذا توجد لدينا محاولات كثيرة . وقد أدت كل هذه المحاولات إلى ظهور الهندسة اللااقليدية ، خاصة لوبتشفسكى (1793 – 1850) الذى افترض أن النقطة الواحدة يمكن أن يمر بها أكثر من خط مستقيم واحد يوازى كل منها خطا مستقيما معلوما ، أو أن مجموع زوايـــا المثلـــث يساوى أقل من قائمتين . ومن جانب آخر اكتشف بوليـــاى (1802-

1860) هندسة لا اقليدية أخرى . ثم جاء الألمــانى برنـــارد ريمــان (1826 -1866) الذى وضع خطوط هندسة أقامهــا علـــى فــروض جديدة من أساسها ولم يكن على علم بكــل مــا كتبـــه لوباتشفســكى وبولياى. وفى اطار هندسة ريمان ليس للخطوط المتوازية أى وجود ، وفيها أيضا يكون مجموع زوايا المثلث أكبر مـــن قـــائمتين . ويـــذكر جورج سارتون أن فيليكس كلاين (1847 – 1925) بين بوضوح أن هندسة اقليدس تختص بسطح انحناؤه صفرا ، ومن ثم فإنها تـــأتى فـــى مركز متوسط بين هندسة ريمان التـــى تنطبـــق علـــى الســـطوح ذات الانحناء الايجابى (الكرة) وبين هندسة لوباتشفسكى التى تنطبق علـــى السطوح ذات الانحناء السلبى.

والواقع أن دراسة المسلمة الخامسة فى اطار الفكر العربى جـــاءت، انطلاقا من فكرة الحوار الابستمولوجى للرياضيين والفلاسفة مع النص الإقليدى. وكانت المحاولة التى قام بها المفكر العربى المعاصر الدكتور محمد ثابت الفندى فى أعماله الرياضية ومقالاته وبحوثه التى نشـــرها فى فرنسا على امتداد سنوات طويلة خير دليل على ذلك ، وقد توجهـــا بكتابة المهم " فلسفة الرياضة " الذى تناول فيه كل هذا الفكر الرياضى بالدرس والتحليل والتعديل.

إن هذه التطورات المهمة تدلنا بصورة قاطعة على تواصل الاتصال العلمى بين الشرق والغرب حضاريا وعلميا . ويهمنا من خـــلال هـــذا

الدرس أن نشير إلى التفاعل بين شعوب حوض البحر المتوسط بصورة متواصلة من القديم إلى الحديث، والذى مــن خلالــه لعبــت مدرســة الإسكندرية دورا بارزا فى القديم والحديث ، مما جعل العلمــاء عبــر العصور يشكلون منظومة حــوار معرفــى متواصــل حــول قضــايا ومشكلات العلم .

لقد حظيت التقاليد العلمية العقلانية لمدرسة الإسكندرية عبر العصور باهتمام الفلاسفة والرياضيين والمؤرخين أيضا ولــدينا فــى الكتابــات العربية دلائل كثيرة تشير إلى هذا الوعى . كما أن علوم الإســكندرية القديمة شكلت ظاهرة علمية حضارية جديرة بالدراسة فى اطار العلــم العربى والأوروبى ثقافيا وسيولوجيا وسيكولوجيا.

وربما كان هذا الدرس مع غيره من الأفكار الآخرى تشــكل قــوام المعرفة فى اطار العولمة معرفيا ، ومن ثم تمثل حافزا قويــا لاجــراء دراسات معاصرة مكثفة حول علوم الإسكندرية كما اهتم بها القــدماء، وتربية أجيال العلماء والمفكرين الذين يعملون على اثراء هذا الجانــب معرفيا. وفى هذا الاطــار علينــا أن نتســاءل عــن أهميــة النتــائج الابستمولوجية التى توصلنا اليهــا مــن علــوم الإســكندرية القديمــة وتقديرها، والمناهج التى ابتكرها العلماء ، وقيمتها وأثرها فى تطــور المعرفة العلمية والمناهج المعاصرة ، وما شكلته مــن أبعــاد جديــدة للمفكرين الذين درسوا علوم الإسكندرية القديمة.

5- اجاثرخيديس الكنيدى

من أهم علماء الجغرافيا الـذين برزوا فى الإسكندرية فـى النصـف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد ، وهو أحد أهم الفلاسفة المشـائين وقتئـذ ، ويـذكر مؤرخ العلم جورج سارتون أنه " كـان مربيـا أو معلما لأحد ملوك البطالمة (بطلميوس الحادى عشر سوتير الثـانى)[1]. ولابد أنه كان من العلماء الـذين كانت لهم قدم راسـخة فـى مكتبـة الإسكندرية، فقد دون عدة مؤلفات جغرافية حصرها سارتون فى عشرة كتب تتناول جغرافية أسيا وتاريخها ، وقرابة 49 كتابا فـى جغرافيـة أوروبا وتاريخها، هـذا فضلا عن أعماله الآخرى المهمة وكتاباته عن البحر الأحمر والجغرافيا البشرية لاثيوبيا وبلاد العرب.

6- ارتيميدوروس الافيسوسى

وقد نبغ فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد ، وهوعلى مـا يقرر سارتون من أهم علماء الجغرافيا فى الإسـكندرية(104 – 100 ق.م) التى استقر بها ودون مؤلفاته الجغرافية فيها . ومن الواضح أنه اعتمد على كتابات اجاثرخيدس الكنيدى ، ومن هـذا المنطلق كتب أحد عشر مؤلفا جغرافيا،وأضاف إلى المعلومات الجغرافيـة عـن البحـر الأحمر وخليج عدن . وقد زودته المؤلفات والكتابات التى وضعت فى

[1] سارتون ، تاريخ العلم ، ج 6 ، ص 9

الإسكندرية بمعلومات مهمة فى مجال الجغرافيا عن الهند بصفة خاصة[1].

لكن سارتون يذكر فى الوقت نفسه أن ارتيميدوروس رفض ماأبداه اراتوسثينس وهيبارخوس فى الاعتماد على استخدام خطوط الطول والعرض، وعلى العكس من ذلك أبدى اهتمامه الكبير بالمسافات الجغرافية عند حسابه طول وعرض العالم المأهول وقتئذ . وهذا يعنى أنه اعتمد فى عمل خرائطه على الرحلات والمقاييس الفلكية[2].

---

[1] يذكر سارتون سيطرة البطالمة على البحر الأحمر بقوله "وبسط البطالمة المتأخرون سلطانهم على مضيق باب المندب ، وفى عام 78 ق.م _إن لم يكن قبل ذلك _ كان القائد العام لمصر العليا هو أيضا قبطان البحر الأحمر والمحيط الهندى " سارتون ، تاريخ العلم ، ج 6 ، ص 11 ، كما يذكر أن تيموستنيس كان أمير البحر فى أسطول بطلميوس فيلادلفيوس(285-247) وأن ايراتوسثينس واسترابون استفادا من مؤلفاته فى تقويم البلدان . راجع سارتون ، تاريخ العلم ، ص 147

[2] يذكر سارتون أن أهمية هيبارخوس تتمثل فى اصراره على استخدام أساليب رياضية دقيقة فى تحديد الأماكن . ولكنه فى الوقت نفسه كان يكن كراهية عميقة للجغرافى اراتوسثينس ويشك فى معلوماته . ولذا ألف كتابا فى مهاجمة نظرياته . لكنه مع ذلك سجل موافقته على جميع ما وصل إليه اراتوسثينس من نتائج فيما يتعلق بحجم الأرض . ومن أهم أعماله أنه حاول أن يقيس خطوط العرض بتحديد النسبة بين أقصر أيام السنه وأطولها ، وهذه الطريقة تختلف عن طريقة البابليين التى تقيس الزيادة فى أطوال النهار كلما اتجه الإنسان جنوبا بطريقة التوالية العددية . كما أنه أول من قسم الجزء المعمور من العالم إلى مناطق حسب مواقعها من خطوط العلاض أو حسب الأحوال الجوية عن طريق تقدير خطوط العرض والطول بالنسبة لخطوط دائرية كبيرة مقسمة إلى 360 درجة ، واستخدم هذه النسب بنظام لتحديد موقع كل منطقة من هذه المناطق . أضف إلى هذا أنه اقترح لتحديد خطوط الطول معاينة الكسوف من أماكن متفرقة ، على قاعدة أن اختلاف التوقيت المحلى يدلنا على اختلاف خطوط الطول .
المرجع السابق ، ص 11

5- بطلميوس

يعتبر بطلميوس من أهم العلماء الذين اكتسبوا شهرة واسعة على مـــر العصور، ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى أعماله المهمة وهي:

أ- كتاب المجسطى : وهو كتاب فى الفلك أثر بصورة واســعة فـــى المفكرين والعلماء العرب ومن أهمهم ابن الهيثم الذى تناولنـــا اســـهامه وموقفه من بطلميوس وشكوكه عليه فى كتاب مستقل ، ثم انتقـــل هـــذا التأثير بعد ذلك إلى أوروبا ، وانتج نظريات جديدة . أمر يحيى بن خالد البرمكى بنقل هذا الكتاب إلى العربية فقام الحجاج بـــن مطـــر بـــأداء المهمة، ثم نقل مرة أخرى ، وخضع للتصحيح والشرح مرات عديدة.

ب – كتاب الجغرافيا : وقد تنبه العرب إلى أهميته وكانت له تأثيرات كبيرة على الفكر الجغرافى العربى نظريا وعمليا ، وقد نقـــل الكنـــدى هـــذا الكتاب إلى اللغة العربية نقلا جيدا.

ج – كتاب الأربع مقالات فى صناعة أحكام النجوم : وهذا الكتاب نقله إلى العربية أبو يحيى البطريق على أيام الخليفـــة العباســـى أبـــوجعفر المنصور .

د – كتاب ظهور الكواكب الثابتة : ويسمى عند العرب كتاب الأنواء.

يهمنا بالدرجة الأولى أن نشير إلى أن هذه الكتابات مارست تـــأثيرا علميا قويا على الفكر العربى الإسلامى إبان مرحلة التكوين والازدهار، ثم انتقل كل هذا التراث العلمى إلى أوروبا مرة أخرى فى حلقة جديـــدة

ودورة جديدة من دورات العلم محدثا تطورات علمية هائلة إبان عصر النهضة.

6- ثاون

وهو من علماء الرياضيات الـذين برزوا فى القرن الرابع فى آخر مسيرة مدرسة الإسكندرية العلمية الرياضية ، وقد حقق كتاب أصـول اقليدس فى الهندسة وقدم شرحا مفصلا لكتاب المجسطى الـذى عملـه بطلميوس .

7- هوباتيا

وهى عالمة الرياضيات ابنة ثاون ، وقد راجعـت كتابـات أبيهـا وشرحت أعمال أبولونيوس وديوفنطس ، ولقيـت حتفهـا علـى يـد المسيحيين المتطرفين عام 415 م . ويمكن للقـارىء أن يرجـع إلـى الكتاب الممتاز الـذى كتبه المفكر والفيلسوف العربى الدكتور إمام عبد الفتاح إمام ، عن حياة هيباتيا وأعمالها العلمية ، والـذى يعد اضـافة علمية حقيقية لفكر علماء مدرسة الإسكندرية القديمة .

لكن ماذا عن الحركة الأدبية فى الإسكندرية وقت تأسيس المكتبـة؟ هل ازدهرت الحركة الأدبية بنفس الصورة التى ازدهرت بها العلـوم الرياضية والطبيعية؟

يـذكر لنا الأديب العربى الإسكندرى الدكتور حسن عون فى تحليله للحركة الأدبية فى الإسكندرية أن من بين أهم العوامل التى سـاعدت

على ازدهار الأدب فى الإسكندرية وقت التأسيس، صلاحية البيئة من الناحية العلمية لما امتازت به من حرية واستقلال واستقرار ؛ بالاضافة إلى الأثر المهم الذى تركته جامعة هيليوبوليس وجامعة ممفيس على جامعة الإسكندرية ذاتها . إذ الأولى طبعت الإسكندرية بعلومها التجريبية مثل الحساب والهندسة والطب والفلك ؛ والثانية تركت بصماتها واضحة على العلوم النظرية كالفلسفة والدين[1]. ومن خلال العلم والأدب أراد البطالمة أن تسود الإسكندرية مدن العالم .

وأهم ما يلاحظ على الحركة الأدبية والأدب عند الإسكندرانيين أن موضوع الحب أصبح الموضوع الرئيسى للأدب عند أدباء الإسكندرية وهذا ما جعلهم يتناولوه بالوصف والتحليل ، وكاد هذا التوجه يطغى على غيره من الموضوعات ويستقل بنتاج خيال الأدباء[2] .

والذى لا شك فيه أن الإسكندرانيين أدركوا القيمة التى يمكن أن يكتسبها الأدب ، والشعر بصفة خاصة ، حين يستعيض عن موضوعات البطولة ، التى لا يحس بها ولا يدركها إلا طبقة من الناس محدودة ممتازة ، بموضوعات الحب التى يحس بها ويدركها كل طبقات الشعب مما يعد كسبا للأدب .

---

[1] د. حسن عون ، المكانة الأدبية ، ص 85
[2] المرج السابق ، ص 99

إلا أن الأدب والشعر الاسكندرى أضاف ميزة أخرى مهمــة لثقافــة هــذا العصر فقد نجح الإسكندرانيون فى محاولتهم ادخال العلــم فــى الشعر ، وكان ذلك بمثابــة منبــع خصــب ، ومــدد جديــد . ولعــل الإسكندرانيون قد أحسوا بأن الشعر قد استنفد موضــوعاته القديمــة ، ومل كل مصطلحاته الأولى ، وأصبح يبدو للناس كمــا يبــدو الرجــل الهرم .

ويستنتج الدكتور حسن عون بعض العلاقات المهمة التــى ميــزت الحركة الأدبية وهى :

الأول: أن أدباء الإسكندرية هم الــذين أوجدوا المبدأ المشهور (الفــن للفن) فلم يكونوا ليستكثروا ما يبــذلونه من وقت وجهد فى سبيل صقل الشعر ، أو فى البحث عن الأوصاف الجميلة ، أو فى ابتكار المحسنات البديعية الرائعة .

الثانى: أن الحركة الأدبية فى الإسكندرية أوجدت عند أدباء الإسكندرية مــذهبا خاصا فى الأدب أثر عنهم وعرف باسم المــذهب الإسكندرى، ويتمثل فى العناية الشديدة والحرص التام على جمال اللفظ .

الثالث: أنه قد حدث فى الإسكندرية ما يشبه الثورة على القديم والنزوع إلى الجديد المشبع بروح الصراحة والحرية والاستقلال . كانت جامعة الإسكندرية القديمة هى مركز هــذه الثورة الأول ، كما كــان أدباؤهــا وعلماؤها هم قادتها وزعماؤها . (أكانت نزعــة حداثيــة بمفهومنــا

المعاصر ؟ أم ثورة علمية فى مجال الأدب بالمعنى الـذى يـذهب إليه مؤرخ العلم المعاصر توماس كون؟ !).

الرابع:أن غاية الأدب عند الإسكندرانيين اختلفت عن تلك الغايـة عنـد اليونان، إذ بينما نجد أن الغاية الأولى من الأدب عند اليونـان تمثلـت بصورة قوية فى خدمة السياسة والدين والمجتمع ، باعتبارها المعيار أو المحك الأول لمظهر رقى الأدب وعظمة الأدباء ، نجد على العكس من ذلك أن الإسكندرانيين فى إطـار ثقـافتهم رفضـوا هـذه القواعـد وحطموها، واستكثروا على المخيلة الإنسانية والاحساس الفنى أن يقف فى هـذه الدائرة الضيقة جدا والمحدودة، فسموا بالأدب إلى الأجـواء العليا ، وجعلوا الأدب يشرف على كل فروع المعـارف الإنسـانية ، فيعجب بالجمال فى كل منها ، ويساهم بالانتاج فيها .

القسم الثانى

مكتبة الإسكندرية

الفصل السادس: الدراسات العربية الكلاسيكية وتتبع فتح الإسكندرية

الفصل السابع: الدراسات العربية فى القرنين السادس والسابع الهجريين

الفصل الثامن: يحيى النحوى

الفصل السادس

الدراسات العربية الكلاسيكية

وتتبع فتح الإسكندرية

يبدو أن الدراسات العربية القديمة لم تحظى بكثير من الدراسات التى تكشف عن علاقتها بمكتبة الإسكندرية القديمة ومصيرها ، وفى الوقت نفسه لم تنل القدر الواجب من الدراسات والتحليلات التى يمكن أن نستخلص منها وقائع ما حدث إبان فترة الفتح العربى الغسلامى لمصر والإسكندرية .

وربما كان السبب فى ندرة التحليلات ، أو قلتها ، مرده إلى أن البحث فى هــذا الجانب موزع بين تخصصات عديدة بعضها ينتمى إلى حقل دراسة التاريخ ، وبعضها الآخر ينتمى إلى حقل الدراسات الحضارية ، والجزء المهم من هــذه الدراسات ينتمى إلى دراسات تاريخ العلوم بصفة عامة ، وهو حقل يتطلب من الباحث استعدادات معرفية معينة لا تتوافر فى أقرانه فى المجالات الأخرى . إذ الباحث فى حقل تاريخ العلوم يحتاج إلى معرفة دقيقة بالتاريخ ، وفهم للتصور العام لظهور الحضارات وأفولها ، ومعرفة بالدراسات الإبستمولوجية والمعرفية بوجه عام .

من هــذا المنطلق وجدت أنه من الضرورى أن يتضمن السياق العام لمثل هــذه الدراسة تركيزا على الدراسات العربية على اعتبار أنها تشكل منعطفا مهما فى سبيل فهم وقائع ما حدث فى الماضى ، واعادة تركيب الوقائع الصحيحة مرة أخرى .

أن فكرة وضع عنوان " الدراسات العربية وفتح الإسكندرية" مسألة تثير كثيراً من التحفظات، فقد يتبادر إلى الذهن السؤال : أى دراسات ؟ هل هى الدراسات العربية باطلاقها ؟ أم أن الدراسات التى ترتبط بفترات زمنية أيضا ؟ للنظر للمسألة ككل من منظور معرفى ، يربط الفكر بالزمان ومعطياته، وهو مانريد أن نتوجه إليه.

ومن هذا المنطلق فإن تناولنا للدراسات العربية سوف ينـدرج فـى ثلاثة تصنيفات زمنية هى :

الأول : الدراسات العربية القديمة وماتركته لنا من تراث فكرى ، وأثر هذا التراث من الناحية العقلية على اقامة أو تأسيس التركيب التاريخى.

الثانى : الدراسات العربية الكلاسيكية، وأقصد بهـا الدراسـات التـى ذاعت وانتشرت بين الباحثين بدءاً من القرن السادس الهجرى، وأثـر هذه الدراسات على البنية العقلية لفعل التحليل والتركيب الفلسفى لبنـاء أو انتاج قصة قريبة من الحقيقة عـن الظـاهرة الحضـارية لمكتبـة الإسكندرية، إن فى مرحلة التأسيس أو فى مرحلـة الاختفـاء .وهـذا (التحليل – التركيب) يؤسس بالضرورة موقفا عقليا من اللغز المأسوى لاختفاء مكتبة الإسكندرية القديمة.

الثالث : الدراسات العربية المعاصرة، وهى تلك الدراسات التى شهدت توجها عقليا ونقديا من جانب المفكرين العرب المعاصـرين، لتنـاول جوانب القصة ككل باعتبارها قصة ظاهرة تاريخية حضارية وثقافيـة

مهمة، لاكتشاف مدى صحة ماورد بها من معلومـــات وبيـــان ســـندها التاريخى. وقد تباينت الحجج التـــى قـــدمتها الدراســـات ســـيكولوجيا ومنطقيا ومعرفيا.

وعلى هذا الأساس فإنه من الواضح هنا أننا نتبع المنظور التاريخى للمادة العلمية التى بين أيدينا ، وهذه مسألة لابد من إثباتها منذ البدايـــة، فالسياق التاريخى لايمكن تجاوزه كما أنه فى كثير من الأحيان ينطـــق بدلالات معينة يحتاجها التحليل العقلى للربط بين كثير من الوقائع التى تحفل بها القصة التى رويت عن ظاهرة مكتبـــة الإســـكندرية. ومـــن المتصور أيضا أن المنظور التاريخى سيقدم لنا معطيات جديـــدة، قـــد تكون من خارج القصة، لتدعيم أو رفض ، الرأى أو الرأى الآخر، عن تحليل هذه القصة . وهذه مسألة نحتاجها فى تأسيس البنـــاء المعرفـــى. نتقدم إذن خطوة إلى الأمام لنقف علـــى تصـــور الدراســـات العربيـــة القديمة.

أولا: الدراسات العربية القديمة

فتحت مصر فى القرن الأول الهجرى، ونحن إذا أخذنا على وجـــه التحديد عام 20 هـــ (ونعلم أن هناك اختلافات بين المؤرخين والكتاب فى هذا الصدد) وهو عام فتح عمرو بن العـــاص لمصـــر ودخولـــه الإسكندرية الذى يقابل عام 641م، لكان علينا أن ندرك معرفيـــا أنـــه حتى ذلك العصر لم يكن التدوين التاريخى قد بدأ بعد، وإنما بـــدأ فـــى

وقت متأخر نسبيا، خاصة وأن العرب كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فى تدوين الأحداث. لكن لما اتسعت الدولة وترامت أطرافهـــا، وتعــددت وتتابعت الأحداث، نهضت الحاجة الماسة للتدوين فى مجـــال الحــديث والتاريخ والعلم بصفة عامة، حتى لايضيع الحدث التاريخى ذاته وتفقد معالمة.

وقبل نهاية القرن الثانى الهجرى كانت مسألة التدوين التاريخى قــد استقرت تماما، وظهرت لدينا كتابات لها أهميتها فى هذا المجال، مــن أهمها كتابات البلاذرى، وبصفة خاصة كتابه "فتوح البلدان"، وكتابـــات ابن عبدالحكم، خاصة كتابه "فتوح مصر والمغرب"، ثم لــدينا كتـــاب الطبرى ، وغيرها من الكتابات الأخرى التـــى كتبـــت عـــن الفتـــوح الإسلامية.

أما أهمية الرجوع إلى هذه المصادر فتتمثل فى أنها أقدم المصــــادر التاريخية التى بين أيدينا فى تصوير وقائع فـــتح مصـــر علـــى وجـــه الخصوص، وما صاحب هذا الفتح من تطـــورات ، والعلاقـــات التـــى نشأت بين الفاتحين وأهل مصر، وغير ذلك من الأحداث التى ســـوف تساعدنا فى التحليل العقلى للقصة التى رويت عن فتح الإسكندرية فـــى كتابات كتاب القرن السادس الهجرى.

وربما كان من المناسب أن نشير إلى أهمية قصة الـــبلاذرى علـــى نحو خاص، فهو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن داود البغدادى البلاذرى،

إمام ثقة ومحدث ثبت ، وأديب . ولد فى نهاية القرن الثـانى للهجـرة، ونشأ فى بغداد ، وارتحل إلى بلدان كثيرة منها حلب ودمشق وحمـص وانطاكية وغيرها، تحلى بالزهد والشجاعة الأدبية، وكان من خـواص المتوكل والمعتز بالله. وقد تتلمذ على هشام بن عمـار واسـحاق بـن اسرائيل وغيرهما. وتتلمذ عليه محمد بن اسحق النديم صاحب كتـاب "الفهرست".

وسوف نلاحظ أهميته بصورة أدق فى سياق تحليلاتنـا . نبـدأ أولا بالنص الذى ذكره البلاذرى عن فتح الإسكندرية ، نظرا لأهميته ومـا يتضمنه من معلومات تاريخية تعبر عن الوقائع والأحـداث التاريخيـة والتى هى بطبيعة الحال ذات قيمة عالية بالنسبة للتحليل.

-1-

فتوح البلدان

البلاذرى وفتح الإسكندرية

يقول البلاذرى فى كتابه (فتوح البلدان)

"قالوا : لما افتتح عمرو مصر أقام بها ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره فى الزحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه يأمره بذلك فسار إليها فى سنة إحدى وعشرين، واستخلف على مصر خارجة حذافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب، وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا حوله، وقالوا: نغزوه بالفسطاط[1] قبل أن يبلغنا وبروم الإسكندرية. فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكان فيهم من أهل سخا والخيس وسلطيس وغيرهم قوم فدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله، الإ أن القبط فى ذلك يحبون الموادعة، فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة

[1] يذكر بتلر أن " لفظ فسطاط يرجع بنا إلى اللفظ البيزنطى وهو اللفظ الرومانى (Fossatum) وكان فى وقت الفتح لفظا شائعا بين العسكر . وكان الرومانيون فى حصن بابليون بلا مراء إذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه (الفسطاطون) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ " بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص 361 . وكذلك يذكر فى موقع قريب من هذا " وإنه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند اختطاطها مدينة عظيمة أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين ..." راجع : بتلر ، المرجع السابق ، ص 362

مقبلات بوجوهن إلى داخله، وأقام الرجال فى السلاح مقبلين بوجـــوهم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك، فأرسل اليه عمرو إنا قد رأينا ماصـــنعت وما بالكثرة غلبنا من غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمـــره مـــا كان، فقال المقوقس لأصحابه قد صدق هؤلاء القوم أخرجوا ملكنا مـــن دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية فنحن أولى بالإذعان، فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة. فقاتلهم المسلمون قتالا شـــديدا وحصـــروهم ثلاثة أشهر، ثم أن عمرو فتحها بالسيف رغم ما فيها واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب وجعلهم ذمة كأهل اليونه، فكتب إلى عمر بـــالفتح مـــع معاوية ابن خريج الكندى ثم الكوفى وبعث إليه معه بالخمس.

ويقال إن المقوقس صالح عمروا على ثلاثة عشر ألف دينار على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم بها من أحـــب المقـــام ، وعلى أن يفرض على كل حاكم من القبط دينارين فكتب لهم بذلك كتابا، ثم أن عمرو بن العاص استخلف على الإسكندرية عبدالله بن حذافه بن قيس بن عدى بن سعد سهم بن عمرو بن هيصيص بن كعب بن لـــؤى فى رابطة من المسلمين وانصرف إلى الفسطاط، وكتب الـــروم إلـــى قسطنطين بن هرقل، وهو كان الملك يومئذ يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية، فبعث رجلا من أصحابه يقال له منويل فى ثلثمائه مركب مسخونة بالمقاتله، فدخل الإســـكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين إلا من لطف للهرب فنجا بذلك فـــى

سنة خمس وعشرين ، وبلغ عمروا الخبر فسار إليهم فى خمسة عشــرا ألفا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيثون فيما يلى الإسكندرية مــن قــرى مصر فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون، ثم صدقوهم الحملة، فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالا شديدا. ثــم إن أولئك الكفرة ولوا منهزمين، فلم يكــن لهــم ناهيــة ولا عرجــة دون الإسكندرية فتحصنوا بها، ونصبوا الهرارات فقاتلهم عمرو عليها أشــد قتال ، ونصب المجانيق فأخذت جدرها، وألح بــالحرب حتــى دخلهــا بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية وهرب بعــض رومهــا إلــى الروم، وقتل عــدو الله منويــل، **وهــدم عمــرا والمســلمون جــدار الإسكندرية، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلــك**. وقــال بعــض الرواة أن هذه الغزوة كانت فى سنة ثلاث وعشــرين، وروى بعضــهم أنهم نقضوا فى سنة ثلاث وعشرين وسنة خمس وعشرين والله أعلم.

حدثنى عمرو عن ابن وهب عن ابى لهيعة وجعل عليها عبــدالله بــن سعد، فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصــر عثمــان أن يقــر عمرواً حتى يفرغ من قتال الروم لأن له معرفة بالحرب وهيبــة فــى أنفس العدو ففعل حتى هــزمهم فــأراد عثمــان أن يجعــل عمــروا علىالحرب وعبد الله على الخراج فأبى ذلك عمرو وقال: أنا كماســك قرنى البقرة والأمير يحلبها فولى عثمان بن سعد مصر. قال عبــد الله ابن وهب : وأخبرنى الليث بن سعد عن موسى بن على عن ابيــه أن

عمرا فتح الإسكندرية الفتح الآخر عنوة فى خلافة عثمان بعد وفاة عمر رضى الله عنه[1] .

هذا ماذكره البلاذرى فى كتابه عن فتح الإسكندرية. ويعد البلاذرى من أوائل المؤرخين الذين كتبوا عن فتح مصر، فقد ولد فى أواخر القرن الثانى من الهجرة. وكما رأينا فقد ذكر الوقائع مفصلة فى الفتح الأول والثانى. ففى الفتح الأول غنم عمرو بن العاص ما فى المدينة واستبقى أهلها، ولم يقتل ولم يسب. وفى ذكره لوقائع الفتح الثانى قال أن عمرو بن العاص قتل المحاربين وسبى الذرية وقتل منويل، وهدم جدار الإسكندرية، لأنه كان قد نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك، ولو أن عمرو قد حرق أية مكتبة وجدها فى الإسكندرية لكان البلاذرى ذكر ذلك بلا حرج ، ولكنه حتى فى ذكره لما أخذه عمرو من المدينة لم يذكر ثمة مكتبة على الاطلاق. وسوف نعرف فى التحليل القادم مسألة أسوار مدينة الإسكندرية، خاصة وأن الكتاب الذين تناولوا قصة الفتح العربى للإسكندرية ركزوا على أسوار المدينة ، وهذا يعنى أهمية الأسوار التى احيطت بها الإسكندرية .

---

[1] أبو الحسن البلاذرى، فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 1403/1983هـ، ص ص : 221 – 225

-2-

فتوح مصر والمغرب

ابن عبد الحكم وفتح الإسكندرية

يقدم لنا ابن عبد الحكم فى كتابه (فتوح مصر والمغرب) أربعة نصوص مهمة فيما يتعلق بفتح الإسكندرية :

أما النص الأول فيركز فيه ابن عبد الحكم على التعاون بين المسلمين والأقباط ، وكيف أن أقباط مصر كانوا عونا للمسلمين فى أثناء الفتح وفى قتالهم للروم . يقول ابن عبد الحكم :

حدثنا يحى بن خالد العدوى عن الليث بن سعد أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر ، وألح عليهم ، وخافوه ، وسأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط على أن يستنظر رأى الملك . قال : فحدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس الرومى الذى كان ملكا على مصر صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد المسير ، ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر قد سماه ، فبلغ ذلك هرقل ملك الروم ، فتسخطه أشد السخط ، وأنكره أشد الإنكار ، وبعث الجيوش فأغلقوا الإسكندرية وآذنوا عمرو بن العاص بالحرب ، فخرج إليه المقوقس فقال : أسألك ثلاثة؟ قال : ماهن ؟ قال لاتبذل للروم مابذلت لى ، فإنى قد نصحت لهم ، فاستغشوا نصحى . ولا تنقض

بالقبط فإن النقض لم يأت من قبلهم ، وأن تأمر بى إذا مت فادفنى فى أبى يخس ، فقال عمرو : هذه أهونهن علينا . ثم رجع إلى حديث عثمان ، قال : **فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم** ، وسمعت بذلك الروم ، فاستعدت ، واستجاشت ، وقدمت عليهم مراكب كثيرة ، من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجها إلى الإسكندرية ، فلم يلق منهم أحدا حتى ترنوط ، فلقى بها طائفة من الروم ، فقاتلوه قتالا خفيفا ، فهزمهم الله . ومضى عمرو بمن معه حتى لقى جميع الروم شريك فاقتتلوا به ثلاثة أيام ، ثم فتح الله للمسلمين وولى الروم أكتافهم .[1]

أما النص الثانى فيركز فيه ابن عبد الحكم على أن فتح الإسكندرية جاء على يد رجل من الأنصار وهو عبادة بن الصامت، وأن حصار الإسكندرية دام أربعة عشر شهرا ، وأنها فتحت يوم الجمعة أول محرم عام 20 هجرية .

[1] ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ص 106-107

يقول ابن عبد الحكم :

حدثنى أبى عبد الله بن عبد الحكم قال : لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ، ثم جلس فقال : إنى فكرت فى هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله ، يريد الأنصار ، فدعا بعبادة بن الصامت فعقد له ، ففتح الله على يديه الإسكندرية فى يومه ذلك . ثم رجع إلى حديث يحى بن أيوب وخالد بن حميد قال : حاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك ، **وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين.**[1]

أما النص الثالث فيركز فيه ابن عبد الحكم على تعداد سكان مدينة الإسكندرية وقت الفتح العربى حيث يقدرون بعدد 600 ألف من الرجال الذين عليهم الخراج سوى النساء والصبيان . يقول ابن عبد الحكم : قال : وحدثنا عبد الملك بن مسلمة عن مالك ابن أنس ، أن مصر فتحت سنة عشرين ، قال : فلم هزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية كما حدثنى عبد الله بن صالح عن الليث ، وهرب الروم فى البر والبحر، خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه ، ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم . وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ، ففتحها وأقام بها ، وكتب إلى

[1] المرجع السابق ، ص 117

عمر بن الخطاب : إن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد . فكتب إليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ، ويأمره ألا يجاوزها . قال ابن أبى لهيعة ، وهو فتح الإسكندرية الثانى .

وكان عدة من فى الإسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة ، وركبوا السفن ، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار ، فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل ، وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج ، فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان .[1]

أما النص الرابع فيذكر ابن عبد الحكم طرفا من رسالة لعمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب وهى رسالة تصور حجم المبالغات فى الكتابات العربية القديمة أيضا :

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك ، كما حدثنا ابراهيم بن سعيد العلوى إلى عمر بن الخطاب : أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف مافيها غير أنى أصبت فيها أربعة ألاف منية بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك.[2]

يبدو أنه من الملائم الآن أن نتوقف عند تحليل ما ورد عند البلاذرى وابن عبد الحكم من آراء تتعلق بالفتح العربى للإسكندرية.

---

[1] المرجع السابق ، ص ص 118 ، 121

[2] المرجع السابق ، ص 120

التحليل اللاحق

إن النصوص التى أشرنا إليها البلاذرى وابن عبد الحكم هى أقدم النصوص التى وصلتنا عن فتح الإسكندرية وما جرى فيه من أحداث مصاحبة ، وهى جميعا تشترك معا فى مجموعة من النقاط المهمة التى يحسن بنا أن نقدم تحليلا لها أولا ، على أن نستبقى بعض النقاط الآخرى للمقابلة بالتحليلات التى سوف تطلعنا عليها بعض النصوص والكتابات العربية فى فترات متأخرة .

تركز النصوص السابقة على مجموعة من العناصر التى نجملها فيما يلى :

1- العلاقة بين عمرو بن العاص وقبط مصر .

2- الشروط التى صالح عليها عمرو بن العاص .

3- انتفاضة أهل الإسكندرية ودخول عمرو بن العاص وهدم سور المدينة .

نبرز هذه العناصر لأهميتها فى التحليل اللاحق ، ولأنها تشكل جزءاً مهما من البنية المعرفية للسياق الذى دفعنا للتمييز بين القصة والظاهرة ، وهى مسألة تشغلنا كثيراً وتبين إلى أى حد يمكن الكشف عن أبعاد الظاهرة من خلال القصة . نتناول فيما يلى النقطتين الأولى والثانية ، ونرجىء الثالثة لتتكامل أبعادها مع تحليل رواية أخرى .

عمرو بن العاص والقبط فى مصر

ركزت بعض الكتابات على دراسة وتحليل موقف عمرو بن العاص من القبط فى مصر ، وحاولت تلك الكتابات أن تلقى الضوء بصورة تحليلية على تلك العلاقة وجوانبها المختلفة . نقتبس فى الفقرات التالية موقفا يبين إلى أى مدى احترم عمرو بن العاص القبط فى مصر ، وكيف استعان بهم أيضا . جاء فى أحد الكتب الكنسية :

وكان جيش العرب فى فاتحة هذا القرن (السابع) حاملا لواء الظفر فى كل مكان ، وظل يخترق الهضاب والبطاح ويجوب الفيافى والبلاد حتى وصل إلى حدود مصر تحت قيادة عمرو بن العاص ، فدخل مدينة العريش وذلك فى سنة 639 م ومنها وصل إلى بلبيس وفتحها بعد قتال طال أمده نحو شهر . ولما استولى عليها وجد بها ارمانوسه بنت المقوقس ، فلم يمسها بأذى ، ولم يتعرض لها بشر ، بل أرسلها إلى أبيها فى مدينة منف مكرمة الجانب معززة الخاطر ، فعد المقوقس هذه الفعلة جميلا ومكرمة من عمرو وحسبها حسنة له.

واحتلت جيوش العرب الوجه البحرى فصاروا يرتكبون فيه الفظائع، فوقف فى وجههم اثنان من الأقباط هما مينا وقزمان ، وترأسا جماعة مدربة ، فكانوا يدفعون عنهم غائلة الاعتداء الأجنبى عربيا كان أم رومانيا . قيل إن عمرا عندما وصل إلى نقيوس فتك بأهلها فتكا ذريعا ، ولم يبق أحدا ممن كانوا فى الشوارع أو الكنائس ، وصار يتقدم إلى

داخل البلاد حتى وصل إلى بابليون . ودام القتال بين عمرو وبين الروم سبعة أشهر . كان يتظاهر المقوقس فى أثنائها بأنه ضد العرب وهو معهم .... ولما رأى المقوقس اشتداد بأس العرب تفاوض معهم ، فكتب إليه عمرو يقول ليس لك ولقومك سبيل النجاة إلا إذا اخترت واحدا من هذه الشروط :

1- إما الجزية 2- أو الإسلام 3- أو استمرار القتال

سور الإسكندرية

سبق أن أشرنا إلى أهمية تناول أسوار مدينة الإسكندرية بالشرح والفهم، وقد تحدث الكتاب على اختلاف اتجاهاتهم عن أسوار المدينة ، وأنه حين دخل عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية للمرة الثانية بعد نقض شروط الصلح هدم أسوار المدينة ، وعلى ما يقول البلاذرى ، وكان قد نذر هذا . فما هى المسألة المتعلقة بالأسوار إذن؟

يذكر بتلر فى كتابه " فتح العرب لمصر " أن هذه الأسوار بناها الإسكندر ، وأنها حصون منيعة عجز دونها الفرس عند حصارهم للمدينة ، " وقد قامت هذه الأسوار نفسها منذ ثمان حجج ماثلة بين يدى جيوش (بونوسوس) فارتدت عنها تلك الكتائب المستميتة وهى خاسئة كأنما هى أمواج البحر ترتطم بصخور الساحل . وقد أراد الله أن تقوم تلك الأسوار مرة أخرى بعد ربع قرن وهى راسية قوية تحاد جيوش العرب حتى استطالت بها مدة الحصار . فمن الواضح على ذلك أن تلك

الأسوار كانت فى الوقت الذى نصفه هنا لا تزال على عهدها خطا عظيما من الحصون والآطام ذات بأس ومنعه "[1].

ويذكر الدكتور ابراهيم نصحى فى كتابه عن " تاريخ مصر فى عصر البطالمة " أن أسوار مدينة الإسكندرية " كانت أعظم من أسوار أية مدينة إغريقية أخرى ، فيما عدا سراقوسه وأثينا . ذلك أن الأحداث قد أثبتت أنها كانت منيعة على الدوام "[2]. ويبين لنا فى الوقت نفسه أوجه معرفتنا عن هذه الأسوار فى عصر البطالمة ، وهو ما يحصره فيما يلى من النقاط [3]:

1- أنه كان يحيط بالإسكندرية عندئذ أسوار يبلغ أقصى طولها حوالى 15 ك . م مع ملاحظة أنه وفقا للعادة الشائعة عند الإغريق كانت المقابر تقع خارج الأسوار وتبعا لذلك كانت الجبانتان الغربية والشرقية ، جبانة القبارى وجبانة الشاطبى، تقعان خارج أسوار الإسكندرية .
2- حصنت هذه الأسوار بإقامة أبراج عليها فى مسافات متقاربة.

---

[1] بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص 112

[2] د. اباهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 2 ، ط 4 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1976 ، ص 278

[3] المرجع السابق ، ص 278
قارن ما ذكره د. ابراهيم نصحى فى الصفحات 272-280 من المرجع السابق ، بما ذكرته د. فاديه أبو بكر فى كتابها " دراسات فى العصر الهللينستى " ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1998 ، ص ص 149-160

3- أن هذه الأسوار كانت تتبع فى الناحية الشمالية مجرى الشاطىء، فيما بين حدودها الغربية (جبانة القبارى) وحدودها الشرقية (جبانة الشاطبى) . وعند رأس لوخياس Lochias كانت تتجه جنوبا حوالى كيلومترين صوب القناة المتفرعة من الفرع الكانوبى . وفى الناحية الجنوبية كانت الأسوار تتبع الشاطىء الشمالى لبحيرة مريوط.

يفهم من هذا أن الإسكندرية كانت محصنة ومنيعة بسبب أسوارها، ومن ثم فإنه حين أقدم عمرو بن العاص على هدم أسوار المدينة فى المرة الثانية إنما كان ذلك دلالة على أنه أراد للإسكندرية أن تدخل فى دين الله دون حواجز أو موانع تقف أمام جنود الرحمن.

-3-

تاريخ الطبرى
وفتح الإسكندرية

يقول الطبرى فى النص الأول[1]:

"وأما ابن إسحاق فإنه قال : كان فتح قيسارية من فلسطين وهرب هرقل وفتح مصر فى سنة عشرين، حدثنا بذلك ابن حميد، قال: حدثنا سلمه، عنه. وأما سيف بن عمر فإنه قال: كان فتحها فى سنة ست عشرة. قال: وكذلك فتح مصر.

وقد مضى الخبر عن فتح قيسارية قبل، وأنا ذاكر خبر مصر وفتحها بعد فى قول، من قال: فتحت سنة عشرين، وفى قول من خالف ذلك".

أما فى النص الثانى [2] فيذكر الطبرى أحداث سنة عشرين وفيها فتح مصر. يقول :

"قال أبو جعفر : ففى هذه السنة فتحت مصر فى قول ابن إسحاق. حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمه، عن ابن إسحاق، قال: فتحت مصر سنة عشرين. وكذلك قال أبو معشر، حدثنى أحمد بن ثابت عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبى معشر ، أنه قال : فتحت مصر سنة عشرين، وأميرها عمرو بن العاص. وحدثنى أحمد بن ثابت، عمن

1 تاريخ الطبرى ، ص 102
2 المرجع السابق ، ص 104

ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبى معشر، قال: فتحت إسكندرية سنة خمس وعشرين.

وقال الواقدى - فيما حدثت عن ابن سعد عنه: فتحت مصر والإسكندرية فى سنة عشرين.

وأما سيف فإنه زعم - فيما كتب به إلى السرى، عن شعيب، عن سيف - أنها فتحت والإسكندرية فى سنه ست عشرة".

وبعد هذا النص مباشرة يضع الطبرى العنوان التإلى (ذكر الخبر عن فتحها وفتح الإسكندرية) أى فتح مصر وفتح الإسكندرية، وهى مسألة وردت فى آخر عبارات النص السابق مباشرة، ونتركها للتحليل. ثم يتابع الطبرى نصه كاملا.

أما فى النص الثالث[1] فنجد الطبرى يقول:

قال أبو جعفر قد ذكرنا اختلاف أهل السير فى السنة التى كان فيها فتح مصر والإسكندرية، ونذكر الآن سبب فتحهما، وعلى يدى من كان، على ما فى ذلك من اختلاف بينهم أيضاً، فأما ابن إسحاق فإنه قال فى ذلك ما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمه عنه، أن عمر رضى الله عنه حين فرغ من الشأم كلها كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر فى جنده، فخرج حتى فتح باب اليون فى سنة عشرين.

---

[1] المرجع السابق ، ص 104 وما بعدها.

قال: وقد اختلف فى فتح الإسكندرية، فبعض الناس يزعم أنها فتحت فى سنة خمس وعشرين، وعلى سنتين من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعليها عمرو بن العاص.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمه، عن محمد بن إسحاق، قال: وحدثنى القاسم بن قزمان – رجل من أهل مصر – عن زياد بن جزء الزبيدى، أنه حدثه أنه كان فى جند عمرو بن العاص حين افتتح مصر والإسكندرية، قال: افتتحنا الإسكندرية فى خلافة عمر بن الخطاب فى سنة إحدى وعشرين – أو سنة اثنيين وعشرين – قال : لما افتتحنا باب اليون تدنينا قرى الريف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية فقرية، حتى انتهينا إلى بلهيب – قرية من قرى الريف، يقال لها قرية الريش – وقد بلغت سبايانا المدينة ومكة واليمن.

قال: فلما انتهينا إلى بلهيب أرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو بن العاص: إنى قد كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إلى منكم معشر العرب لفارس والروم، فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد على ما أصبتم من سبايا أرضى فعلت.

قال : فبعث إليه عمرو بن العاص: إن ورائى أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه، فإن شئت أن أمسك عنك وتمسك عنى حتى أكتب إليه بالذي عرضت على، فإن هو قبل ذلك منك قبلت، وإن أمرنى بغير ذلك مضيت لأمره. قال: فقال: نعم قال: فكتب عمرو بن العاص إلى عمر

بن الخطاب – قال: وكانوا لا يخفون علينا كتاباً كتبوا به – يذكر له الذى عرض عليه صاحب الإسكندرية. قال: وفى أيدينا بقاياً من سبيهم. ثم وقفنا ببلهيب، وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا، فقرأه علينا عمرو وفيه: أما بعد، فإنه جاءني كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلى من فئ يقسم، ثم كأنه لم يكن ، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية، على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين،له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه، وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لانقدر على ردهم، ولانحب أن نصالحه على أمر لانفى له به، قال: فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين. قال: فقال: قد فعلت. قال: فجمعنا ما فى أيدينا من السبايا، واجتمعت النصارى، فجعلنا نأتي بالرجل ممن فى أيدينا، ثم نخبره بين الإسلام وبين النصرانية، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حتى تفتح القرية، قال: ثم نحوزه إلينا ، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى، ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً، حتى كأن رجل خرج منا إليهم. قال:

فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم، وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبدالله بن عبد الرحمن – قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد – قال فوقفناه، فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية – وأبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا، حتى شققوا عليه ثيابه، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى. ثم فتحت لنا الإسكندرية فدخلناها، وإن هذه الكناسة التى ترى يابن أبى القاسم لكناسة بناحية الإسكندرية حولها أحجار كما ترى، ما زادت ولا نقصت، فمن زعم غير ذلك أن الإسكندرية وما حولها من القرى لم يكن لها جزية ولا لأهلها عهد، فقد والله كذب. قال القاسم: وإنما هاج هذا الحديث أن ملوك بنى أمية كانوا يكتبون إلى أمراء مصر أن مصر إنما دخلت عنوة، وإنما هم عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا، ونضع ماشئنا.

قال أبو جعفر: وأما سيف، فإنه ذكر فيما كتب به إلى السرى، يذكر أن شعيباً حدثه عنه، عن الربيع أبى سعيد، وعن أبى عثمان وأبى حارثه، قالوا : أقام عمر بإيلياء بعد ما صالح أهلها، ودخلها أياماً، فأمضى عمرو بن العاص إلى مصر وأمره عليها، إن فتح الله عليه، وبعث فى أثره الزبير بن العوام مدداً له، وبعث أبا عبيده إلى الرمادة، وأمره إن فتح الله عليه أن يرجع إلى عمله.

كتب إلى السرى، عن شعيب ، عن سيف، قال : حدثنا أبو عثمان عن خالد وعبادة، قالا : خرج عمرو بن العاص إلى مصر بعد ما رجع عمر إلي المدينة، حتى انتهى إلى باب اليون، وأتبعه الزبير، فاجتمعا،

فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف فى أهل النيات بعثة المقوقس لمنع بلادهم. فلما نزل بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم : لاتعجلونا لنعذر إليكم، وترون رأيكم بعد. فكفوا أصحابهم ، وأرسل إليهم عمرو: إنى بارز فليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك، وآمن بعضهم بعضاً، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا، إن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد صلى الله عليه وسلم، وأدى إلينا كل الذى أمر به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذى عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية، وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظا لرحمنا فيكم، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة. ومما عهد إلينا أميرنا : استوصوا بالقبطيين خيراً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة، فقالوا: قرابة بعيدة لايصل مثلها إلا الأنبياء، معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا، وكانت من أهل منف والملك فيهم، فأديل عليهم أهل عين شمس، فقتلوهم وسلبوا ملكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام مرحباً به وأهلاً، آمنا حتى نرجع إليك. فقال عمرو : إن مثلى لا يخدع، ولكنى أوجلكما ثلاثاً لتنظرا ولتناظرا قومكما، وإلا ناجزتكم، قالا : زدنا، فزادهم يوماً، فقالا:

زدنا ، فزادهم يوما ، فرجعا إلى المقوقس فهم، فأبى أرطبون أن يجيبهما، وأمر بمناهدتهم، فقالا لأهل مصر: أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم، ولا نرجع إليهم، وقد بقيت أربعة أيام، فلا تصابون فيها بشئ إلا رجونا أن يكون له أمان. فلم يفجأ عمراً والزبير إلا البيات من فرقب، وعمرو على عدة، فلقوه فقتل ومن معه، ثم ركبوا :أكساءهم، وقصد عمرو والزبير لعين شمس، وبها جمعهم، وبعث إلى الفرما أبرهة بن الصباح، فنزل عليها، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فنزل عليها، فقال كل واحد منهما لأهل مدينته : إن تنزلوا فلكم الأمان، فقالوا: نعم، فراسلوهم ، وتربص بهم أهل عين شمس، وسبى المسلمون من بين ذلك، وقال عوف بن مالك : ما أحسن مدينتكم يأهل الإسكندرية! فقالوا : إن الإسكندر قال إنى أبنى مدينة إلى الله فقيرة، وعن الناس غنيه – أو لأبنين مدينة إلى الله فقيرة، وعن الناس غنية – فبقيت بهجتها.

وقال أبرهة لأهل الفرما : ما أخلق مدينتكم يا أهل الفرما ؟ قالوا : إن الفرما قال : إنى أبنى مدينة عن الله غنية، وإلى الناس فقيرة ، فذهبت بهجتها وكان الإسكندر والفرما أخوين.

قال أبو جعفر : قال الكلبى: كان الإسكندر والفرما أخوين، ثم حدث بمثل ذلك، فنسبتا إليهما، فالفرما ينهدم فيها كل يوم شئ، وخلقت مرآتها، وبقيت جدة الإسكندرية.

كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن أبى حارثة وأبى عثمان، قالا : لما نزل عمرو على القوم بعين شمس، وكان الملك بين القبط والنوب، ونزل معه الزبير عليها، قال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قوم فلوا كسرى وقيصر، وغلبوهم على بلادهم ! صالح القوم واعتقد منهم، ولاتعرض لهم ولا تعرضنا لهم – وذلك فى اليوم الرابع – فأبى، وناهدهم فقاتلوهم، وارتقى الزبير سورها، فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم ، ونزل الزبير عليهم عنوة؛ حتى خرج على عمرو من الباب معهم فاعتقدوا بعد ما أشرفوا على الهلكة، فأجروا ما أخذ عنوة مجرى ما صالح عليه، فصاروا ذمة ، وكان صلحهم .

أمان عمرو بن العاص لأهل مصر

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لايدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ماجنى لصوتهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى برئيه، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم، وعليه مثل ما

عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر.

عمرو فى الفسطاط

فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم، وقبلوا الصلح، واجتمعت الخيول فمصر عمرو الفسطاط ، ونزله المسلمون، وظهر أبو مريم وأبو مريام، فكلما عمراً فى السبايا التى أصيبت بعد المعركة فقال: أولهم عهد وعقد؟ألم نحالفكما ويغار علينا من يومكم ! وطردهما،فرجعا وهما يقولان: كل شئ أصبتموه إلى أن نرجع إليكم ففى ذمة منكم، فقال لهما: أتغيرون علينا وهم فى ذمة ؟ قالا: نعم ، وقسم عمرو ذلك السبى على الناس، وتوزعوه، ووقع فى بلدان العرب. وقدم البشير على عمر بعد بالأخماس، وبعث الوفود فسألهم عمر، فما زالوا يخبرونه حتى مروا بحديث الجاثليق وصاحبه، فقال ألا أراهما يبصران وأنتم تجاهلون ولاتبصرون ! من قاتلكم فلا أمان له، ومن لم يقاتلكم فأصابه منكم شئ من أهل القرى فله الأمان فى الأيام الخمسة حتى تنصرم، وبعث فى

الآفاق حتى رد ذلك السبى الذى سبوا ممن لم يقاتل فى الأيام الخمسة إلا من قاتل بعد، فترادوهم إلا ماكان من ذلك الضرب، وحضرت القبط باب عمرو، وبلغ عمراً أنهم يقولون: ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ! ما رأينا مثلنا دان لهم ! فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم، فأمر بجزر فذبحت، فطبخت بالماء والملح، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا، وأعلموا أصحابهم، وجلس وأذن لأهل مصر، وجئ باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين، فأكلوا أكلا عربياً، انتشلوا وحسوا وهم فى العراء ولا سلاح، فافترق أهل مصر وقد ازدادوا طمعاً وجرأة. وبعث فى أمراء الجنود فى الحضور بأصحابهم من الغد، وأمرهم أن يجيئوا فى ثياب أهل مصر وأحذيتهم، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ففعلوا، وأذن لأهل مصر، فرأوا شيئاً غير ما رأوا بالأمس، وقام عليهم القوام بألوان مصر، فأكلوا أكل أهل مصر، ونحوا نحوهم، فافترقوا وقد ارتابوا، وقالوا : كدنا. وبعث إليهم أن تسلحوا للعرض غداً، وغدا على العرض، وأذن لهم فعرضهم عليهم. ثم قال :إنى قد علمت أنكم رأيتم فى أنفسكم أنكم فى شئ حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم، فخشيت أن تهلكوا، فأحببت أن أريكم حالهم، وكيف كانت فى أرضهم، ثم حالهم فى أرضكم، ثم حالهم فى الحرب، فظفروا بكم، وذلك عيشهم، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها مارأيتم فى اليوم الثانى، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم فى اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم

الثانى، وراجع إلى عيش اليوم الأول. فتفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برجلهم.

وبلغ عمر، فقال لجلسائه: والله إن حربه للينه مالها سطوة ولاسورة كسورات الحروب من غيره، إن عمراً لعض. ثم أمره عليها وقام بها.

كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن أبى سعيد الربيع بن النعمان، عن عمرو بن شعيب، قال: لما التقى عمرو والمقوقس بعين شمس، واقتتلت خيلاهما ، جعل المسلمون يجولون بعد البعد . فدمرهم عمرو ، فقال رجل من أهل اليمن : إنا لم نخلق من حجارة ولا حديد ! فقال : اسكت ؛ فإنما أنت كلب ، قال : فأنت أمير الكلاب ، قال : فلما جعل ذلك يتواصل نادى عمرو : أين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فحضر من شهدها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : تقدموا ، فبكم ينصر الله المسلمين . فتقدموا وفيهم يومئذ أبو بردة وأبو برزة ، وناهدهم الناس يتبعون الصحابة ، ففتح الله على المسلمين، وظفروا أحسن الظفر . وافتتحت مصر فى ربيع الأول سنة ست عشرة ، وقام فيها ملك الإسلام على رجل، وجعل يفيض على الأمم والملوك ، فكان أهل مصر يتدفقون على الأجل ، وأهل مكران على راسل وداهر ، وأهل سجستان على الشاه وذويه ، وأهل خرسان والباب على خاقان، وخاقان ومن دونهما من الأمم ، فكفكفهم عمر إبقاء على أهل الإسلام ، ولو خلى سربهم لبلغوا كل منهل .

لننظر إذن فى شأن تقييم بعض المؤرخين الغربيين للفترة التى قضاها عمرو بن العاص فى مصر . ما الذى تقوله الكتابات الغربية عن هذه الفترة ، وكيف ينظر إليه وإلى سياساته فى مصر؟

رأى المؤرخين فى سياسة عمروبن العاص

أما جوستاف لوبون فيذكر فى كتابه " حضارة العرب " رأيا له قيمته فى هذا الموضوع إذ يقول " فتح القائد عمرو بن العاص ، الذى هو من عمال الخليفة الثانى عمر بن الخطاب بلاد مصر فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة (639 م) وقد ذكرنا ما كان عليه عمرو بن العاص من الحذق والمهارة نحو سكان مصر ، فهو لم يتعرض إلى ديانتهم ولا إلى نظمهم ولا إلى عاداتهم ، ولم يطالبهم بغير جزية سنوية قدرها خمسة عشر فرنكا عن كل رأس فى مقابل حمايتهم . وقد رضى المصريون بذلك شاكرين ، ولم يند سوى الروم أى الجنود الموظفين ورجال الدين الذين التجأوا إلى الإسكندرية فحاصره العرب حصارا شديدا دام أربعة عشر شهرا ، وقد قتل من العرب فى أثناء ذلك الحصار ثلاثة وعشرون ألف جندى . وقد كان عمرو بن العاص، على ما أصاب العرب من ضياع فى الأنفس والأموال ، سمحا رحيما نحو أهالى الإسكندرية ، فهو لم يؤذ شعورهم ولم يقس عليهم ، وكان همه

مصروفا إلى كسب قلوبهم وقبول جميع مطالبهم ، وقد أصلح أسوارهم وترعهم وأنفق الأموال الطائلة على شئونهم العامة "[1].

لكن الفرد بتلر[2] فى كتابه " فتح العرب لمصر " يذكر تعليقا مهما على كتاب جوستاف لوبون حيث يقول فى تعليقه "وقد دحض جوستاف لوبون فى كتابهLa Civilisation des Arabes (باريس سنة 1884) قصة إحراق مكتبة الإسكندرية، ولكن كتابه أقرب إلى أن يكون للقارىء العام وليس بحثا علميا قيما " . ونضيف إلى هذا النقد من جانبنا أن ما يذكره لوبون من أن فتح بلاد مصر كان (فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة) أمر يجانبه الصواب لأن ثقات المؤرخين العرب يتفقون على أن فتح مصر تم فى سنة عشرين للهجرة . أما ما يذكره من أن حصار العرب للإسكندرية (دام أربعة عشر شهرا) فإن هذا التقرير يتفق مع ما ذكرته الكتابات العربية القديمة وبصفة خاصة ابن عبد الحكم الذى يذكر أن حصار الإسكندرية دام أربعة عشر شهراً . لقد تنبه الفريد بتلر إذن إلى أن كتاب لوبون دون للقارىء العام ، ولذا فهو بمثابة نوع من الدعاية أو البروباجندا ، (وليس بحثا قيما).

هناك جانب أخر لابد وأن نذكره معرفيا فى سياق القصص والروايات الغربية التى تروى عن عمرو بن العاص فى مصر .

---

[1] جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص 231

[2] بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص 424

فللننظر فيما يقوله سيديو فى هذا الجانب ، ثم نتناول تقييم رأيه وما يعرضه علينا من أفكار ربما نظفر منها بشيء . يقول هذا الكاتب " فما كاد عمرو بن العاص يصبح سيدها حتى كتب إلى الخليفة يسأله عن ضرورة انتهابها وتخريبها ، فلامه عمر على تفكيره فى ذلك ولو طرفة عين ، فأمتعت فى الحال ، بنظام إداري حكيم رشيد فجعلت الجزية المفروضة على الأقباط شاملة لجميع السكان ، وفرضت على الأطيان والمزارع ، فضلا عن ذلك ، ضريبة نسبية تابعة لقيمة الأراضى . وفوض أمر الجباية إلى الأقباط أنفسهم لحذقهم هذه الأمور الإدارية أكثر من المسلمين بسبب صلاتهم ولسانهم . ولم تنشب الضرائب أن بلغت مبالغ عظيمة فصار الخليفة ينفق معظمها على الأعمال النافعة للبلاد ، فأمر بإعادة انشاء قناة القلزم التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر ، وأراد عمرو بن العاص حفر قناة السويس فعارضه عمر بن الخطاب لكيلا تكون للروم طريق نافذة إلى المدينتين المقدستين . وأقيمت منف باسم الفسطاط ، وكان الأهلون يخافون إذا لم تبلغ مياه النيل ارتفاعا معينا فى زمن الفيضان فيضطرب حبل الأمن فى الغالب . فنقص عمرو بن العاص أذرع مقياس النيل إلى الحد الذى يبلغ النيل به درجة مطمئنة فلا يساور النفوس ذعر باطل بعد ،وأنجزت بفضل تلك

الحكومة الصالحة مشاريع عظيمة ، فأعادت مصر لشبابها فى زمن قصير "[1].

نلاحظ على هذه القصة عدة ملاحظات مهمة لابد وأن تكون نصب أعيننا ونحن ننظر فيما يذكره هذا الكاتب الذى اعتقدت بعض الكتابات أنه ينصف التاريخ العربى :

1- ما يذكره من أن عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يسأله عن (ضرورة انتهابها وتخريبها) وهذه فرية جديدة يراد لها أن تلصق بالمسلمين ، وهم الذين عملوا على الإصلاح الإدارى وتنظيم المؤسسات فى مصر ، بعد أن كانت نهبا للرومان .

2- ما يذكره من إعادة إنشاء قناة القلزم القديمة .

3- رأى عمرو بن العاص ضرورة (حفر قناة السويس) ومعارضة عمر بن الخطاب .

إن هذه النقاط تستحق منا أن نتوقف قليلا عند ما يذكره هذا الكاتب لنفهم طبيعة الرأى الذى يمثله ، ولنعرف أيضا رأى واحد من أهم المؤرخين المصريين المعاصرين. نتناول فيما يلى الموضوعين الثانى والثالث لارتباطهما معا ولأهميتهما فى التحليل المعرفى للقصة ككل .

---

[1] سيديو ، المرجع السابق ، ص 150- 151

قناة السويس

كان موضوع قناة السويس من بين أهم الموضوعات التاريخية التى عرضها وتناولها المؤرخ والأثرى سليم حسن فى موسوعته مصر القديمة . ونلاحظ أنه حرض فى الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة على اضافة ملحق عنوانه " قصة قناة السويس من أقدم العهود وحتى نهاية القرن التاسع عشر " نقتطف فى هذا الموضع ماذكره الأستاذ سليم حسن ويتصل بالنقطة الراهنة التى تهمنا ، وهو مايمكن تلخيصه فى النقاط الآتية :

1- أن أول تفكير فى ايصال البحر الأحمر بالبحر المتوسط بقناة متفرعة من نهر النيل يرجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية حوإلى 2000 ق .م .

2- أن البحث الأثرى والهندسى يدل على وجود آثار ثلاث قنوات هى:

أ- قناة ثاروا (تل أبو صيفة الحالية) وتبعد حوإلى أربعة كيلومترات من القنطرة الحالية ويسميها الأثرى كليدا (قناة الجفار).

ب – قناة الفراعنة أو (القناة القديمة) .

ج –قناة بطلميوس الثانى (فيلادلف) .

3- أن هيرودوت يتحدث صراحة فى الكتاب الثانى من تاريخه العام عن قناة السويس ، وأنه عاش فى زمن كانت القناة فيه مفتوحة للتجارة.

يقول هيرودوت عن بسميتيك الأول " وقد كان لهذا المكلك (بسمتيك) ابن يدعى (نكاو) خلفه على العرش ، وكان هو أول من بدأ حفر القناة التى تجرى لتصب فى البحر الأحمر ، وكان (دارا) ملك الفرس ثانى ملك اهتم بها وكان طولها أربعة أيام بالسفينة ، وكانت تتسع لسير سفينتين فيها متحاذيتين ... وتبتدىء فتحة هذه القناة فى ريف مصر (الدلتا) من جهة مقاطعة العرب وتستمر جارية فى أعلى هذا الريف محاذية جبل المحاجر المجاور لمدينة منف ... وفى أثناء انشغال (نكاو) بالقناة المذكورة مات فيها مية وعشرون ألف مصرى ، وقد أمر بوقف العمل بسبب ذلك ".

4-وفى كتاب الأجواء Meteorlogie لأرسطو نجده يتحدث عن المصريين والقناة بقوله " نحن نعتبر أقدم البشر هؤلاء المصريين الذين تظهر كل بلادهم قاطبة من عمل النيل ولا تعيش إلا به . وهذه حقيقة تفرض نفسها على أى فرد يجوب هذه البلاد ... والواقع أن أحد الملوك شرع فى القيام بحفر البرزخ ، فإن جعل هذا الممر صالحا للملاحة كان له فائدة عظمى ، والظاهر أن (سيزوستريس) هو أول الملوك القدامى الذين تبنوا هذا العمل ، لكنه قد لاحظ أن مستوِى الأراضى كان أكثر انخفاضا عن مستوى البحر" .

5- أما ديودور الصقلى فقد ذكر قناة السويس بقوله : ويخرج من الفرع البلوزى قناة صناعية تجرى إلى الخليج العربى (أى خليج السويس)

والبحر الأحمر ، وكان (نكاو) بن بسمتيك هو أول من أقام بناءها ، وقد عمل فيها الملك دارا الفارسى مدة ، ولكنه تركها نهائيا دون أن تتم لأن بعض الناس أخبروه أنه إذا حفر البرزخ كان مسؤلا عن اغراق مصر لأن مستوى البحر الأحمر فى نظرهم كان أعلى من أرض مصر . وفى زمن متأخر عن ذلك أتمها بطلميوس الثانى وأقام فى أقوى نقطة فيها نوعا من الأهوسة وكان يفتح الهويس حينما يريد المرور فيه ثم يغلق ثانية بسرعة ، وقد أسفر استعماله عن أنه مخترع ناجح مفيد ".

6- أما استرابون فقد نقل عن الجغرافى ارتميدورس (100 ق .م) أن أول قناة عندى يبتدىء الإنسان من بلوز هى القناة التى تملأ البحيرات المستنقعة كما تسمى ، وهما اثنتان فى العدد وتقعان على الجهة اليسرى من النهر الكبير فوق بلوز فى مقاطعة العرب ، وهو يتحدث كذلك عن بحيرات أخرى وقنوات فى نفس الاقليم خارج الدلتا ... وتوجد قناة أخرى تصب ماءها فى البحر الأحمر والخليج العربى بالقرب من مدينة ارسنوى وهى مدينة يطلق عليها بعض الكتاب اسم كليوباتريس وهى تصب كذلك فى البحيرات المرة كما تسمى ، وقد كانت حقيقة مرة فى الأزمان المبكرة ، ولكن عندما حفرت القناة السابقة الذكر تغير ماؤها وذلك بسبب اختلاطه بالنهر ... وكان أول من حفر القناة هو الملك سيزوستريس قبل حرب طرواده ، وان كان البعض يقول أن ابن بسمتيك ابتدأ فيها فقط العمل ثم مات ، وخلفه فى العمل فى القناة دارا

الأول ولكنه بدوره كذلك قد ترك العمل فيها بسبب فكرة خاطئة راودته عندما كانت القناة على وشك أن تتم ، فقد اقنع أن ماء البحر أعلى مستوى من أرض مصر ، وأنه إذا قطع البرزخ الذى بينهما فى كل طوله فإن البحر سيغرق البلاد . وعلى أية حال فإن ملوك البطالمة قد قطعوا البرزخ طولا وجعلوا البوغاز ممرا مقفلا "

7- يتحدث المؤرخ الرومانى بلينى القديم عن القناة قائلا " ... وهناك ميناء دانون وهى مؤسسة صيدية منها خرجت قناة للملاحة حتى النيل يبلغ طولها 62000 خطوة حتى الدلتا (وهذه هى المسافة التى بين النهر والبحر الأحمر) حفرها أولا سيزوستريس ملك مصر ثم دارا ملك الفرس وأخيرا بطلميوس الثانى ، وهذا الأخير عمل قناة عرضها ماية قدم وعمقها أربعون قدما (وفى رواية أخرى ثلاثون قدما) وطولها 37500 خطوة حتى حوإلى البحيرات المرة ، ولم تتم خوفا من الفيضان ... " .

8- أما جراجوار الطورى وهو مؤرخ فرنسى (567 م) فقد كتب عن قناة السويس وهو يدون تاريخ فرنسا مايلى : يجرى النيل من الغرب إلى الشرق نحو البحر الأحمر . وتمتد فى الغرب بحيرة حقيقية بمثابة ذراع من البحر الأحمر تجرى نحو الشرق طولها خمسين ميلا وعرضها ثمانية عشر قدما . وتوجد عند رأس هذه البحيرة مدينة كلزما (القلزم) ولم تقم هناك لأن الموقع خصب التربة فإنه لا توجد تربة

أكثر جدبا من هذا المكان، ولكنها أقيمت بسبب الميناء ، وذلك لأن السفن التى تأتى من الهند ترسو هناك بسبب صلاحية هذه الميناء ، وقد كانت توزع منا السلع المستوردة على كل مصر ... " .

9- يذكر المؤرخ العربى الفرجان (828 م) : أن قناة تراجان التى تمر بـــ (بابليون) مصر . كما يقول بطلميوس الجغرافى بألفاظ صريحة هى نفس القناة التى سنيت (خليج أمير المؤمنين) وهو الذى يجرى بمحاذاة الفسطلط . وذلك لأن (عمر) أمر أن تطهر هذه القناة التى كانت فى عهده مردومة بالرمال من جديد لأجل أن تحمل المؤن إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة .

10- أما المقريزى فيذكر " ... ثم أن عمرو بن العاص رضى الله عنه جدد حفره لما فتح مصر وأقام فى حفره ستة أشهر وجرت فيه السفن تحمل الميرة إلى الحجاز فسمى خليج أمير المؤمنين (يعنى عمربن الخطاب رضى الله عنه) فإنه هو الذى أشار بحفره ولم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم التى كانت على حافة البحر الشرقى حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر ب (السويس) ... إلى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمسين ومائه فطم وبقى منه ما هو موجود الآن .

11- يذكر شمس الدين : وهذه القناة كانت تجرى حتى مدينة القلزم وتمر بالقرب من السويس وكانت مياه النيل تصب فى هذا المكان فى

الماء المالح .... وقد أمر عمر بتطهير هذه القناة واعادة حفرها وسماها خليج أمير المؤمنين .

12- أما المسعودى (+ 956 م) فقد ذكر وصفا تفصيليا للموقع الجغرافى لبحر الروم وبحر القلزم .

13- وأما الكندى فيلسوف العرب والجغرافى فقد ذكر فى كتابه (الجندى العربى) : أنه بدىء حفر الخليج فى سنة ثلاث وعشرين وفرغ منه فى ستة أشهر وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع ثم بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة فى ولايته على مصر، ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم اضاعته الولاه بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم .

يفهم من التطور السابق أن التفكير فى قناة السويس لم يكن وليد القرن التاسع عشر فى العصر الحديث ، ولم يكن مشروعا جديدا على مصر ، وإنما كان مشروعا مصريا قديما تناولته الأيدى المصرية وقدحت فيه العقول المصرية ، وهو ما أردنا التنبيه إليه .

-4-

ابن النديم

الفهرست وأول رواية

متكاملة عن يحيى النحوى

يعد كتاب الفهرست لابن النديم من أهم المصادر التى لدينا عن العلوم والمفكرين القدماء . وابن النديم قدم لنا أول صورة فكرية عن يحى النحوى . لنقترب من نص ابن النديم لنتعرف على حقيقة الصورة التى رسمها وجانبها المتشعبة.

يقول ابن النديم [1]:

"كان يحى النحوى تلميذ ساوارى ، وكان أسقفا فى بعض الكنائس بمصر . ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية . ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث ، فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم ، واستعطفته وأنسته وسئلته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ، فاقام على ماكان عليه وابى أن يرجع ، فاسقطوه .

وعاش إلى أن فتحت مصر على يدى عمرو بن العاص ، فدخل إليه وأكرمه ، ورأى له موضعا وقد فسر كتب أرسطاليس . وقد ذكرت مافسره فى موضعه . وله من الكتب بعد ذلك ، كتاب الرد على برقلس،

[1] ابن النديم ، الفهرست ، ص ص 314-315

ثمان عشرة مقالة . كتاب فى ان كل جسم متناهى فقوته متناهية ، مقالة. كتاب الرد على أرسطاليس ، ست مقالات . كتاب تفسير ما بال لأرسطاليس العاشر ، مقالة يرد فيها على نسطورس . كتاب يرد فيه على قوم لا يعترفون ، مقالتان، ومقالة أخرى يرد فيها على قوم آخر . وله تفسير شيء من كتب جالينوس فى الطب ، نحن نذكر ذلك عند ذكرنا جالينوس . وذكر يحى النحوى فى المقالة الرابعة من تفسيره لكتاب السماع الطبيعى فى الكلام فى الزمان مثالا قال فيه ، مثل سنتنا هذه وهى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة لدقلطيانوس القبطى . فهذا يدل على أن بيننا وبين يحى النحوى ثلثمائة سنة ونيف . وقد يكون فسر هذا الكتاب فى صدر عمره لأنه كان فى أيام عمرو بن العاص ."

هذه إذن مجموعة الروايات التى وصلت إلينا من التراث القديم، وآخر هذه الروايات وهى رواية ابن النديم هى وحدها التى ذكرت لنا يحيى النحوى وبعض ملامح عن الفترة التى عاش فيها . وهذه الشخصية سوف ينسج حولها البغدادى وابن العبرى وابن القفطى وغيرهم من الكتاب فى القرنين السادس والسابع الهجريين قصة الحريق المزعوم الذى لحق مكتبة الإسكندرية. نتوقف الآن لننظر فى مكونات القصة التى زعمت عن لقاء يحيى النحوى مع عمرو بن العاص ، وننظر فى مدى التشابه بين مارواه ابن النديم وما وصل إلينا فى روايات كتاب القرنين السادس والسابع الهجريين . وهل وجدت فعلا

شخصية تحمل اسم يحيى النحوى أثناء الفتح العربى الإسلامى لمصر أم لا ؟ وما هى حقيقة هذه الشخصية ؟ وإلى أى حد حدثت أخطاء أو زلات تاريخية لم يتنبه إليها من كتبوا عن هذا الموضوع وكان من الضرورى أن يتوقفوا عندها والكشف عن حقيقتها ؟ وهل أثرت الأخطاء التى حدثت على طبيعة تكوين القصة أو الرواية التى انتشرت فى القرنين السادس والسابع الهجريين ؟ كل التساؤلات المطروحة تشكل نسيج الرواية على ما سنرى .

الفصل السابع

الدراسات العربية فى القرنين
السادس والسابع الهجريين

تساءلت الكتابات العربية المعاصرة والغربية على السواء بصورة ضمنية ، ودون أن تطرح السؤال ، عن مدى الثقة فى الروايات التى وصلتنا من كتاب القرنين السادس والسابع الهجريين . وكان التساؤل يتجه دائما إلى الأشخاص دون الموضوعات ، على اعتبار ان الموضوعات التى تروى مسلم بما ورد فيها من وقائع .

لقد استوقفتنا طريقة الطرح وجعلتنا نتشكك فى تفاصيل وجزئيات كثيرة وردت بها . وربما كان الحسن بن الهيثم هو رائدنا فى هذا التجاه المعرفى ، فقد أكد لنا فى بداية كتاب الشكوك على بطلميوس وكتاب المناظر أن العلماء الذين هم موضع ثقة قد ضللونا ، ومن ثم تصبح المعرفة الآتية منهم بحاجة إلى نظر ودراسة وتحليل . وهذا ما جعلنا نحذر الكتابات القديمة ، ونضع ما ورد فيها من روايات بين قوسين حتى نتوصل على الحقائق بكل تفاصيلها . وربما غلب علينا فى هذا الصدد الطابع الديكارتى العقلانى فى التعامل مع هذه الكتابات . وربما استفدنا أيضا من تعليقات وملاحظات المؤرخين وفلاسفة التاريخ فى معرفة أسباب الكذب التاريخى أحيانا . وقد تكامل مع كل هذا معرفتنا بتاريخ العلوم العربية والغربية ، وما تنطوى عليه دلالات بعض الظواهر أحيانا . كل هذا جاء دافعا لنا لدراسة وتحليل الكتابات التى سلم بصحة المعلومات التى فيها علماء أجلاء لهم شأنهم ومكانتهم

الكبيرة. إننا هنا نتساءل عن الموضوعات معرفيا لتحديد مـدى الثقـة فيها.

لاشك أن كتابات القرنين السادس والسابع الهجريين حفلت بروايـات متعددة عن الفتح العربى لمصر . وهذه الكتابات يمكن أن نلتقط منهـا بعض النصوص التى ترددت فيها والتى من أهمها كتابات موفق الدين عبد اللطيف البغدادى(557 –629 هـ) فى كتابه الإفـادة والاعتبـار ، وكتاب تاريخ مختصر الدول لابن العبرى(622 – 684 هـ) ، وكتـاب تاريخ الحكماء لابن القفطى(565 –646هـ) ، وكتاب عيـون الأنبـاء لابن أبى أصيبعة.

كان كتاب البغدادى أول من من ذهب إلى أن عمـرو بـن العـاص احرق خزانة الكتب بالإسكندرية ، ومن ثم كان أول من أثار المشكلة ، وأكمل ابن القفطى نسج القصة : كان ابن القفطى أول من توسـع فـى نسج قصة خيالية عن حريق مكتبة الإسكندرية ، وقـد تـدوولت هـذه القصة فى كتابات الكتاب اللاحقين بدرجات متفاوتـة . وقـد جـاءت رواية البغدادى معيبة من جوانب متعددة سوف نقف علـى أبعادهـا ، ولكن قبل أن نستبق الحكم علينا أن نرى الجوانب المختلفة لهذه القصـة التى اختلط فيها الخيال بالواقع. مما قد انعكس على الروايات التاليـة ، وبصفة خاصة ما ذكره ابن القفطى فى روايته التى احتوت على عـدد من التصورات التى لا تسندها الوقائع أو الأحداث التاريخية ، أو حتـى

تواريخ الملوك أو الدول ، وهده مسألة تسترعى الانتباه فى تحليل الأحداث وربطها ببعضها .

-1-

نص البغدادى

فى كتاب

الإفادة والاعتبار

يقول[1]:

" ورأيت حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف ، وعمود السوارى عليه قبة حاملها، وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه ."

تحليل

إن هذا النص الذى يقدمه لنا البغدادى معيب من نواح متعددة أهمها الأخطاء التاريخية التى وقع فيها والتى تدل إما على جهله بالوقائع

---

[1] البغدادى ، الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، مطبعة وادى النيل ، طبعة أولى ، 1286 ه ، ص 28

الحقيقية ومعرفة التاريخ وأحداثه ، أو إنها مقصودة ومتعمدة ، وبخاصة أن سياق الأحداث التي كان يرويها البغدادي في الإفادة والاعتبار لا يسمح بمثل هذه الرواية . فمن جانب يرى بعض المؤرخين[1] أن هذه الرواية أشبه بخرافة تتداولها الألسنة . وبطبيعة الحال فإن ذكر البغدادي لهذه القصة دون أن يتحقق منها يعني أنه يأخذ الكلام من أفواه العامة ليجعل منه علما وحقائق يسلم بها العلماء .

وربما أمكن لنا أن نبين الأخطاء التي وقع فيها البغدادي قصدا أو سهوا في الآتي:

1- مايذكره البغدادي من أن عمود السواري هو الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطو . إن الخطأ التاريخي واضح في هذا القول ، ذلك أن أرسطو لم يعلم في الإسكندرية ، ولم تكن له مدرسة فيها . وأن رواق أرسطو كان في أثينا حيث أسس أرسطو مدرسته الفلسفية . ولسنا نعلم على وجه اليقين مصدر هذه الفكرة عند البغدادي .

2- أن ثمة أخطاء تاريخية أخرى وقعت عند البغدادي في قصته ، لأن عمود السواري الذي يذكره البغدادي وهو ما يعرف أيضا بعمود دقلديانوس ، يقول بتلر " وقد عرف موضع السرابيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء وصفه في الكتب القديمة ، ومما أسفر عنه البحث

[1] د. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ عمروبن العاص ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1966 ،ص 169

الأثرى فى العصور الحديثة . ويقرن ذكر السرابيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذى سماه العرب (عمود السوارى) وكان على مقربة من الباب الجنوبى للمدينة وهو الذى يسميه العرب باب الشجرة"[1]. والجدير بالذكر أن الأستاذ آلان ويس تناول هذه المسألة فى مقالة مهمة له بعنوان "ملاحظات سكندرية"[2] حيث يسجل بعض الاعتراضات علي تسمية عمود السواري باسم (عمود بومبيوس) ويذكر أنها تسمية خاطئة اطلقت إبان الحروب الصليبية حيث كان يعتقد أن رأس بومبيوس مدفونة في هذا الموقع. كذلك يعترض علي تسميتها في العصر الإسلامي باسم (عمود السواري) لأنها تسمية غامضة وليس لها ما يبررها . ويذكر أن العمود قد أقيم في عصر (دقلديانوس) في نفس الموقع القديم لمعبد السرابيوم الذي كان يضم المكتبة الصغري في الإسكندرية .

3- مايذكره البغدادى من أن الإسكندر هو الذى بنى دار العلم بالإسكندرية . وهذا خطأ تاريخى واضح ، لأن دار العلم أنشأت فى

---

[1] بتلر ، المرجع السابق ، ص ، 399

[2] WACE,Alan J.B., Alexandrian Notes , An Article issued in the Bulletin of Farouk I university,Vol .11 , 1944,pp.1-16

و راجع أيضا : الاسكندرية عبر العصور ، مجلة كلية الآداب ، 2001 ، تقديم د. ماهر عبد القادر محمد ، ج1 من الاصدارة الإنجليزية ص ص 103-122

عهد بطلميوس الأول (سوتر) واستكملت فى عهد بطلميوس فلادلفيوس . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الإنجاز زمن الإسكندر .

وهنا لابد لنا أن نتساءل عن مصدر الخطأ فيما يذكره البغدادى . هل يرجع الخطأ بشقيه إلى الفكرة التى شاعت لدى الناس عبر الزمن عن مكتبة أرسطو التى اشتراها ديمتريوس الفاليرى بناء على توجيهات وتعليمات بطلميوس الأول . ومن المعروف أن هذه المسألة كما أشرنا فى تحليلاتنا لحياة وأعمال ديمتريوس الفاليرى تكتنفها صعوبات كثيرة ، وبخاصة مع القول بأن الفاليرى جاء إلى الإسكندرية فارا بعد أن أطيح به فى انقلاب على السلطة .

أضف إلى هذا ما يذكره البغدادى فى نهاية حديثه من أن خزانة الكتب حرقها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر وهى مسألة بطبيعة الحال موضع تحليلنا حيث لم يقدم البغدادى أى دليل على صحة ما يقول فى روايته . لكن هذه القصة كانت موضع تعليق من جانب بعض المؤرخين المهمين الذى تناولوا هذه الفترة بالدراسة والبحث. فمن جانب يذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن رواية البغدادى ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة ، وأن هناك مؤرخين شهيرين معاصرين للفتح الإسلامي وهما أنتيخوس الذى فصل خبر فتح الإسكندرية تفصيلا مسهبا ، وكذلك يوحنا أسقف نقيوس وهو مؤرخ عاش أيضا فى القرن السابع الميلادى وتاريخه عن فتح مصر من أهم

المصادر التى يعتمد عليها ، فإذا كان هذا الخبر صحيحا بأى صورة من الصور لم يكن ليمر عليهما بدون ذكر .

كذلك فإن هناك مصادر عربية ذكرت أخبار فتح الإسكندرية ولا نجد فيها أى ذكر لرواية من هذا القبيل .

أما الدكتور مصطفى العبادى فإنه ينظر لرواية البغدادى على أنها مظهرا من مظاهر" ضعف ثقافة عبد اللطيف عن تاريخ الفكر الاغريقى وأنه لم يعلم من تاريخ الموسيون ومكتبات الإسكندرية شيئا"[1]. ومعنى هذا أن ترد القصة برمتها إلى أسباب الجهل ، وفى هذه الحالة يحق لنا أن نتساءل وفقا لرواية البغدادى: أيجوز الرمى بالباطل انطلاقا من الجهل؟ قد يكون فى هذا الرأى بعض التبرير ولكن هذا لا يؤسس بينة عقلية على تهافت القصة التى قدمها البغدادى أصلا . ومع هذا فإننا نعتقد من جانبنا أن البغدادى لم يقدم القصة فى السياق الذى كان من الواجب أن تقدم فيه ، كما أنه لم يقدم الحجة المنطقية المدعمة بالدليل على ما ذهب إليه من تقريرات إن فى الجزئيات أو الكليات ، وهى مسألة لابد وأن تستوقف المؤرخ لمثل هذا الحدث . ومع الوضع فى الاعتبار أن البغدادى كان من أهم المشتغلين فى عصره بالحركة العلمية ، ويعتبر فى طليعة أولئك الذين تصدروا الحلقات العلمية وقتئذ ، إلا أن

---

[1] د. مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 47

الدوافع والأسباب الحقيقية الكامنة وراء ما ذهب إليه البغدادى مجهولة بالنسبة لنا .

-2-

ابن العبري

وكتاب

تاريخ مختصر الدول

يقول ابن العبري فى كتابه تاريخ مختصر الدول عند حديثه عن الدولة التاسعة وهى دولة ملوك العرب المسلمين :

" وفى هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أى النحوى ، وكان إسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبيى ويشيد بعقيدة ساوري ، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه ، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع وصحيح الفكر فلازمه ،وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما إنك احطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع

فلا أعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال له عمرو : وما الذى تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية . فقال له عمرو : لا يمكننى أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى . فورد عليه كتاب عمر يقول فيه ، وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها فى مواقدها فاستيقدت فى ستة أشهر. فاسمع ما جرى واعجب[1] ."

تحليل

[1] يذهب المؤرخ المعروف محمد على كرد فى كتابه " الاسلام والحضارة العربية " وفى معرض نقده لنص ابن القفطى إلى أن خزانة الإسكندرية حرقت غير مرة بأمر الإمبراطورين ثيودوسيوس ويوستنيانوس ، وأن آخر حريق لها كان قبل الهجرة بمائتى سنة . ويؤكد أن جيبون فى " تاريخ سقوط دولة الرومان " أن هذه الفرية على المسلمين لفقها أبو الفرج بن العبرى فى " تاريخ مختصر الدول " حيث يقول أن عمرو بن العاص هو الذى أحرق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب ، وهو قول لم يقم عليه دليل ، وذلك بعد الإسلام بنحوستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذكرها ، حتى أن امنيكيوس بطريرك الإسكندرية ، مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر ، لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة . وقد ذكر ارفنج وكريستون وفلين وغيرهم ، أن ما اشيع من مساوىء الإسلام أو المسلمين لهذا الشأن ، لم يكن له ذكر من قبل نقل كتاب " مختصر الدول " إلى اللاتينية ، ومن ذلك الحين ابتدأ الغربيون يبغضون المسلمين ويحتقرونهم .(محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، ج 1 ، ص 20-23)

نريد أن نربط تحليل رواية ابن العبرى بالقصة التى قدمها لنا ابن القفطى فى كتابه تاريخ الحكماء ، وما يذكره ابن أبى أصيبعه فى عيون الأنباء ، ولكن قد يبدو من الضرورى أن نشير فى هذا الموضع إلى أن العبارة الأخيرة التى يقول فيها " فاسمع ماجرى واعجب " هذه العبارة ذاتها سبق وأن استخدمها صاعد الأندلسى حينما اكتشف مواضع الخلل فى الروايات التى ذكرت أن حنين ابن اسحق تعلم العربية على الخليل ابن أحمد ، والتناقض البين الذى اكتشفه صاعد الأندلسى يتمثل فى أن حنين ابن اسحق كان طفلا صغيرا حين مات الخليل ابن أحمد . ولذا وجدنا صاحب طبقات الأمم يستخدم صيغة السخرية والتعجب (فاسمع ما جرى واعجب) لكن هذا لاينطبق على ابن العبرى أو ابن القفطى فكلاهما استخدم نفس الصيغة بصورة تقريرية للجانب الإيجابى من القصة. ومثل هذا الأسلوب فى الكتابات العربية القديمة يعتمد على ذكاء القارىء.

لكننا نريد أن نتوقف قليلا فى هذا الموضع لنفسر ونحلل جزءا مهما مما يلزمنا فى معرفة حقيقة موقف ابن العبرى .

ابن العبرى والمختصر

لماذا نضع العنوان ابن العبرى والمختصر ؟ هذا يرجع بالدرجة الأولى إلى أن بعض الكتابات وضعت بعض الأدلة لنفى صلة ابن العبرى بتأليف واشاعة خبر قصة حريق مكتبة الإسكندرية القديمة ،

وهذه الكتابات نظرت إلى جزء مفرد من القصة ولم تعالج القصة برمتها. لننظر إذن إلى القصة فى تكامل جزئياتها.

ذهب الدكتور مصطفى العبادى فى تعليقه على رواية ، أو قصة ابن العبرى إلى الرأى التالى " ولعل من المناسب – قبل أن اتعرض لنقد نص ابن القفطى– أن أشير إلى ما لاحظته من اختلاف فى طبعتين مختلفتين لكتاب أبى الفرج المسمى (تاريخ مختصر الدول). ولعل هذا الاختلاف ذاته يمثل أول نقطة فى نقد القصة .... واسم أبو الفرج هو جريجوريوس بن هارون أبو الفرج الملطى ، وهو ارمنى نصرانى ، وعرف بابن العبرى لأن والده كان طبيبا يهوديا قبل أن يتحول إلى المسيحية ، وهو من مؤرخى القرن السابع الهجرى أو الثالث عشر الميلادى . .... وقصة كتاب أبى الفرج أنه وضع كتابا مطولا باللغة السريانية واسماه (تاريخ الدول) . ونظرا لما عرف به ابو الفرج من العلم وسعة المعرفة ، تقدم إليه عارفى فضله من العرب أن ينقل كتابه إلى اللغة العربية لتعم الفائدة منه ، فقام بنفسه باختصار الكتاب المطول، وسمى الكتاب العربى الذى بين أيدينا (تاريخ مختصر الدول) وقد تم طبع النص العربى حتى الآن ثلاث مرات ، الأولى قام بها بوكوك فى اكسفورد عام 1665 (واعيد طباعتها سنة 1806) ، والثانية فى ليبسك بألمانيا سنة 1785 ، والثالثة فى بيروت سنة 1890 وقام بها الأب انطوان صالحانى . وبعد مقارنة طبعة أوكسفورد

لبوكوك مع طبعة بيروت للأب أنطوان صالحانى ، وجدت أن طبعة بوكوك تردد قصة حريق عمر للمكتبة حرفيا تقريبا كما وردت عند ابن القفطى ، فى حين أن طبعة الأب انطوان صالحانى تسقطها تماما ".
أريد فى واقع الأمر أن اتوقف عند هذه النقطة لأهميتها فى التحليل .
1- يذكر الدكتور العبادى أن طبعة الأب أنطوان صالحانى تسقط القصة تماما ولاتذكرها ، وهذا التقرير لا يتفق مع صحيح الوقائع ، لأن طبعة الأب أنطوان صالحانى بين أيدينا ، وهى صادرة عن دار الرائد فى بيروت ، وقد كتب على غلاف الطبعة العبارة الأتية (**تاريخ مختصر الدول للعلامة غريغوريوس أبى الفرج بن اهرن الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى . وقف على تصحيحه الأب أنطوان صالحانى اليسوعى**). ويبقى علينا أن نفسر الأمر فيما يقرره الدكتور العبادى فى أمر طبعة المختصر .
2- إما أن الدكتور العبادى قد اطلع على طبعة أخرى للأب أنطوان صالحانى ، أو أنه أخذ عبارته عن مصدر آخر أشار إلى أن الأب أنطوان صالحانى لم يذكر القصة فى نشرته ، وبطبيعة الحال قد يكون غير طبعة بكوك . أما الأمر الأول فقد جرينا وراءه وقتا طويلا لعلنا نصل إلى نسخة أخرى صادرة عن دور النشر اللبنانية أو أية دور نشر أخرى ، ولم نجد طبعات أخرى غير الطبعة التى بين أيدينا ، والتى تثبت نسب القصة إلى ابن العبرى . وأما الفرض الثانى فمن المعروف

أن الكتابات الغربية تفضل أن تنسب القصة إلى ابن القفطى لعدة اعتبارات منها أنه عربى ومسلم ، وأن قصته انطوت على حكايات وأحداث جزئية أكثر مما تتضمنه رواية ابن العبرى. والواضح أن الفرق بين ماقدمه الدكتور العبادى من آراء وما نذكره هنا يتمثل فى أن الدكتور العبادى أشار إلى أن ابن العبرى ذكر القصة . ولكن أية قصة؟

3- إن الدكتور العبادى لم يقدم لنا قصة ابن العبرى ولاندرى لهذا تفسيرا، هل هذا يرجع إلى ما سبق أن قرره من عدم تطابق رواية ابن العبرى حرفيا مع الروايات الأخرى ، التى ترددت فى قصة البغدادى أو ابن القفطى ؟ وحتى فى هذه الحالة لابد من ذكر القصة لأنها من أركان التحليل . أضف إلى هذا أن الدكتور العبادى يذكر أن طبعة بكوك ذكرت القصة (ولكنها بطبيعة الحال قصة ابن القفطى) وأن طبعة صالحانى لم تذكرها ، أو هى تسقطها . ويرتبط بهذا أيضا مسألة التطابق مع قصة البغدادى أو ابن القفطى ، وهما فى الأصل لا تطابق بينهما إلا فى ذكر رواية احراق المكتبة .

4- أما ما نختلف فيه مع الدكتور العبادى فيرجع إلى أن القصة التى ذكرناها هنا لابن العبرى مأخوذة عن طبعة الأب أنطوان صالحانى الصادرة فى بيروت وقد ذكر ابن العبرى القصة كاملة فى عنايته بدولة ملوك العرب المسلمين وهى الدولة التاسعة .(ص ص 175- 176) .

ولكن يبقى السؤال لماذا ينسب الدكتور العبادى انتقال القصة إلى الغرب

عن طريق ابن القفطى ؟ أهى قصة حقيقية أم أنها خرافة أريد لها أرضا خصبة فى فترة ابن العبرى وابن القفطى التى اتسمت إلى حد كبير بضعف الثقافة التاريخية على وجه الخصوص وقت بدأت النوازل تنهال على العرب والمسلمين ؟ ولماذا لم يقدم لنا الدكتور العبادى قصة ابن العبرى رغم أنه يشير (ص 49-50) إلى أن القصة وردت عند ابن العبرى ؟ وما هى الدوافع الحقيقية لتبرئة ابن العبرى؟ هل التبرئة ناتجة فعلا ، كما يذكر الدكتور العبادى ، عن وجود **نص أوفى** موجود عند ابن القفطى ، مما جعله يرتب نتيجة لاتتسق مع المقدمات الناقصة، وهو ما يمكن أن يؤثر على معرفة القارىء واستنتاجاته ، ويترتب على هذا أن يعتقد الكاتب والقارىء معا أن الاشكالية ليست قائمة ، أو أن الحل قد استكمل، ومن ثم يصبح الحديث عن هذه الإشكالية فى الكتابات العربية أو الغربية على السواء، فى غير موضعه (يقول " وقد تبين الآن أن قصة الحريق قد وردت على **نحو أوفى فى نص أكثر قدما** ، فقد زالت عن أبى الفرج هذه المسؤلية ، بل لعل من الممكن تبرئته منها نهائيا" ص 50) ؟

5- لكننى فى واقع الأمر أريد أن أتوقف عند مسألة طبعة الأب أنطوان صالحانى وما يذكره الدكتور العبادى . يقول " وجدت أن طبعة بوكوك تردد قصة حريق عمر للمكتبة حرفيا تقريبا كما وردت عند ابن القفطى، فى حين أن طبعة الأب انطوان صالحانى **تسقطها تماما** " ،

ومعنى هذا أن القصة ليست موجودة فى طبعة الأب أنطوان صالحانى وهذا يعنى من الناحية المعرفية أن ما اسقط إنما قد يكون لعدم وجوده أصلا ، أو لتعمد اسقاطه مع وجوده لاخفاء شيء ما أو للتأثير على عملية الاستنتاج ، أو للوصول إلى نتيجة مرغوبة عند القارئ . ومن الناحية المنطقية فإن عملية الاسقاط فى هذه الحالة تعنى حذف مقدمة من المقدمات التى قد تؤثر على التحليل والنتيجة معا. يبدو أن هذا التقرير الذى اشار إليه الدكتور العبادى يتعارض من الناحية العقلية مع الاشارة التى قدمها فى صفحة 77 ويقول فيها حرفيا (تاريخ مختصر الدول ، لأبى الفرج الملطى المعروف بابن العبرى ص 180-181 طبعة بوكوك سنة 1650- وأعيد طبعها سنة 1806 ، والنص غير كامل فى طبعة الأب انطوان صالحانى اليسوعى – بيروت(1890) ص 175). إذاً عرف الدكتور العبادى نص ابن العبرى الموجود فى طبعة الأب انطوان صالحانى ، ومع ذلك قرر مسبقا أن طبعة صالحانى تسقطها (أى القصة) ، ثم يقرر أن النص (غير كامل) ؟ لسنا ندرى أيهما نضع فى الاعتبار عند التحليل التقرير الأول أم التقرير الثانى ، خاصة إذا كنا بصدد التحليل المعرفى ؟ وبطبيعة الحال فإن الدكتور العبادى كمؤرخ يعرف الفوارق الجوهرية بين النص" **الكامل**" والنص "**غير الكامل**" و "**النص المحذوف**" من الناحية المعرفية والتاريخية . ونحن نعرف أيضا فى مجال تاريخ العلم أن عدم التمييز بين هذه

المستويات المعرفية الثلاثة للنص يؤثر على تحليل وتركيب الوقائع إذ في هذه الحالة سيتم اثبات وقائع غير صحيحة لدى القارىء الذى لايعرف طبيعة الحدث التاريخى أصلا .

6- أضف إلى ذلك أن الدكتور العبادى استند إلى أن القصة وردت كاملة عند ابن القفطى ، وعلى هذا الأساس يصبح ابن العبرى بريئا ، ولسنا نعرف المبرر الذى جعل الدكتور العبادى يتخذ مسألة النص الكامل سندا ويسقط النص الناقص تماما من مقومات الدليل ، على الرغم من أن النص الناقص قد يكون أكثر أهمية للمؤرخ ، وأكثر قوة وثراءً ، من النص الكامل، لأن المسألة قد تتعلق بقوة البينات والمعلومات التاريخية التى يحتملها النص وما يترتب عليها من أدلة تاريخية. والدكتور العبادى يعتمد على فكرة أن النص الذى قدمه ابن القفطى أقدم ، وهذه مسألة أخرى لانعرف لها مبررا . لقد عرف كتاب ابن القفطى فى العالم الغربى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، على حين أن كتاب ابن العبرى فى طبعتيه المطولة والمختصرة لابد أن يكون قد عرف فى القرن الثالث عشر الميلادى فى طبعتيه العبرية والسريانية إذ الغرب اللاتينى عرف اسم ابن العبرى برسمه اللاتينى (بارباريوس) باعتباره يهودى الأصل مسيحى الديانة ، سريانى العبارة. وجاءت طبعة بكوك فى اكسفورد عام 1665 وليس عام 1650. ومن

ثم ليست العبرة بالنص الكامل أو النص الناقص ، ، إنما العبرة بما يرد فى النصوص من وقائع .

7- لماذا ركز الدكتور العبادى والكتابات التاريخية من قبله على رواية أو قصة ابن القفطى ولم تتناول بالتحليل الشخصية المفتاحية فى نصي ابن العبرى وابن القفطى وهى شخصية يحيى النحوى ؟ هل هناك من أسباب تقف وراء عدم العناية بشخصية تاريخية مهمة كنا نتوقع أن تكون موضع تحليل الدكتور العبادى ؟

إن التساؤلات التى أثرتها حول نص الدكتور العبادى باعتباره قراءة للحوادث التاريخية ترفع من قيمة النص فى التحليل الفلسفى والتاريخى والعقلى معا ولا توجه نقدا للنص أو كاتبه وإنما تقرأ النص (الذى هو قراءة بطبيعة الحال لنصوص أخرى) بصورة مختلفة (وهو ما نحتاجه لاثراء الحركة النقدية فى التعامل مع النصوص)، وتوجه المفكرين إلى ضرورة تناول القصة- باعتبارها شكلت ظاهرة - بتحليل أعمق يكشف لنا العديد من المعطيات التاريخية.

لكن ماذا عن القصة الرئيسية فى تلك الفترة ، أقصد القصة التى رواها ابن القفطى ، وإلى أى حد يمكن الوثوق بها ؟ وما عناصرها ومكوناتها ؟ وهل يمكن إجراء التحليل التاريخى عليها ككل؟ يشغلنا هذا الأمر الآن لنستكمل جوانب القصة .

-3-

نص ابن القفطى
فى كتاب
تاريخ الحكماء

يقول ابن القفطى فى كتابه "تاريخ الحكماء " :

"{يحى النحوى } المصرى الإسكندرانى تلميذ شاوارى كان أسقفا فى كنيسة الإسكندرية بمصر ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية ، ثم رجع عمايعتقده النصارى فى التثليث لما قرأ كتب الحكمة واستحال عنده جعل الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا . ولما تحققت الأساقفة بمصر رجوعه عز عليهم ذلك ، فاجتمعوا إليه وناظروه ، فغلب وزيف طريقه، فعز عليهم جهله ، واستعطفوه وآنسوه وسألوه الرجوع عماهو عليه وترك إظهاره ماتحققه وناظرهم عليه فلم يرجع فأسقطوه عن المنزلة التى هو فيها بعد خطوب جرت .. وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، ودخل علي عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فأكرمه عمرو ورأى له موضعا ، وسمع كلامه فى إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر، ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله . وكان عمرو عاقلا حسن

الاستماع صحيح الفكر فلازمه، وكان لايكاد يفارقه . ثم قال له يحى يوما انك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما مالانفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالإفراج عنه . فقال له عمرو : وما الذى تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها ، فقال له : ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ، فقال له يحيى : إن بطلميوس فلادلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن ، فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بزميرة وتقدم إليه بالإجتهاد فى جمعها وتحصيلها والمبالغة فى أثمانها وترغيب تجارها فى نقلها ، ففعل ذلك . فاجتمع من ذلك فى مدة أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها ، قال لزميرة : أترى بقى فى الأرض من كتب العلوم ما لم يكن عندنا؟ فقال له زميرة : قد بقى فى الدنيا شىء كثير فى السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم . فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك إلى أن مات الملك . وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلى الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا ، فاستكبر عمرو ما ذكره يحى وعجب منه وقال : لايمكننى أن آمر فيها بأمر

إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحى الذى ذكرناه ، واستأذنه ما الذى يصنع فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب الذى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله فلا حاجة إليها ، فتقدم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها فى مواقدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها ، وذكروا أنها استنفذت فى مدة ستة أشهر فإسمع ماجرى وتعجب [1]."

إن نص ابن القفطى ملىء بالأحداث ، وهذا النص يشير إلى تواصل الحوار بين عمرو بن العاص ويحيى النحوى ، وهو يصور هذا الحوار وكأنه على السجية ، ويحدث بين صديقين حميمين . وحسب النص فإن يحيى النحوى لحق أوائل الإسلام ، فهل كان يتحدث العربية أم السريانية أم اليونانية ؟ لقد كانت اللغة العربية لغة جديدة وافدة إلى مصر ، وهى بالضرورة لغة الفاتحين ، وكانت السريانية لغة راسخة بالإضافة إلى اللغة اليونانية . وقد أشار ابن النديم فى الفهرست إلى أن يحيى النحوى شرح كتاب الكون والفساد لأرسطو شرحا تاما[2] . كما ذكر ابن القفطى أن كتاب الكون والفساد شرحه " يحيى النحوى ووجد

[1] ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ص 232-233
[2] ابن النديم ، الفهرست ، ص ، 311

شرحه بالسرياني فنقل إلى العربي وقال أهل العلم بالسرياني أنه بالسرياني فوق العربي في الجودة "[1]. إذن من الطبيعي أن تكون لغة يحيى النحوي هي السريانية لا العربية ، ويصبح ما حدث من حوار بين يحيى النحوي وعمرو بن العاص في أوائل الإسلام على حد قول ابن النديم وابن القفطي ، إنما حدث باللغة السريانية ؛ ذلك لأن إجادة اللغة العربية فهما وحديثا بالنسبة ليحيى النحوي مسألة تحتاج إلى وقت. فإذا وضعنا في الاعتبار أن الرواية المذكورة حدثت بعد الفتح مباشرة ، وأن تعلم اللغة يحتاج إلى وقت ، وأن الحديث الذي دار بين الرجلين طويل ، فهل كان الحديث بينهما مباشرا وبدون وسائط أم عبر الترجمة؟ ومن الذي كان يترجم إذا كان الأمر كذلك ؟ هل كان عبد الله بن عمرو بن العاص الذي كان يعرف بعض السريانية حسب بعض المصادر؟[2] كل هذه مشكلات يثيرها النص من الناحية الفنية التكنيكية ، وسوف نتبين الجوانب الخفية فيما يتعلق بيحيى النحوي ونحن نعرض لشخصيته وحقيقته تفصيلا في تحليلاتنا اللاحقة .

---

[1] ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص 30

[2] **ALI , Maher.**, *The Alexandrian Library: New Evidence and New Criticism*, The International Conference of the Legacy of Ancient Alexandria, 25-27 March 1986.

الجدير بالذكر أن نص ابن القفطى يتطابق تماما مع نص ابن العبرى، ويمكن للقارىء أن يرى مواضع التطابق فى العبارات بصورة حرفية ، وأن يتبين أن ماذكره ابن القفطى فى المواضع غير المتطابقة، أو المستقلة ، لا يتعلق إلا بالسياق من الظاهر .

التحليل النقدى للعبارات التى وردت

عند ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى

يبدو أنه من الضرورى أن نبين المشترك بين روايات ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى لأهميتة فى الوقوف على أبعاد القصة الحقيقية التى تواترت إلينا من كتابات الكتاب فى القرنين السادس والسابع الهجريين . نبحث أولا فى المتشابه ثم نتناول المختلف من العبارات .

أولا: المتشابه بين روايات ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى

1- فى حقيقة يحيى النحوى

ابن النديم : كان يحى النحوى تلميذ ساوارى ، وكان أسقفا فى بعض الكنائس بمصر

ابن العبرى : يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أى النحوى ، وكان إسكندريا

ابن القفطى : {يحى النحوى } المصرى الإسكندرانى تلميذ شاوارى كان أسقفا فى كنيسة الإسكندرية بمصر

2- **فى حقيقة مــذهبه**

ابن النديم : ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية . ثم رجع عمــا يعتقــده النصارى فى التثليث

ابن العبرى : يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبيى ويشيد بعقيدة ساوري

ابن القفطى : ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية

3- **فى حقيقة ردته عن مــذهبه**

ابن النديم : ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث

ابن العبرى : ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث

ابن القفطى : ثم رجع عمايعتقده النصارى فى التثليث

4- **فى حقيقة حرمه**

ابن النديم : فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم ، واســتعطفته وأنســته وسئلته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ، فاقام على ماكان عليــه وابى أن يرجع ، فاسقطوه .

ابن العبرى : فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجــوع عمــا هــو عليه، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته

ابن القفطى : ولما تحققت الأساقفة بمصر رجوعه عز علــيهم ذلــك ، فاجتمعوا إليه وناظروه ، فغلب وزيف طريقه، فعــز علــيهم جهلــه ، واستعطفوه وآنسوه وسألوه الرجوع عماهو عليه وترك إظهاره ماتحققه

وناظرهم عليه فلم يرجع فأسقطوه عن المنزلة التى هو فيها بعد خطوب جرت

5- لقاء يحيى النحوى مع عمرو بن العاص

ابن النديم : وعاش إلى أن فتحت مصر على يدى عمرو بن العـاص ، فدخل إليه وأكرمه ، ورأى له موضعا وقد فسر كتب أرسطاليس

ابن العبرى : وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسـكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو

ابن القفطى : وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، ودخل علي عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى لـه مع النصارى فأكرمه عمرو

ثانيا : المختلف فى روايتى ابن العبرى وابن القفطى عن ابن النديم

1-تأثير اللقاء على عمرو بن العاص

ابن العبرى : وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله ففتن به

ابن القفطى: عرف موضعه من العلم واعتقاده ومـا جـرى لـه مـع النصارى فأكرمه عمرو ورأى له موضعا ، وسمع كلامه فـى إبطـال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر، ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بهـا أنسه ما هاله

(نلاحظ هنا أن عبارة ابن القفطى تزيد على عبارة ابن العبرى بأمرين هما:الأول ، **دينى** ، حيث أن ابن القفطى ركز فـــى عبارتـــه ، امعانـــا للتصديق بما يـــذكره فى قصته عن يحيى النحوى ، وسمع كلامـــه فـــى إبطال التثليث فأعجبه .وابن القفطى حين يبرز هذه الفكرة إنما لتقريب صورة مقبولة ليحيى النحوى لدى المسلمين ، ويصبح هذا الأمر طبيعيا فى إطار الوحدانية فى الدين الاسلامى . الثانى ، **فلسفى** وسمع كلامـــه أيضا فى انقضاء الدهر . لم يتنبه ابن القفطى بطبيعة الحال أن العرب فى أيام عمرو بن العاص ، أى أيام فتح الإسكندرية لم يكن لهـــا ألفـــه بالفلسفة لأنها لم تكن قد تسربت بعد إلى الأوساط الفكرية ، ولـــم تكـــن تشغل الفاتحين الجدد)

ابن العبرى: وكان عمرو عـــاقلا حســـن الاســـتماع وصـــحيح الفكـــر فلازمه،وكان لا يفارقه

ابن القفطى : وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه، وكان لايكاد يفارقه

2-طلب الكتب

ابن العبرى : ثم قال له يحيى يوما إنك احطت بحواصـــل الإســـكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال له عمرو : ومـــا الـــذى تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية

ابن القفطى : ثم قال له يحى يوما انك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فأما مالك به انتفــاع فــلا أعارضك فيه وأما مالانفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالإفراج عنه . فقال له عمرو : وما الذى تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها

3-رأى أمير المؤمنين

ابن العبرى: فقال له عمرو : لا يمكننى أن آمر فيها إلا بعــد اســتئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى . فورد عليه كتاب عمر يقول فيه ، وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخــالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها

ابن القفطى : وقال : لايمكننى أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحى الــذى ذكرناه ، واستأذنه ما الذى يصنع فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقــول فيه: وأما الكتب الذى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتــاب الله ففــى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله فلا حاجة إليها ، فتقدم بإعدامها

4-تصرف عمرو بن العاص

ابن العبرى : فشرع عمرو بن العاص فـــى تفريقهـــا علـــى حمامـــات الإسكندرية وأحرقها فى مواقدها فاستيقدت فى ستة أشهر . فاسمع مـــا جرى واعجب

ابن القفطى : فشرع عمرو بن العاص فى تفريقهـــا علـــى حمامـــات الإسكندرية وأحرقها فى مواقدها ، وذكرت عـــدة الحمامـــات يومئـــذ وأنسيتها ، وذكروا أنها استنفذت فى مدة ستة أشهر فاســـمع مـــاجرى وتعجب

ثالثا : ما ورد فى قصة ابن القفطى ولم يرد عند ابن العبرى

1- وسمع كلامه فى إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا فـــى انقضاء الدهر

2- وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها

لابد وأن نلاحظ هنا أن الاختلاف بين ابن العبرى وابن القفطى ليس اختلافا حول مصادر أخذت منها النصوص ، وإنما الخلاف يرجع إلى أن أحدهما لابد وأن يكون قد أخذ عن الآخر مباشـــرة . وقـــد رجـــح الدكتور العبادى ضرورة أن يكون ابن العبرى قد نقل عن ابن القفطـــى معتمدا على أن ابن القفطى هو المصدر الأقدم والأوفى الذى يحتـــوى على النص الكامل. وقد بينا هذه النقطة فى التحليلات السابقة .

إن مجموعة العبارات التى ذكرناها توا وردت عند ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى ، ولما كان ابن النديم هو المصدر الأقدم فإننا نستطيع أن نرجع إليه ، لأنه فى هذه الحالة هو الأوفى معرفيا ، وفى هذه الحالة يصبح مصدر ابن النديم هو المرجع الأساسى ومصدر الرواية الصحيحة معرفيا . ومن الطبيعى أن يكون هذا المصدر قد أخذ عن مصادر أخرى أقدم منه ، ربما تكون من الكتابات القديمة المتبقية عن مكتبة الإسكندرية القديمة ، وربما تكون من مصادر عربية لم تصل إلينا . وحتى فى هذه الحالة لابد وأن نضع فى اعتبارنا أن ابن النديم كان مرآة ثقافية حقيقية لعصره ، فقد حفظ لنا أشياء كثيرة ربما لو لم يكن الفهرست الذى صنفه قد حفظها لنا لضاعت وما علمنا شيئا عنها . وهذا يعنى بطبيعة الحال أن العبارات التى وردت عند ابن العبرى وابن القفطى قد استمدت أصلا من ابن النديم ، وهو مايجب الاشارة إليه . ومع هذا فإن روايتى ابن العبرى وابن القفطى حدثت بها اضافات وتحريفات تمس الجوهر والمضمون ، وهى اضافات من الناحية المعرفية تعد زيادات على المضمون الأصلى وتأتى بمثابة مضمون جديد يتجاوز المضمون السابق عليه والمتمثل فى رواية ابن النديم . ونحن لا نعرف على وجه التحديد هل هى اضافات جاءت بغرض الحشو السلبى ؟ أم أنها استمدت من مصدر آخر لم يعرفه ابن النديم ؟

الواقع أن الدكتور العبادى لمس هـذه النقطـة ، وأشـار إلـى أن المصادر القديمة التى يحتمل أن يكون ابن النديم قد أخذ عنها تنحصـر فى مصدرين هما : الأول، وهو اسحق الراهب الذى ذكر ابـن النـديم بعض مقاطع أخذها من نصوص له . والثانى هو الكاتـب البيزنطـى تزيتزيس Tzetzes . ويرى الدكتور العبادى فـى هـذا الاطـار أن الأفكار التى وردت عند اسحق الراهب وتيزيتزيس تكـاد تتفـق مـع بعضها حتى فى الأخطاء التى وقعا فيها . لكن علينا أن نتوقف قلـيلا لنستوضح معرفيا وتاريخيا بعض الجوانب التى غابت عن التحليل .

تحليل العبادى من جديد

ذكر الدكتور مصطفى العبادى أن ابن العبرى وضع كتابا مطولا باللغة السريانية واسماه (تاريخ الدول) ، وأنه قام بنفسه باختصـار الكتـاب المطول، وسمى الكتاب العربى الذى بين أيدينا (تاريخ مختصر الدول). ويـذكر أيضا أن طبعة بيكوك قامت على أساس المختصر العربـى ، ولكنه لم يذكر فى هذا الموضع أن الأصل السريانى كان معروفا فـى أوروبا وفى الأوساط الكنسية التى كانت تهتم بمثل هذه الكتابات إبـان عصر الترجمة فى أوروبا حيث بدأت بـواكير النهضـة الأوروبيـة ، ولسنا نعرف لماذا لم يقدم الدكتور العبادى مثل هذه الاشارة ؟ . وربما كان هذا أيضا هو ما جعل الدكتور العبادى يعتمد فى تحليلاتـه علـى "تاريخ الحكماء" لابن القفطى ولا يقدم لنا نص ابـن العبـرى . إلا أن

الأمر المهم والمرتبط بهذه المسألة كلها والمحير فى الوقـت نفسـه أن الدكتور العبادى لم يقدم لنا تحليلا لأهم جزء فى القصة وهو شخصـية يحيى النحوى التى سلم الدكتور العبادى ، كمؤرخ ، بوجودها . أتـرى هذا الأمر يرجع إلى أنه كان من الضرورى أن يكون ثمة يحيى نحوى ما ؟ أم لأن شخصية يحيى النحوى بكل ما تنطوى عليه من دلالات لم تكن تستوجب التحليل التاريخى ؟ كل هذه التساؤلات تتدافع مرة واحدة لتجعلنا نربط هذا السياق بما قدمه لنا ابن أبى أصيبعة فى روايته التـى تستحق أن نقف على جوانبها المتعددة.

لقد حاولت من جانبى منذ عام 1986 أن أبين فى بحث قدمته إلـى المؤتمر الدولى لتراث الإسكندرية الذى عقد فى مارس 1986 ورأسـه ونظمه العالم الكبير الأستاذ الدكتور لطفـى دويـدار رئـيس جامعـة الإسكندرية الأسبق ، كيف أن الكتابات القديمة مثل كتابات ابن القفطى وابن العبرى وابن أبى أصيبعة وقعت فـى أخطـاء تاريخيـة فادحـة ومتعددة ، وقادنى هذا إلى أن أبين كيف أنه لا يمكن الاعتمـاد علـى رواية احراق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية . لكننـى اعتـرف أيضا أن لم يكن يجول بتفكيرى فى ذلك الوقت ضرورة البحـث فـى شخصية يحيى النحوى تاريخيا .

لابد لنا من أن نتعرف على الجوانب الأخرى الموجودة فى روايتـى ابن العبرى وابن القفطى مما هو غير موجود فى رواية ابـن النـديم ،

قبل أن نقدم على محاولة معرفة حقيقة شخصية يحيى النحوى التى نعتبرها محورية فى هذا السياق للكشف عن أبعاد الخطأ التاريخى الذى وقع فيه علماء التاريخ بعد التسليم برواية ابن العبرى وابن القفطى ، خاصة وأننا كنا نتوقع أن يكشف لنا علماء التاريخ ورجاله عن الزيف فى مثل هذه الروايات بالدليل التاريخى . أما وأن هذا لم يحدث فنجد أن واجبنا تقديم الدليل التاريخى على كذب الادعاء الذى تناقلته الكتب ، خاصة وأن مثل هذه الادعاءات لازالت أصداؤها تتردد فى الكتابات الغربية ، وليس ببعيد عنا ذلك ما كتبه المؤلف الإيطالى لوتشيانو كامفورا فى عام 1987 بعنوان " التاريخ الحقيقى لمكتبة الإسكندرية " والذى تصدى لنقده وتفنيده الكاتب والأديب الصحفى احمد عبد المعطى حجازى على صفحات جريدة الاهرام الغراء. إن مثل هذه الكتابات تبين فى رأينا أن الغرب يفتقر إلى الدليل التاريخى الذى يؤكد كذب القصة برمتها ، وهذا ما نزعم أننا أقدمنا عليه وقدمناه واضحا للفكر العربى والغربى على السواء .

لم توجه الكتابات التاريخية المختلفة اهتماما فى تحليلاتها المتعددة لشخصية يحيى النحوى التى وردت عند ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى وأخيرا عند ابن أبى أصيبعة الذى قدم لنا الدليل والبينة على هراء القول بحرق مكتبة الإسكندرية على يد العرب إبان فترة الفتح الإسلامى لمصر دون أن يدرى أو يتنبه بصورة فاعلة من خلال حديثه

أنه يقدم لنا الدليل ، لكن لا ينبغى أن يدور بخلدنا أن ماذكره ابن أبـــى أصيبعة صحيح تماما ؛ لكن هكذا اعتقد علماء التاريخ وقبلوا مـــاذكره قضية مسلم بها . نريد الآن أن نربط كل هذا معا لنعرف من هو يحيى النحوى وما علاقته بالقصة .

-4-

نص ابن أبى أصيبعة

كتاب "عيون الأنباء"

يقول ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء :

قال المختار بن الحسن بن بطلان : إن الإسكندرانيين الذين جمعوا كتب جالينوس الستة عشر وفسروها كانوا سبعة وهم : اصطفن ، وجاسيوس، وثاودسيوس ، واكيلاوس ، وانقيلاوس وفلاذيوس ، ويحيى النحوى ، وكانوا على مذهب المسيح"

وقيل إن أنقيلاوس الإسكندرانى هو كان المقدم على سائر الإسكندرانيين ، وأنه هو الذى رتب الكتب الستة عشر لجالينوس.

واقول : وكان هؤلاء الإسكندرانيون يقتصرون على قراءة الكتب الستة عشر لجالينوس ، فى موضع تعليم الطب بالإسكندرية ، وكانوا يقرؤنها على الترتيب ، ويجتمعون فى كل يوم على قراءة شيء منها وتفهمه . ثم صرفوها إلى الجمل والجوامع ، ليسهل حفظهم لها ومعرفتهم إياها . ثم انفرد كل واحد منهم بتفسير الستة عشر . وأجود

ما وجدت من ذلك تفسير جاسيوس للستة عشر ، فإنه أبان فيها عن فضل ودراية .

وعمر من هؤلاء الإسكندرانيين : يحيى النحوى الإسكندرانى الاسكلائى حتى لحق أوائل الإسلام .قال محمد بن اسحاق النديم البغدادى فى كتاب الفهرست : إن يحيى النحوى كان تلميذ ساوارى . قال :" وكان يحيى فى أول أمره أسقفا فى بعض الكنائس بمصر ، ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية . ثم رجع عما يعتقده النصارى من التثليث . واجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم ، واستعطفته وآنسته وسألته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ، فأقام على ما كان عليه وأبى أن يرجع ، فأسقطوه. ولما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، دخل إليه فأكرمه ورأى له موضعا .

ونقلت من تعاليق الشيخ أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى قال : كان يحيى النحوى فى أيام عمرو بن العاص رضى الله عنه ، فدخل عليه . وقال إن يحيى النحوى كان نصرانيا بالإسكندرية وأنه قرأ على أميونيس . وقرأ أميونيس على برقلس. قال : وكان يحيى النحوى يقول إنه أدرك برقلس ، وكان شيخا كبيرا لا ينتفع به من الكبر .

وقال عبيد الله بن جبريل فى كتاب مناقب الأطباء ،أن يحيى النحوى كان قويا فى علم النحو (والمنطق) والفلسفة . وقد فسر كتبا كثيرة من

الطبيات ،ولقوته فى الفلسفة ألحق بالفلاسفة لأن أحد الفلاسفة المذكورين فى وقته . قال : وسبب قوته فى الفلسفة إنه كان فى أول أمره ملاحا يعبر الناس فى سفينته ، وكان يحب العلم كثيرا ، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والمدارس الذى كان يدرس العلم بجزيرة الإسكندرية يتحاورون ما مضى لهم من النظر ، ويتفاضون ويسمعه ، فتهش نفسه للعلم.

فلما قويت روايته فى العلم، فكر فى أمره وقال : قد بلغت نيفا وأربعين سنة من العمر وما ارتضيت بشىء ، وما عرفت غير صناعة الملاحة، فكيف يمكننى أن أتعرض إلى شىء من العلوم !"

فبينما هو مفكر ، إذ رأى نملة قد حملت نواة تمر ، وهى تريد أن تصعد بها إلى علو ، وكلما صعدت بها سقطت ، ولم تزل تجاهد نفسها فى طلوعها ، وهى فى كل مرة تزيد ارتفاعها عن الأولى. فلم تزل نهارها وهو ينظر إليها ، إلى أن بلغت غرضها ، وأطلعتها إلى غايتها. فلما رأها يحيى النحوى قال لنفسه : إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهده ، فأنا أولى إلى أن أبلغ غرضى بالمجاهدة . فخرج من وقته وباع سفينته ، ولازم دار العلم، وبدأ بعلم النحو واللغة والمنطق . فبرع في هذه الأمور وبرز، لأنه أول ما ابتدأ بعلم النحو ، فنسب إليه واشتهر به ، ووضع كتبا كثيرة منها تفاسير وغيرها .

ووجدت فى بعض تواريخ النصارى : أن يحيى النحوى كان فى المجمع الرابع الذى اجتمع فى مدينة يقال لها خلكدونية وكان فى هذا المجمع ستمائة وثلاثون أسقفا على أتوشيوس ، وهو يحيى النحوى وأصحابه ، وأوتوشيوس ، وتفسيره بالعربى أبو سعيد .

وهذا أتوشيوس كان طبيبا حكيما ، وأنهم لما أحرموه لم ينفوه كما نفوا المحرومين . وكان ذلك لحاجتهم إلى طبه . وترك مدينة القسطنطينية ، ولم يزل مقيما بها حتى مات مرقيان الملك .

وليحيى النحوى هذا لقب آخر بالرومى ، يقال له فيلوبينوس ، أى المجتهد، وهو من جملة السبعه الحكماء ، المصنفين للجوامع الستة عشر وغيرها فى مدينة الإسكندرية، وله مصنفات كثيرة فى الطب وغيره . وترك مدينة القسطنطينية لعلمه وفضله وطبه.

"وقام بعد مارقيان الملك أسطيريوس الملك ، فاعتل هذا الملك علة شديدة صعبة، وذلك من بعد سنتين من حرم أوتوشيوس المذكور .فدخل على الملك وعالجه وبرأ من علته . فقال له الملك : سلنى كل حاجة لك . فقال أوتوشيوس : حاجتى إليك ياسيدى ، أن أسقف ذوراليه وقع بينى وبينه شر شديد ، وبغى على ، وقوى عزم أفلابيانوس بطرك القسطنطينية ، وحمله على أن جمع لى سوندى ، أى مجمع ، وحرمنى ظلما وعدوانا ، فحاجتى إليك ياسيدى ، أن تجمع لى جمعا ينظرون فى أمرى . فقال الملك : أنا أفعل لك هذا إن شاء الله تعالى." فأرسل الملك

إلى ديسقوروس صاحب الإسكندرية ويوانيس بطرك أنطاكية ، فأمرهم أن يحضروا عندة . فحضر ديسقوروس ومعه ثلاثة عشر أسقفا ، وأبطأ صاحب أنطاكية ولم يحضر . وأمر الملك لديسقوروس أن ينظر في أمر أوتوشيوس وأن يحله من حرمه على أى الجهات كان ، وقال له متوعدا : إنك إن حللته من حرمه بررتك بكل بر وأحسنت إليك غاية الإحسان ، وإن لم تفعل ذلك قتلتك قتلا رديا . فاختار لنفسه البر على القتل. فعمل له مجلسا هو وهؤلاء الثلاثة عشر أسقفا ، ومن حضر معه أيضا فحسنوا قصته وحلوه من حرمه. وخرج أسقف ذوراليه وأصحابه، وانصرفوا من القسطنطينية وقد خلطوا رأى الكنيسة . وبهذا السبب كان تعصب ديسقوروس لاوتوشيوس المذكور ، المعروف بيحيى النحوى . ومات مخالفا لمذهب الروم المعروفين بالملكية . ومات وهو يعقوبى مخالف للروم المذكوريين ." [1]

إننا نريد أن نركز تحليلاتنا التالية على ربط تحليل روايـــة ابـــن أبـــى أصيبعة بمعرفتنا بشخصية يحيى النحوى التى وردت فـــى هـــذه الكتابـــات جميعا لمعرفة مصداقية النص ، ونريد أيضا أن نحدد ابتداءً مـــن هــــــذا التحليل مدى الثقة فى الكتابات التاريخية التى تواترت إلينا عبـــر الأجيـــال وتعامل معها كل من تناولها بالبحث على أنها صادقة ، وتتمتع بدرجة عالية من الثقة . وبعد التحليل يحق لنا أن نقدر درجة الثقة فى تلـــك المعلومـــات الواردة فى الكتابات المختلفة .

---

[1] ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، شرح د. نزار رضا ، ص ص151-153

الفصل الثامن

يحيى النحوى

كلنا قد سمع عن شخصية يحيى النحوى من الكتابات العربية القديمة، لكن لا واحد منا تساءل ولو لمرة واحدة عن حقيقة هــذه الشخصية التى بــذرت السموم والعداء بين الغرب والشرق زمنا طويلا، خاصة وأن الكتابات المختلفة لم تشك لحظة واحدة فى الروايات التى تلقتها عن هــذه الشخصية .

لم يكن دافعنا منذ البداية سوى الكشف عن هــذه الشخصية بصورة مجردة ، لكن سرعان ما تحول هــذا الدافع إلى توجه بحثى بالدرجةالأولى ، خاصة إذا علمنا أن يحيى النحوى هــذا يحمل أكثر من قناع ، وينتمى إلى أكثر من عصر .

بدأت التعامل مع الكتابات التاريخية ، كما سبق وذكرت ، على أنها تتعامل مع الكتابات القديمة على أنها تتمتع بمصداقية عالية . وكنت على العكس من هــذه الكتابات كلها أشك فيما تضمنته هــذه الكتابات من معلومات ، بل امتد الشك إلى الأشخاص أنفسهم . لكننى أعترف أننى كنت بحاجة إلى الدليل على صحة ما أعتقده . وجاءنى الدليل من الكتابات ذاتها ، ومن التاريخ ذاته وما يقرره من وقائع وأحداث . ولم تكن المهمة سهلة ، وإنما احتاجت إلى العديد من التحليلات والمقارنات والنقد المستمر الــذى يعتمد على بناء الدليل خطوة خطوة . وقد اعتمدت فى كل هــذه المراحل على استخدام الشك منهجا أساسيا فى التحليل .

تعد شخصية يحيى النحوى هى الشخصية المحورية فى النصوص التى لدينا ابتداءً من ابن النديم وما كتبه فى الفهرست حتى كتاب ومؤرخي القرنين السادس والسابع الهجريين وبصفة خاصة عبد اللطيف البغدادي فى الإفادة والاعتبار، وابن القفطي فى تاريخ الحكماء، وابن العبرى فى تاريخ مختصر الدول، وابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء. وهذا يعنى أن هذه الكتابات ركزت على يحيى النحوى باعتباره ممثلا لعلوم الأوائل في عصره، ومحاولا الحفاظ عليها، فى مواجهة الفاتحين الجدد. ولكن الكتابات التى لدينا انزلقت فى أخطاء ابستمولوجية مهمة، لأنها من جانب أول ركزت على الشكل الروائي الدرامي المؤثر بكل ما يحمله من معان ودلالات، وهو ما يبدو فى استجداء يحيى النحوي أن يأخذ الكتب من الفاتحين الجدد. ومن جانب آخر أن هذه الكتابات لم تدرك ابتداءً تمييز شخصيات أخرى تحمل اسم يحيى النحوى. وهذه مسألة لها قيمتها وتقديرها فى البحث المتعلق بشخصية يحيى النحوي باعتبارها محورية ومفتاحيه فى النص.

والواقع أن الجانب المتعلق بشخصية يحيى النحوي وتمييزها كان موضع عناية العلامة الدكتور/ على سامى النشار الذى دون رائعته العلمية " مناهج البحث عند مفكرى الإسلام " الذى كان رسالته للماجستير عام 1942. وربما كان هذا المؤلف بمثابة أهم دراسة علمية فى النصف الأول من القرن العشرين، انطوت على العديد من

النصوص المهمة التى اكتشفها الدكتور النشار اكتشافا وأعاد تركيبهــا، التى من خلالها أكد قضيته الأساسية أن المســلمين اكتشــفوا المــنهج العلمى التجريبى كاملا قبل أوروبا، وأن عناصر المنهج نقلت إلى العالم اللاتيني إبان حركة الترجمة ، وأن علماء اللاتين اســتفادوا بصــورة مباشرة من مناهج المسلمين. وقد حرص الدكتور النشار أن يأتى تأكيده هذا فى كل جزئياته مدعما بالأدلة والنصوص الجديدة والمكتشفة.

كانت حركة النقل والترجمة لصيغة الصلة بالقضايا التى عرض لها الدكتور النشار التى ظل يعالجها على مدار قرابة النصف قــرن فــى كتاباته المختلفة. كما كان تصوره لأبعاد تلك الحركة يذهب إلى المنابع الأولى، والبدايات الحقيقية لالتقاء الفكر الإســلامي بعلــوم الأوائــل ، وموقفه منها. وفى خلال تناول الدكتور النشار لأبعاد تلــك الحركــة، وعناصر الالتقاء، قدم لنا نصا مهما من اكتشافاته يذهب فيه إلى تقرير الآتي : " يقول البيهقى يحيى النحوي الملقب بالبطريق – كــأن يحيــى الديلمى من قدماء الحكماء.وكان فيلسوفا نصــرانيا. ويحيــى النحــوي البطريق هو الذى صنف كتبا رد بها وفيها على أفلاطــون وأرســطو حين همت النصارى بقتله.

وقال فى شأنه أبو على : هو يحيى النحوي الممــوه علــى النصــارى وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام الغزإلى رحمة الله عليه فى تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوى". ويقول الشهرزورى "يحيى النحــو

الديلمى وهو غير ت النحوى الإسكندري". لكن النشار بعد هذا مباشرة يذكر لنا بالنص : " ثم لا يخرج كلام الشهرزورى بعد هذا عما ذكره البيهقى. ولكن من المحتمل أن يكون يحيى النحوى هذا استمد نقده من كتاب سكتوس، هذا من ناحية.ومن ناحية أخرى من المؤكد أن كثيرا من أراء الشكاك نقل عن طريق شراح الأورجانون وخلال كتابات جالينوس على الخصوص"[1].

من الواضح من كلام الدكتور النشار هنا أن القضية التى كانت تشغله، ليس يحيى النحوى، وإنما نقد الغزإلى للفلاسفة فى كتابه " تهافت الفلاسفة"، حيث يرى على خلاف البيهقى أن أساس النقد لايرجع لما كتبه يحيى النحوى، وإنما ما استمد من كتابات سكتوس امبريقيوس والشكاك بصفة عامة، وما تسرب من آراء عبر شراح كتب أرسطو المنطقية (الأورجانون) وكتب جالينوس. وهذا يعنى أن نقد يحيى النحوى المعروف على ابروقلس استمد عن هذا الطريق وليس من وضعه. وأهمية هذا التقرير تتمثل فى أن يحيى النحوى هذا لم يكن فيلسوف أصيلا بقدر ماكان مردداً لآراء الأوائل وموقفهم.

إذن من هذا النص وضع النشار يده على البعد المعرفى التاريخى فى شخصية يحيى النحوى، وكشف فى الوقت ذاته أن هناك أكثر من شخصية تحمل اسم يحيى النحوى. لكن يجب أن نقرر فى الوقت ذاته

[1] على سامى النشار ، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، ص 28

أن الدكتور النشار لم ينشغل بصورة مباشرة بهذه القضية فـــي ســياق تحليل أو كشف الأبعاد المعرفية والتاريخية الموجودة فى بنية نص ابن القفطى وكتاب عصره.

ولكن باحثا ومفكراً عربيا معاصراً وهو الدكتور ســحبان خليفــات، استطاع بعد قرابة نصف قرن من اكتشاف نص الــدكتور النشـــار، أن يقدم لنا التمييز الذى ننشده بصورة أكثر تفصيلا ودقة، واعتماداً علـــى نصوص جديدة تعضدد فكرة النشار وتطورها، وهذه مسألة هامة طالما نبهنا عليها وهى فكرة البحث عن النصوص الأصيلة وتحليلها ونقـدها ومعارضتها ببعضها إن أمكن ذلك لمعرفة بنية الفكــر العربـــى علـــى امتداد تاريخة.

يذكر الدكتور سحبان خليفات فى كتابه الرائع عن يحيى بن عـــدى والذى جاء بعنوان " مقالات يحيى بن عدى الفلسفية" والذى أصدره عام 1988، يذكر تعليقا على شخصية يحيى النحـــوى مانصـــه[1]: "يحيـــى النحوى : هناك ثلاثة يحملون هذا الاسم عند العرب كما يقول سنتيلانا: أولهم يحيى الإسكندرانى ، أحرقه مجمع الاساقفة سنة 576م ، لما كان يحجده من اتحاد الأقانيم فى الثالوث ... وثانيهم يحيى النحـــوى ولـــه تصانيف فى النحو ، وعاش فى انطاكيا، ويجهل تاريخه. وثالثهم يحيى النحوى من تلامذه أمونيوس بن هرمياس، عاش بين سنة 500 وســـنة

---

[1] سحبان خليفات ، مقالات يحى بن عدى الفلسفية ، ص 328

570م وهو صاحب التفاسير لكتب أرسطو طاليس والرد على برمكس (بروكلوس 410 – 485) المولود فى القسطنطينية وزعيم مدرسة أثينا الفلسفية، وهو من شراح أفلاطون. ويحتمل أن يكون العرب (ديادوخش) أى خليفةأفلاطون فى رئاسته دار العلم بأثينا. ولعل كتابه المعروف "باسطوخوسيس الصغرى" (ومعناه المبادئ) هو المسمى بكتاب (حدود أوائل الطبيعيات) المذكور فى الفهرست (ص 252، والقفطى ص 891). غير أنه لايذكر له نقل سريانى ولا عربى". (سنتيلانا : ج 2 ، ص 460) ومما اشتهر به (كتاب فى أبدية العالم). ومالبث أمر هؤلاء أن اختلط على العرب" فصار يحيى الأول ويحيى الثالث عندهم شخصا واحدا كما تدل عليه ترجمة يحيى النحوى فى كتاب الفهرست وابن ابى أصيبعة "سنتيلانا ، ج 2 ، 450). ولقب يحيى الثالث هو فيلوبونس وقد بلغ العرب ترجمته للمقولات".

لابد وأن نتساءل هنا ما الذى يطلعنا عليه تحليل النص الذى ذكره الدكتور سحبان استناداً إلى سنتيلانا ؟

واضح إذن أن سنتيلانا يقرر وجود ثلاث شخصيات تحمل لقب يحيى النحوى، وواضح أيضا أن الدكتور سحبان خليفات يتفق مع الرأى الذى يذكره سنتيلانا، ويأخذ به ، وهو من هذه الزاوية يقدم لنا دليلا جديدا على أن كتابات مؤرخى القرنين السادس والسابع الهجريين تعرضت لأخطاء تاريخية أدت بالتالى إلى وجود شخصية يحيى

النحوى المزعومة التى تصورها النصوص وبصفة خاصة نص ابـن القفطى على أنها محورية، وعاصرت الفتح الإسلامي لمصـر، وهـى مسألة عسيرة التصديق فى ضوء النصوص التى لـدينا. وهـذا يبـدو بوضوح من شخصيات يحيـى النحـوى الثلاثـة : يحيـى النحـوى الإسكندرانى وهو الذى احرق فى عام 576م ، ويحيى النحوى الـذى عاش فى انطاكية وهو مجهول التاريخ، وأخيرا يحيى النحـوى تلميـذ أمونيوس (500 – 570م) والمعروف باسم فيلوبونس. والأمر الجدير بالذكر فى هذا الصدد هو مايذكره النص من ارتباط بـين الشخصـية الأولى والثالثة فى الكتابات العربية " فصار يحيى الأول ويحيى الثالث عندهم شخصا واحد ". وهذا ماجعل الدكتور سـحبان يقـرر بصـورة قاطعة أن الأمر " **اختلط على العرب**".

ويترتب على هذا الإدراك المعرفى لاخـتلاط مسـتويات التمييـز التاريخى أن ماذكره ابن القفطى منسوباً إلى يحيى النحوى واختلافه مع النصارى فى عقيدة التثليث ينطبق على يحيى النحـوى الأول ولـيس الثالث ، وهو يحيى الإسكندرانى الذى "أحرقه مجمـع الأسـاقفة سـنة 576م لما كان يجحده من اتحاد الأقانيم فى الثالوث". ومن ثـم تصـبح القصة المطولة التى ذكرها القفطى لا أساس لها من الواقع.

ومع أن القيمة المعرفية للنص الذى يقدمـه لنـا الـدكتور سـبحان خليفات، تهمنا بالدرجة الأولى، إلا أن هناك بعض الأخطاء التاريخيـة

التى وقع فيها سانتلانا، وهذه الأخطاء يمكن لنا أن نحصرها فى أمرين هما : الأمرالأول أن ابروقلس لم يكن " خليفة افلاطون فى رئاسته دار العلم بأثينا". والأمر الثانى أن كتاب المبادئ ليس من وضع أبروقلس.

أما فيما يتعلق بالأمر الأول فنحن نعلم أن ابروقلس تتلمذ على بلوتارك وأن " تكوينه العقلى يستند إلى مصدرين: النزعة المدرسية التى تلقاها من فلسفة أفلوطين – ثم التيارات الدينية وهى ترجع إلى يامبليخوس"[1]. وقد أدى هذا التكوين الذى تمتع به ابروقلس إلى افادته فى النظر الفلسفى بصورة كبيرة أكثر من السابقين، مما يعنى أنه "وقد تجمعت لديه تيارات الفلسفة مع تيارات الدين فى عصره كان أقدر على صياغة مذهب يعبر عن النزعة التلفيقية المستحكمة التى انتهى إليها العقل اليونانى فى العصر الهللينسى"[2]. فكأن أول خطأ وقع فيه سانيلانا أنه اعتبر ابروقلس من اتباع افلاطون وأنه ترأس مدرسته، والواقع يقرر انه كان افلوطينى النزعة ومن أعضاء مدرسة أفلوطين.

وأما الأمر الثانى فيتمثل فى التقرير الذى يذكر فيه سانتلانا أن كتاب المبادئ أمر العلل من وضع ابروقلس، وهذا أيضا غير صحيح، وفقا لما يقرره الدكتور أبوريان الذى درس هذه الفترة وتعمق فيها بصورة كبيرة حيث لاحظ أن الدين والتصوف معا كانا أساس كل التيارات

---

[1] محمد على أبوريان ، ارسطو ، ص 345
[2] المرجع السابق ، ص 345

الفلسفية والعلمية فى مدرسة أثينا كما فى المدرسة السورية على السواء، مع ميل إلى التزام الروح اليونانية الفلسفية والعلمية فى مدرسة اثينا بصفة خاصة. وأن هذه المدرسة أخذت صورتها النهائية عند ابروقلس، "ولم تظهر فى المدرسة بعد ذلك وجوه ذات امتياز فكرى ملحوظ، وكانت المدرسة حينذاك تجمع شمل آخر حلقات المثقفين الوثنيين فى العالم الهللينستى. فنجد على زعامة المدرسة بعد ابروقلس، الرياضى مارينوس ثم تلميذه (دمسكيوس حوإلى 520 م الذى وضع كتاب(المبادئ)."[1]

لابد لنا إذن من بحث أبعاد الشخصية التى عرضت لها كتابات القرن السادس الهجرى التى عرفت بشخصية يحيى النحوى. ماهى حقيقة جوانب هذه الشخصية ؟ وما التصور الذى يمكن أن نتبينه من خلال تحليل كافة النصوص المتعلقة بهذه الشخصية؟ إن مثل هذه التساؤلات تفتح الباب على مصراعيه لتقديم الأدلة المناسبة بعد تحليل النصوص التى نفتقد أنها لم تخضع للتحليل المعرفى بصورة كبيرة. علينا إذن أن نسأل التاريخ أولا لنتعرف على وزن البيانات التاريخية المتعلقة بشخصية يحيى النحوى، ولنطبق منهج الحذف والاستبعاد على النصوص، لنعرف زمان يحيى النحوى.

[1] المرجع السابق ، ص 348

يشير ابن ابى أصيبعه فى عيون الأبناء إلى يحيى النحوى على أنه "كان فى المجمع الرابع الذى اجتمع فى مدينة يقال لها خلكدونية، وكان فى هذا المجمع ستمائة وثلاثون اسقفا على اوتوشيوس وهو يحيى النحوى وأصحابه، وأنهم لما احرموه لم ينفوا كما نفوا المحرومين وكان ذلك لحاجتهم إلى طبه"[1]. هنا تواجهنا أول بينة تاريخية مهمة وهى المتعلقة بمجمع خلكدونية.متى عقد المجمع الرابع ؟

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه تاريخ الإسلام السياسى أن مجمع خلكدونية قام سنة 451م فى عهد الإمبراطور مارقيان (450 – 457م)[2]. وقد أكد ابن أبى أصبيعة هذه الحقيقة حين ذكر "أنه ترك فى مدينة القسطنطينية ولم يزل مقيما بها حتى مات مرفيان الملك مما يعنى أن يحيى النحوى المذكور كان يعيش فى الفترة (450 – 457) .

وأما النقطة الثانية التى يثيرها نص ابن أبى أصبيعة فتتمثل فى قوله "وأنهم لما احرموه لم ينفوه" إن هذا القول يرتبط مباشرة بما يذكره ابن أبى اصبيعة عن هذه الواقعة فى تأكيده"وقام بعد مارقيان الملك اسطيريوس الملك فاعتلى هذا الملك علة شديدة صعبة وذلك بعد سنتين من حرم اوتوشيوس المذكور، فدخل على الملك وعالجه وبرأ من علته. فقال له الملك سلنى كل حاجة لك، فقال له اوتوشيوس حاجتى اليك

---

[1] ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص 104

[2] حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المكتبة التجارية، هامش ص 313

سيدى أن أسقف زورلين وقع بينى وبينه شر شديد وبغى على وقــوى عزم افلاسانوس بطريرك القسطنطينية وحملــه علــى أن جمــع لــى سونزس أى مجمع وحرمنى ظلماً وعدوانا، فحاجتى إليك ياســيدى أن تجمع لى جمعا ينظرون فى أمرى .

فقال له الملك أنا أفعل لك هذا ان شاء الله تعالى. فارسل الملك إلــى ديسيقوروس صاحب الإسكندرية ويوانيس بطرك انطاكية فــأمرهم أن يحضروا عنده ، وأمر الملك لديسقوروس أن ينظر فى أمر اوتوشيوس وأن يحله من حرمه على أى الجهات كان، وقد قال له متواعدا إنك ان حللته من حرمه بررتك بكل البر وأحسنت إليك غاية الإحسان، وإن لم تفعل ذلك قتلتك قتلا رديئا، فاحتار لنفسه البر"[1].

لقد أردت أن أنقل للقارئ هذه الفقرة المطولة من عيون الأنباء لأبين مدى الخلط الذى وقع فيه ابن أبى اصبيعه فى بعض مواضــعها، ومــا ترتب على هذا من معلومات تاريخية غير صحيحة.

يذكر ابن أبى اصيبعه" وقام بعد مارقيان الملك اسطيريوس الملــك". وهذا القول غير صحيح من الناحية التاريخية. ويبــدو أن ابــن أبــى أصبيعة يقصد الإمبراطور اناستاسيوس، ومن ثــم تصــبح المعلومــة بأسرها غير صحيحة لأنه بعد حكم الإمبراطور مارقيــان جــاء حكــم الإمبراطور "ليو الأول" (457 – 474م)، ثــم الإمبراطــور "زينــون"

[1] المرجع السابق ، ص 105

(474 – 491م) ثم يأتى بعدهما اناسطاسيوس(491 –518م)[1] وهو مايبدو من قول ابن ابى أصيبعة " وقام اسطيريوس الملك فاعتلى هذا الملك علة شديدة صعبة وذلك بعد سنتين من حرم اوتوشيوش". والمعروف أنه حرم فى زمن الإمبراطور مارقيان، وعلى اثر هذا عقد مجمع خلكدونية ،على حين أن ولاية أناسطاسيوس كانت سنة 491م، أى بعد 34 سنة من وفاة مارقيان.

وعلى أحسن التقديرات يمكن وفقا لما يذكره ابن أبى أصبيعة، القول أن يحيى النحوى عاش ودرس فى الفترة مابين حكم الإمبراطور مارقيان(450 – 457) وحتى عصر الإمبراطور اناسطاسيوس (491 – 518م)، أى فى فترة تمتد إلى خمسة وستين عاما بين (450–518م). وهنا يظهر أمامنا سؤال ملح من خلال الربط بين ما يذكره ابن أبى أصيبعة وما سبق أن ذكره ابن القفطى الذى أشار إلى أن يحيى النحوى كان فى مبدأ أمره يعمل بالملاحة، ثم تحول إلى الاشتغال بالفلسفة ،وهو ما يبدو من قوله " فلما قوى رأيه فى طلب العلم فكر فى

---

[1] حسين الشيخ ، العصر الهللينستى ، دار المعرفة الجامعية ، 1993 ، ص ص 163-164

وراجع أيضا :حسين الشيخ ، الرومان ، دار المعرفة الجامعية ، ص ص 346 –350

نفسه وقال قد بلغت نيفا وأربعين سنة وما ارتضيت بشيء ولا عرفت غير صناعة الملاحة فكيف يمكنني أن أتعرض لشيء من العلوم "[1].

إن هذا النص يكشف لنا بصورة مباشرة أن يحيى النحوى هذا حين اتجه إلى طلب العلم كان قد بلغ الواحد وأربعين من عمره . وهنا لابد وأن نتوقف قليلا . فمن جانب أول نجد أن تحصيل العلم وممارسة الطب فى مثل حالته يحتاج على أقل تقدير إلى عشر سنوات دراسة وفهما، ويمكن لنا أن نقف على هذا من طريقة تعليم الطب عند السكندريين . ما هو النظام العلمى الذى وضعه الإسكندرانيون لتعليم الطب ؟ وما أساسياته ؟ وكيف أصبح هذا النظام علامة مميزة لمدرسة الإسكندرية الطبية عبر العصور ؟

لعلنا نستطيع أن نتعرف على طريقة التعليم الطبى عند السكندريين من خلال بعض النصوص التى قدمها لنا ابن أبى أصيبعه فى كتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، خاصة وان تقاليد التعليم الطبى السكندرى انتقلت بعد ذلك إلى العالم الإسلامى وأخذها أطباء المسلمون وعملوا وفقا لها ، ثم أصبحت هذه التقاليد من أبجديات تعلم الطب فى العالم الإسلامى على مر العصور وانتقلت بعد ذلك إلى أوروبا .

---

[1] ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 234 . وأيضا ، ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص 104

كتب جالينوس الستة عشر:

أثبت ابن أبى أصيبعة[1] الكتب الستة عشر التى لجالينوس وترتيبها على رأى الإسكندرانيين. ومع أن ابن النديم قد أثبت فى الفهرست هذه الكتب بدون الإشارة إلى ترتيبها؛ إلا أن ابن أبى أصيبعة قد استحدث ترتيبها نقلاً عن حنين بن إسحق وأبو الحسن على بن رضوان اللذان نقلا ترتيبهما عن يحيى النحوى. ولذا أثبتها ابن أبى أصيبعة بعد تناوله بالعرض ليحيى النحوى وكتبه، ومتابعاً تصنيف ابن رضوان، رتبها كما يلى :

أولاً- المرتبة الأولى:

وتشتمل مجموعة الكتب هنا على أربعة اعتبرت بمثابة مدخل تعليمى يؤهل الطالب إلى التحصيل الجزئى للطب، وفى نفس الوقت تعده للانتقال لتحصيل كتب وعلم المرتبة الثانية. ويذكر ابن أبى أصيبعة هذه الكتب على النحو التالى:

1- كتاب الفرق: ويحصل فيه الطالب دراسة الطب على رأى أصحاب التجربة ورأى أصحاب القياس معاً.

2- كتاب الصناعة الصغيرة: ويستفاد منه جمل صناعة الطب كلها

---

[1] ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء ، ص154 - ص 159.

النظرى والعملى.

3- كتاب النبض الكبير: ويستفاد منه جميع ما يحتاج إليه المتعلم من الاستدلال بالنبض على ما ينتفع به فى الأمراض.

4- اغلوقن: ويستفاد منه كيفية التأنى فى شفاء الأمراض.

ثانياً- المرتبة الثانية :

وتشتمل على أربعة كتب أيضاً:

5- كتاب الاسطقسات: ويستفاد منه أن بدن الإنسان وجميع ما يحتاج إليه سريع التغير قابل للاستحالة. وهذا الكتاب هو أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال تعليم الطب.

6- كتاب المزاج: ويستفاد منه معرفة أصناف المزاج، وبما يتقوم كل واحد منها؛ وبماذا يستدل عليه إذا حدث؟

7- كتاب القوى الطبيعية: يستفاد منه معرفة القوى التى تدبر بها طبيعة البدن وأسبابها، والعلامات التى يستدل بها عليها.

8- كتاب التشريح الصغير: يستفاد منه معرفة أعضاء البدن المتشابهة وعددها، وجميع ما يحتاج إليه فيها.

إن كتب المرتبة الثانية يستفاد من جميعها الأمور الطبيعية للبدن، التى قوامه بها. فإذا نظر فيها محب التعليم اشتاقت نفسه إلى النظر فى

كل ما يتعلق بطبيعة البدن.

ثالثاً- المرتبة الثالثة:

وتشتمل على كتاب واحد، وهو كتاب العلل والأعراض. ومع أن جالينوس قد وضع هذا الكتاب فى ست مقالات متفرقة؛ إلا أن أهل العلم فى الإسكندرية جمعوها وجعلوها فى كتاباً واحداً، يستفاد منه معرفة الأمراض وأسبابها والأعراض الحادثة عن الأمراض. ومن رأى ابن رضوان وعلماء الإسكندرية أيضاً، أنه إذا وقف الدارس على ما فى هذا الكتاب وفهمه لم يخف عليه شئ من صناعة الطب .

رابعاً- المرتبة الرابعة:

وتشتمل على كتابين:

10- كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة: ويستفاد منه تعريف كل علة من العلل التى تحدث فى الأعضاء الباطنة، فإن هذه الأعضاء لا تدرك أمراضها بالعيان لأنها خفية عن الحس، فيحتاج إلى أن يستدل عليها بعلامات تقوم كل واحدة منها، فإذا ظهرت العلامات المقومة يتقن أن العضو الفلانى عله كذا.

11- كتاب النبض الكبير: وهو ينقسم إلى أربعة أجزاء، كل جزء منه أربع مقالات، حيث يستفاد من الجزء الأول معرفة أصناف النبض

وجزئيات كل صنف منها. ومن الثانى، تعريف إدراك كل واحد من أصناف النبض. ومن الثالث، تعريف أسباب النبض. ومن الرابع، تعريف منافع أصناف النبض. وهذا الكتاب ذو فائدة جلية فى الاستدلال على الأمراض ومعرفة قواها ونسبتها إلى قوة البدن.

خامساً- المرتبة الخامسة:

وتشتمل على ثلاثة كتب:

12- كتاب الحميات: ويستفاد منه معرفة طبائع أصناف الحميات وما يستدل به على كل صنف منها .

13- كتاب البحران: ويستفاد منه معرفة أوقات المرض ليعطى فى كل وقت منها ما يوافق فيه، ومعرفة ما يؤول إليه الحال فى كل واحد من الأمراض. هل يؤول أمره إلى السلامة أم لا؟ وكيف يكون؟ وبماذا يكون؟.

14- كتاب أيام البحران: ويستفاد منه معرفة أوقات البحران، ومعرفة الأيام التى يكون فيها، وأسباب ذلك وعلاماته.

سادساً - المرتبة السادسة:

وتشتمل على :

15- كتاب حيلة البرء: ويستفاد منه قوانين العلاج على رأى أصحاب القياس فى كل واحدة من الأمراض، وهذا الكتاب إذا نظر فيه الإنسان اضطره إلى أن ينظر فى كتاب الأدوية المفردة، وفى كتب جالينوس من الأدوية المركبة.

سابعاً- المرتبة السابعة:

وتشتمل على :

16- كتاب تدبير الأصحاء: ويستفاد منه حفظ كل من الأبدان. وهذا الكتاب إذا نظر فيه الدارس اضطره إلى أن ينظر فى كتاب الأغذية، وفى كتاب فى جودة الكيموس ورداءته، وكتاب التدبير الملطف، وشرائط الرياضة. يستنتج من هذا أن الكتب الستة عشر المصنفة على النحو السابق ذكره تدعو الناظر فيها إلى النظر فى جميع كتب جالينوس التى استكمل بها صناعة الطب. ومن ثم يكون الإسكندرانيون قد فلحوا فى هذا التصنيف بترغيب الدارس للطب والتبحر فى صناعته .

ومع أن بعض من نقل عنهم ابن أبى أصيبعة مثل أبو الفرج بن هندو، وأبو الخير بن الخمار وابن رضوان وغيرهم قد يرون آراء متفاوتة فى ترتيب هذه الكتب كأن يرى أبو الخير تقصير الإسكندرانيين فى جمعهم للكتب وترتيبهم لها على هذا النحو ، وأنه

كان يجدر بهم إضافة كتاب الأغذية والأهوية والأدوية، إلا أن ابن هندو لم يرى مثل رأى أستاذه، وإنما ارتضى ترتيب الإسكندرانيين على النحو المذكور واعتبر أن " خرق إجماع الحكماء معدود من الخرق".

انتقل هذا النظام السكندرى فى التعليم الطبى إلى الأطباء العرب، ومن ثم اكتسب التعليم الطبى عندهم خصائص وسمات مميزة ، وربما كان أبو بكر الرازى إمام الأطباء فى وقته من أعظم الأطباء الذين حفظوا لنا فى مؤلفاتهم التعاليم التى ينبغى على المتعلم أن يعرفها جيداً، ويجب على المعلم أن يبثها فى نفس المتعلم.

لم تكن تعاليم الرازى أمراً نظرياً مجرداً ، وإنما كانت من واقع الخبرة والممارسة ، حاول من خلالها أن يربط العلم الطبى كعلم نظرى بالعلم العملى أثناء التطبيق . ونحن نعلم أن الرازى "طبيب سريرى لايبارى فى هذا الميدان ، كما هو أستاذ قدير فى تعليم الطب ، والكتابة فى أصول تعليمه . وكتابه "المرشد أو الفصول" خير دليل على ذلك. وكان يزدحم الطلاب فى حلقة دروسه بحسب تواريخ التحاقهم بتلك الحلقات، ويعرض أمامهم المرضى ليستجوبوهم عن سبب شكاواهم، وبالتالى لتشخيص أمراضهم ، فإذا عجزوا عن معرفة أمراضهم

وطريقة علاجها دخل فيما بينهم ليقول فى ذلك كلمته الفصل"[1]. وهــو تقليد مازال الأطباء يتبعونه حتى الآن توخيا لصقل مهـــارات الطـــلاب الذين يتعلمون الطب .

كذلك فإن هذا النص يشير إلى أشياء كثيرة فى مجال التعليم الطبـــى عند هؤلاء الأساتذة وفى مجالسهم سواء أكانت داخـــل البيمارســـتان (المستشفى) أم خارجه . فحلقة التدريس عند الرازى كانت على نوعين: حلقة للتدريس النظرى وأخرى للتدريس العملى[2] . أما التدريس النظرى فيتم بأسلوب نقاش علمى يجمع الطلبة على ثلاث حلقات أقـــربهم إليـــه أنضجهم علماً وخبرة، ويليه الصنف الثانى ممن هم أقل خبـــرة ، ثـــم الصنف الأخير الذى يضم المستجدين فيقرأ عليهم ويفسر لهم ويناقشهم ويصغى إلى حوارهم مجيباً على أسئلتهم، وكلما توسم نباهـــة بأحـــدهم قدمه إلى حلقة أقرب، وهذه الحلقة يبقى فيها المتعلم مدة ثلاث سنوات ، أى أنه يمضى سنة فى كل حلقة . وخلال هـــذه الفتـــرة يـــدرس علـــم التشريح ، والفيزيولوجيا أو خصائص الأعضاء والباثولوجيا .

وأما الدروس العلمية فكانت مثل الجلسات النظرية تتم علـــى شـــكل حلقات من طلابه حول سرير المريض فى المستشفيات شـــارحاً لهـــم الحالات المرضية النادرة واحدة بعد الآخرى ، وهذا يعنى أن المريض

1 كمال السامرانى ، التعريف بأبى بكر الرازى ، ص 15 .
2 خالد ناجى ، الرازى أستاذ الطب السريرى ، ص 30 ، ص 35 .

عند الرازى استخدم ككتاب يقرأ يومياً وباستمرار للوقوف على الأعراض التى تعتريه[1]. ألا يذكرنا كل هذا بطرق التعليم الطبى الآن ، وأن تقاليد التعليم الطبى انحدرت إلينا جيلا بعد جيل من خلال الأسس التى وضعها الأسلاف .

الأهم من كل هذا أن الأستاذ العالم الذى يلقى على طلابه الدروس فى هذه المجالس كان يشرح لطلابه كل حالة يفحصها ويسجل أسئلته ومشاهداته فى صفحة خاصة مبتدئاً باستجواب المريض والطلاب من حوله، سائلاً عن اسمه وعمره وبلده ورحلاته وعما ألم به ، واليوم الذى شعر فيه بالمرض، وموضع الألم، والأعراض التى رفقته بالترتيب والتسلسل الزمنى لها، مؤكداً أن المريض خير رواية لشرح أبعاد المرض الذى يعانيه شخصياً، كما كان يسأل المريض عن عائلته وأفرادها ، وهل شعروا بالأدوار التى يكابدها هو . إن هذا السجل يبين إلى أى حد صدر الاهتمام بتاريخ المرض لدى الأشخاص ، وهو سجل يمكن الرجوع إليه .

من أجل كل هذا كان الرازى يمتحن الأطباء والطلاب المتخرجين عليه، فيسألهم أولا عن تشريح الجسم، فإذا فشلوا فى الإجابة فيه ، فلا يسألهم فى الطب السريرى ؛ لأن فشلهم فى هذا الموضع لايشفع لهم فى

---

1 المرجع السابق ، ص 25 .

النجاح حتى لو نجحوا فى العلوم السريرية[1] .

إن هذا الوصف يبين لنا إلى أى حد يحتاج التعليم الطبى لوقت طويل ، ومران وخبرة وتدريب فى المستشفيات لاعداد طبييب صالح يمكنه أن يفيد الناس بعلمه ، وهذه النقطة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للذين نذروا أنفسهم لهذه المهنة الإنسانية السامية.

عود إلى يحيى النحوى

إذا يكون يحيى النحوى المشار إليه وقت حرمه قد جاوز الخمسين عاما . ومن ثم فإنه إبان فترة حكم الإمبراطور مارقيان ووقت انعقاد مجمع خلكدونية يكون قد جاوز الخمسين . ويترتب على هذا أنه يصعب أن نتصور عقلا أنه كان على قيد الحياة عام 518 م وقت نهاية حكم الإمبراطور انسطاسيوس ، إذ سيكون قد جاوز المائة عام وأصبح لا ينتفع به ، وهذه العبارة وردت عند ابن أبى أصيبعة ولكن بصورة أخرى . ينقل ابن أبى أصيبعة من تعاليق الشيخ أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى " أن يحيى النحوى كان نصرانيا بالإسكندرية وأنه قرأ على اميونيس ، وقرأ اميونيس على برقلس .قال، ويحيى النحوى يقول أنه أدرك برقلس وكان شيخا كبيراً لا ينتفع به من

1 كمال السامرائى ، التعريف بأبى بكر الرازى ، ص 19 .

الكبر "[1]. ومن المعروف أن ابرقلس كان يعيش فى القرن الخامس ، إذ يذكر الدكتور محمد على أبو ريان أن ابرقلس تولى " زعامة المدرسة بعد سوريانوس وكان تلميذا لبلوتارك . وقد ولد عام 410 م فى القسطنطينية ونشأ فى ليقية ثم ارتحل إلى أثينا فى سن العشرين ومات عام 485 م "[2]. وأن أمونيوس كان تلميذا لابرقلس وعلم فى الإسكندرية. فإذا كان يحيى النحوى قد " أدرك برقلس وكان شيخا كبيراً لا ينتفع به من الكبر " فإنه فى هذه الحالة يتعين أن يكون قد أدركه بعد أن جاوز هو – أى يحيى النحوى– الخمسين من عمره وفقا لقوله هو أنه حين طلب العلم كان قد بلغ " نيفا وأربعين سنة". وتأسيساً على هذا فإذا كان يحيى النحوى قد أدرك ابرقلس فى نهاية عمره – أى ابرقلس– لكان من الضرورى أن يكون يحيى ، على أقل تقدير ، قد جاوز الخمسين من عمره فى نهاية القرن الخامس ، ومن ثم لا يعقل أن يكون قد امتد به العمر حتى منتصف القرن السابع الميلادى .

إلا أن الأمر المحير فى هذا الصدد هو ما يذكره ابن القفطى عن برقلس حيث يقول " وهو برقلس القائل بالدهر الذى تجرد للرد عليه يحيى النحوى بكتاب كبير صنفه فى ذلك وهو عندى ولله الحمد والمنة على كل خير . وذكر يحيى النحوى فى المقالة الأولى من الرد عليه

---

[1] ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص 152

[2] د. محمد على أبوريان ، ارسطو ، ص 345

أنه كان فى زمان دقلطيانوس القبطى"[1]. وهنا لنا وقفة ، إذ نلاحظ مجموعة من الأمور المتصلة وهى :

الأول ، أن ابن القفطى يذكر أن لديه كتاب صنفه يحى النحوى للرد على ابروقلس وهو" كتاب كبير صنفه " ويقول " وهو عندى ولله الحمد" ، ولم يذكر لنا اسم الكتاب أو مقالاته . فهل الكتاب الذى كان لديه هو " كتاب الرد على برقلس ، ثمان عشرة مقالة " ، أو كتاب " نقضه للثمان عشرة مسألة لديدوخس برقلس الأفلاطونى " ، على مايذكر ابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء؟[2] هذه نقطة مهمة لم يقدم لنا ابن القفطى اجابة عليها ، وإنما تركها معلقة بدون تحديد ، مما يجعلنا نشك فيها .

الأمر الثانى ، ما يذكره ابن القفطى من أن برقلس " كان فى زمن دقلطيانوس القبطى " . هذه الفقرة يشوبها خطأ تاريخى واضح ، لأنه من المعروف أن دقلطيانوس القبطى ملك فى الفترة من عام 284م وحتى عام 305 م . فإذا كان ابروقلس قد عاصر دقلطيانوس على أحسن الفروض عام 305 م فإنه من المستحيل أن يكون قد عمر حتى عام 485 م ، لأن معنى هذا أن يكون عمره قد تجاوز مائة وثمانين عاما وهذا ضرب من المحال . ومعنى هذا أن الخلط واضح فى ذهن

[1] ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 63
[2] ابن أبى أصيبعة ، المرجع السابق ، ص 154

ابن القفطى لأن الحديث فى هذه الحاله ينصب على يحيى النحوى الذى عاش فى الفترة 410-485 م . وهذا الأمر يسمح لنا باستنتاج أن ابن القفطى لم يكن محققا جيدا يتحرى أصول التحقيق الداخلى والخارجى للنصوص . وبذا تصبح المسألة برمتها إما محض تأليف وتوليف من ابن القفطى أو عدم نقد وتحرى للنصوص . وعند هذا الحد تصبح رواية ابن القفطى بدون سند تاريخى ، لأننا نفتقد البينات التاريخية الصحيحة التى يمكن أن تؤيد نص ابن القفطى باعتباره وثيقة نقوم بنقدها ، ويبقى مصدر الرواية مجهولا تماما وتبقى أهداف ابن القفطى من روايته التى امتزج فيها الواقع بالخيال مجهولة إلى درجة بعيدة .

الأمر الثالث ، يذكر ابن القفطى متابعا ابن النديم " أن يحيى النحوى ذكر فى المقالة الرابعة عندما فسرها من كتاب السماع الطبيعى لأرسطو وتكلم فى الزمان فضرب مثالا قال فيه : مثل سنتنا هذه وهى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة لدقلطيانوس القبطى "[1] وقد ذكر ابن النديم النص ذاته وذكر أنه من المحتمل أن يكون فسر هذا الكتاب فى صدر عمره ، لأنه كان فى أيام عمرو بن العاص . والواقع أن هذا المؤلف ظهر عام 648 م ولايمكن أن يكون عام 627 م وفقا للرأى الذى يذهب إليه المستشرق ماكس مايرهوف[2] ، ومن ثم تكون السنة الثالثة

[1] ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 233

[2] ماكس مايرهوف ، " من الإسكندرية إلى بغداد " ص 50

والأربعين وثلثمائة له هى سنة 648 م . لكن ماكس مايرهوف يــذكر أيضا أنه " ورد فى الكتاب السادس عشر من شــرح يحيــى النحــوى للسماع الطبيعى ولكن السنة الوارد ذكرها هى سنة 245 لــدقلطيانوس أى ما يعادل سنة 529 ميلاديــة "[1] وإن كــان وفقــا لتــاريخ زمــن امبراطورية دقلطيانوس (284 –305 م) فسنة 245 لدقلطيانوس هى سنة 550 م .

إن ما يهمنا فى هذا التقرير التاريخى الذى نحاول عن طريقه ضــبط أخطاء المؤرخين إنما يتمثل فى الخلط التاريخى الواضح الــذى ورثــه المؤرخون عن ابن النديم ، وهو ما لم يتنبه له كل مــن تنــاول هــذه الوقائع بالدراسة والبحث والتحليل ، وتلك مسألة غريبة حقا !

مسألة أخرى يمكن أن تكشف لنا عن الأخطاء التاريخية الفادحة التى وقع فيها ابن القفطى تلك المتعلقة بترجمتــه للإســكندر الإفروديســى وجمعه إياه بالطبيب جالينوس فى فترة زمنية واحدة ، وهى مسألة غير صحيحة. وما يجعلنا نختار هذا النموذج الذى لم يلتفت إليه الذين أرخوا لهذه الفترة وحاولوا تحليل جوانبها ، إنما يرجع إلى أمــرين أساســيين هما:

الأول : ما تكشف عنه المعطيات التاريخية التى يقدمها ابن القفطى من

---

[1] المرجع السابق ، نفس الموضع

خلط تاريخى واضح جعله ينتج من بين خياله قصصا لا صحة لها .

الثانى : أن مؤلفات الإسكندر الإفروديسى وشروحه ذات صلة مباشر بالإسكندرية الإسلامية وقصة الحريق ذاتها .

نشير فى مبدأ الأمر إلى أن ابن القفطى يزودنا بمقدمة مهمة يجمع فيها بين الإسكندر الإفروديسى والطبيب جالينوس ، ويشير إلى أنه كان معاصره وناظره ، وأنه جرت بينهما محاورات ومناقشات أدت بالإسكندر الإفروديسى أن يطلق على جالينوس رأس البغل لقوة رأسه[1]. ولكن علينا أن نتساءل عن حقيقة المعاصرة التاريخية التى يذهب إليها ابن القفطى لنقف على حقيقة المسألة من الناحية التاريخية ، لعل ذلك يقدم لنا أدلة جديدة .

يشير ابن القفطى إلى أن الإسكندر الإفروديسى كان حيا فى زمن ملوك الطوائف ، وهو الزمن الذى يمتد من هزيمة الإسكندر لدارا عام 333 ق . م حتى تغلب ازدشير بن بابك على الأردوانيين سنة 179 م، أى أن ملوك الطوائف ملكوا 512 سنة[2] ، وهو التاريخ الذى يمتد إلى العصر الرومانى وبالتحديد حتى ماركوس اوريليوس (161 –180 م). وليس لدينا شك أن الطوائف الذين يقصدهم ابن القفطى هم ملوك

---

[1] ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 40

[2] ابن الوردى ، تتمة المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 1 1970 ، ص 64

الطوائف فى العصر البطلمى وليس العصر الرومانى ، وفقا لما يذكره، لأنه يؤكد أن مؤلفات الإسكندر الإفروديسى كان يرغب فيها فى الأيـــام الرومية والملة الإسلامية ، ويترتب على هذا أنه لابد أن يكون قد ألفها قبل ذلك فى العصر البطلمى ، هذا من جهة . ومن الجهـــة الأخـــرى يمكن أن يكون الإسكندر الإفروديسى قد دون فى فترة لاتتجاوز ســـنة 30 ق . م وهى الفترة التى يتحدد بها نهاية العصر البطلمى .

أما فيما يتعلق بجالينوس فإننا نجد فى ترجمته التى يقدمها لنا عـــدة تواريخ ، إذ يذكر ابن القفطى ماقاله جالينوس عن نفسه فـــى المقالـــة الأولى من كتابه فى الأخلاق " .. أن ذلك كان فى سنة أربـــع عشـــر وخمسمائة للإسكندر " وهذ فى رأى ابن القفطى أصح ما ذكر من أمر جالينوس [1] . وتأسيسا على هذا يكون جالينوس دون فى ســـنة 191 م وهى السنة الرابعة عشر وخمسمائة للإسكندر .

إن مايذكره ابن القفطى يتفق مع بعض ما يذكره ابن أبـــى أصـــيبعة الذى ذكر أن جالينوس قال فى المقالة الأولـــى مـــن كتـــاب (عمـــل التشريح) " قال جالينوس قد كنت وضعت فيما تقدم فى علاج التشريح ... وذلك فى أول ملك انطونيوس الملك فى وقتنا هذا ، ومما يؤيد هذا قول جالينوس فى الكتاب الذى وضعه فى تقييد اسماء كتبـــه ويعـــرف

[1] ابن القفطى ، المرجع السابق ، ص 88

ببنكس ... فلما ملك انطونيوس من بعد اوريانوس ....."[1]، ومن ثم فإنه تبعا لهذا يكون جالينوس قد دون فى الفترة الواقعة بين الأعوام(138 – 161 م) وهى فترة ولاية انطونيوس .

وتبعا لرواية اسحق الراهب التى يرويها ابن أبى لأصيبعة والتى يذكر فيها أن جالينوس " ولد بعد زمن المسيح بتسع وخمسين سنة "[2]، ومن المعروف أن المسيح رفع سنة 33 م ، ومن ثم تكون ولادة جالينوس سنة 92 م ، وهذا التاريخ يمكن قبوله عقلا ، كما أنه من الناحية المنطقية يمكن أن يمتد تدوين جالينوس حتى عام 161 م أو فى فترة قريبة منها ، وان كان هذا يبعد عن رواية ابن القفطى التى تمتد إلى عام 191 م ، رغم أن هذا ليس مستحيلا ، خاصة وأن ابن أبى أصيبعة يقوض ما ذكره يحيى النحوى من تقسيم عمر الأطباء السكندريين إلى وقتى تعليمه وتعلمه . ويضعف من قوله أن جالينوس عاش سبعا وثمانين سنة منها سبع عشر متعلما وسبعين سنة عالم ومعلم.

وتأسيسا على كل ما تقدم فإنه يمكن لنا أن نحصر الفترة التى عاش فيها جالينوس تبعا للروايات التى يمكن قبولها عقلا والتى تتفق فيما بينها فى الفترة التى تقع ما بين 92 م إلى 191 م ، وعلى هذا يكون

---

[1] ابن أبى أصيبعه ، عيون الأنباء ، ص 74

[2] المرجع السابق ، ص 71

بين جالينوس والإسكندر الإفروديسى قرنين من الزمـــان إن لـــم يكـــن أكثر. لكن السؤال المحير حقا هو : كيف جمـــع ابـــن القفطـــى بـــين شخصيتين بينهما هذا الفارق الزمنى الكبير ، بل والأكثر مـــن هـــذ أن يؤسس حوارا بينهما . وقياسا على هذا فإن حالـــة يحيـــى النحـــوى / عمروبن العاص ، تشبه تماما حالة الإسكندر الإفروديسى/ جـــالينوس ، وهى مسألة ترد إلى قوة الخيال. كأن القصة تكررت عند ابن القفطى. ومع أننا لا نأخذ على ابن القفطى أى مطعن شخصى كما يرى الدكتور العبادى ، إلا أننا نختلف معه فيما ذكره من " أن كتابه فـــى صـــورته المختصرة بين أيدينا يدل على ثقافـــة أصـــيلة فـــــذة إذ أن الأخطـــاء التاريخية التى وقع فيها ابن القفطى وهو يكتب عن المفكرين والحركات الفكرية أدت فى كثير من الأحيان إلى نتائج تاريخية بعيدة المدى تماما كما حدث فى روايته لقصة مزعومة عن مكتبة الإسكندرية .

الأمر الرابع ، ويتمثل فى أن البينات التاريخية الحديثة كشـــفت عـــن بعض الأمور المهمة وهى :

1- ما أضافه الدكتور على سامى النشار من أفكار تتعلق بوجود أكثر من شخصية تحمل اسم يحيى النحوى .

2- ما أضافه الدكتور سحبان خليفات من تمييز بين شخصيات يحيى النحوى ، وتقريره أن الأمر اختلط على العرب (وربما كان يقصد ابـــن

القفطى تحديداً) .

3- ما أضفته فى التحليل التاريخى لفك الاشتباك بين شخصيات يحيى النحوى وتواريخ معاصرتها لبعض الحوادث التاريخية أو ملوك الدول ، وهى نقطة لم تكن موضع اهتمام المؤرخين ، أو من تناولوا شخصية يحيى النحوى بالبحث والدراسة والتحليل . وقد أثبت التحليل فى هذا الجانب أن يحيى النحوى عاش فى الفترة 410-485 م ، ومن ثم لم يحضر وقائع الفتح العربى الإسلامى للإسكندرية. ولم تكن هناك شخصية تعرف باسم يحيى النحوى وقت الفتح الاسلامى . وهذه المسألة تكشف عن أخطاء المؤرخين ،فيما يتعلق بنصى ابن القفطى وابن العبرى فهما معا يثبتان بينات سلبية لاحقيقة تاريخية لها ، ويستوى فى هذا أيهما أخذ عن الآخر ابن القفطى أم ابن العبرى .

4- ليس من قبيل وقائع التاريخ الصحيح أن نخلط بين شخصيات مختلفة ، فى فترات مختلفة لما يذكره ابن القفطى أو غيره من الكتاب عن يحيى النحوى الذى شكل جوهر القصة فى كتابات المؤرخين العرب ابتداءً من القرن السادس الهجرى . وليس من قبيل وقائع التاريخ الصحيح أن نذكر أن الغرب عرف هذه القصة عن طريق كتابات البغدادى أو ابن القفطى ، وإنما الصحيح أن القصة برمتها انتقلت إلى الغرب عن طريق المؤرخ اليهودى الأصل المسيحى الديانة

ابن العبرى فقد أراد أن ينفى التهمة بطريق السلب عن اليهـود الـذين قدموا كل العون والمساعدة لقيصر أثناء حرب الإسكندرية مما أدى إلى تدمير واحراق الأسطول المصرى الرابض فـى ميناء الإسكندرية بمنطقة القصور الملكية (ونحن نعلم تاريخيا أن كليوباترا حرمت اليهود من الغلال وقت المجاعة عقابا لهم على موقفهم) . ومن جهة أخرى أراد ابن العبرى أن ينفى التهمة عن بنى جلدته من المسيحيين المتشددين فى الإسكندرية الذين أعملوا التدمير والحرائق فى كل ما تبقى من علوم الوثنيين أثناء تدمير السرابيوم باعتباره معقل الوثنية فى آخر موجات الهجوم على كل ماتبقى من علوم القدماء فى نهاية القرن الرابع الميلادى .

5- لقد ترجم كتاب ابن العبرى تاريخ مختصر الدول إلى اللاتينية والسريانية ونقل إلى العالم الأوروبى قبل كتابات البغدادى وابن القفطى، فتلقف الغرب الرواية ونسج على منوالها العديد من الأحداث التى اختلط فيها الواقع بالخيال.

6- ومن الصحيح أيضا فى رأينا أن كتابات البغدادى وابن العبرى وابن القفطى لم تشكل رافداً قوياً لحركة نقد التاريخ اعتباراً من القرن السادس الهجرى وحتى القرن الثامن الهجرى . وإنما امتلأت هذه الكتابات بوقائع وأحداث تاريخية شابها الاختلاط والاضطراب وتحتاج

من الباحثين والمحققين ضرورة دراستها ونقدها تاريخيا . لقد اعتمدت هذه الكتابات بصورة مباشرة على كتاب الفهرست لابن النديم الذى شكل تطوراً مهما فى اطار الفهم المعرفى فى عصره ، بينما اختلطت الحقيقة بالخيال والواقع بالأسطورة فى الكتابات التى أشرنا إليها ، ومن ثم لم تشكل اضافة حقيقية تتجاوز تاريخ ابن النديم فى معناه أو مبناه.

يتبين لنا من كل ما تقدم أن قصة يحيى النحوى مع عمرو بن العاص مزعومة ولا ظل لها من الحقيقة ، وأن ماروواه ابن القفطى وابن العبرى عن لقاء الرجلين أكـذوبة ، وأن الحقيقة الثابتة فى هـذا الأمر أن مكتبة السرابيوم وهى آخر بقايا مكتبة الإسكندرية القديمة اختفت من الوجود تماما فى آخر موجات الصراع بين المسيحيين والوثنيين عام 391م ، ومن ثم لا علاقة للفتح الإسلامى بقصة مكتبة الإسكندرية القديمة أصلا .



المراجع العربية

ابن النديم (+ 385 هـ) ، الفهرست ، المكتبة التجارية ، مصر ، 1348 هـ

ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ، 1970

ابراهيم جمعة ، جامعة الإسكندرية فى العصر الإغريقى الرومانى والنقل عنها وتأثر العقل العربى بعلومها ، ط2 1981 ، وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى عام 1944

ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 2 ، ط 4 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1976

استرابون فى مصر ، نقله من اليونانية د . وهيب كامل ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1954

أبو الحسن البلاذرى، فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 1403/1983هـ

البغدادى ، الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، مطبعة وادى النيل ، طبعة أولى ، 1286 هـ 28

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى حتى الفتح العثمانى ، دار المعارف ، مصر ، 1961

السير وليام ثورب تارن ، الحضارة الهلينستية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة د. زكى على ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1966

الفريدج. بتلر، فتح العرب لمصر، عربه محمد فريد أبو حديد بك،مكتبة مدبولى ، القاهرة، ط 2 1996
بول غليونجى ، الطب عند قدماء المصريين ، الإسكندرية ، 1974
جريجبينوج ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، محاضرات العام 1946 ، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على ، د. محمد عواد حسين ، القاهرة ، 1954
جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامي، دار المعارف ، مصر ، 1967
جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج4 ، ترجمة د. إبراهيم بيومى مدكور وأخرين ، دار المعارف ، مصر ، 1970
جوستاف لوبون ، حضارة العرب
حسن ابراهيم حسن ، تاريخ عمروبن العاص ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، 1966
حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المكتبة التجارية،
حسين الشيخ ، العصر الهللينستى ، دار المعرفة الجامعية ، 1993
حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ حضارة اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية ، 1987
حسين الشيخ ، مصر تحت حكم اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1997
حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ الحضارة : مصر اليونانية الرومانية ، 1985

سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة ،
سحبان خليفات ، مقالات يحى بن عدى الفلسفية، عمان ، منشورات الجامعة الأردنية ،1988
سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية منذ أقدم العصور ، 1963
سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، أجزاء متعددة واصدارة جديدة
شعبان عبد العزيز خليفة ، الكتب والمكتبات فى العصور القديمة ، الدار المصرية اللبنانية ، 1997
على سامى النشار ، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام
لطفى عبدالوهاب ، دراسات فى العصر الهلينستى ، دار المعرفة الجامعية ، 1999
محمد كرد على ، الاسلام والحضارة العربية ، ط2 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج1 ، القاهرة ، 1934 ، 1950
محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ط1 ، 1943 . وأعيد طباعته عام 1947 ، 1990
محمد ثابت الفندى ، فلسفة الرياضة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1969
محمد على أبوريان ، تاريخ الفكر الفلسفى : أرسطو والمدارس المتأخرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1972 ،
مصطفى العبادى ، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1985

مصطفى العبادى ، تاريخ الإسكندرية ، مطابع الاهـــرام التجاريـــة ، 1999

ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمـــة محمـــد بـــدران ، المجلـــد الرابع،8

نجيب رياض ، الطب المصرى القديم ، مكتبة الكرنـــك ، القـــاهرة ، 1970

نبيل راغب ، عصر الإسكندرية الذهبى :رؤية مصرية علمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993

هنرى رياض وآخرين ، دليل آثار الإسكندرية ، مراجعة د. داود عبده داود

هذا بالاضافة إلى العديد من المراجع العربية الأخرى الموجـــودة بـــين صفحات هذا الكتاب .

المراجع الأجنبية

A. Rosalie David, The Ancient Egyptians: Religious Beliefs and Practices, Routledge & Kegan Paul, London and New York, 1986.

Ellis , Ptolemy of Egypt , Rutledge , New York, 1994

El- Abbadi , M ., The life and Fate of the Ancient Library of Alexandria,

Matter, Essai Historique Sur l'Ecole d'Alexandrie, Tome 1, Paris , 1820

Mason, S. F., A History of the Sciences, Collier Books, New York, 1962.



فهرست الموضوعات


الحضرى للطباعة
١١ شارع منشا - محرم بك ت: ٤٩٤٤٩٧٧
© M-ATEIA